هذا العدد

لم يكن هدفنا فى هذا العدد هو أن نقوم عرضا عاما لانجازات العلوم الانسانية ، اذ أن عرضا كهذا ، حتى لو كان موجزا ، لا تكفيه عشرات المجلدات . بل كان لنا هدف أكثر تواضعا ، و عرض التطورات الحديثة فى مناهج العلوم الانسانية وفى نظرياتها العامة ، دون اى خوض فى تفصيلاتها . فليس من مهمة هذا العدد أن يقدم عرضا ((لمضمون)) العلوم الانسانية، وانما هو يترك مسائل المضمون جانبا لكى يركز جهوده على عرض كل ما هو جديد فى الأساليب الفكرية والعملية المستخدمة فى هذه العلوم .

وعلى الرغم من أن هذا هدف متواضع من حيث نطاقه ، فانه من حيث قيمته اهم بكثير من البحث فى مضمون هذه العلوم وتقديم عرض لتطبيقاتها الخاصة . ذلك لان المنهج المتبع فى أى علم انسانى هو الذى يتحكم ، آخر الامر ، فى تحديد طبيعة المضمون ، بل هو الذى يرسم طريق الانجازات التى يمكن تحقيقها فيه عمليا . والنظرية العامة هى التى تصبغ بطابعها الخاص كل التطبيقات الجزئية . وجميع

عقبات فى طريق العلوم الانسانية

د. فؤاد زكريا

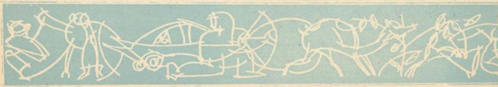


التحولات الحاسمة فى مجال العلوم الانسانية انما تمت بفضل مناهج او نظريات جديدة ، أما التطبيقات فهى على الدوام نتيجة لاحقة تترتب على التغيرات فى المناهج والنظريات .

ولسنا نزعم أننا حققنا هذا الهدف كاملا . فهناك علوم انسانية لم يرد لها ذكر فى هذا العدد ، وتلك فى لأغلب هى العلوم التى يغلب عليها الطابع الفنى المتخصص، والتى يصعب عرض تطوراتها المنهجية الا فى أبحاث شديدة التعقيد . وهناك علوم انسانية اخرى نشعر بأن معالجتها كانت تحتاج الى مزيد من الاستكمال . ولكن الذى يمكننا أن نؤكده ـ مطمئنين ـ هو ان كل من اسهم فى هذا العدد قد بذل قصارى جهده لكى يقدم الى القارىء المثقف صورة دقيقة وافية قدر الامكان للتطورات الاخيرة فى مناهج ونظريات مجموعة من أهم العلوم التى تتخذ لنفسها موضوعا من دراسة أعظم الكائنات واعقدها ـ الا وهو الانسان .

الفكر المعاصر

كان ازدهار الدراسات الانسانية ـ ومازال ـ مرتبطا على نحو وثيق بالأزمات التى يمر بها الانسان نفسه . ففى كل عصر يجد فيه الانسان نفسه امام مفرق طرق حاسم ، أو يرى نفسه عاجزا عن مواجهة تحديات أقوى منه وأبعد عن سيطرته ، أو يشعر بأن زمام الأمور أوشك على الافلات من يده ، وبأن هناك قوى عاتية لا سلطان له عليها ، توشك على أن تودى به الى الدمار ـ فى كل عصر كهذا ، كان الانسان يعود الى نفسه باحثا منقبا ، وكان يقنع نفسه بأن حل مشكلاته يكمن في داخله ، وفى فهمه لنفسه ، قبل أن يكمن فى الطبيعة الخارجية . وهكذا كانت الأزمات السياسية والكوارث المتلاحقة التى مرت بها أثينا فى عصر سقراط مرتبطة باتجاهه الى بحث النفس الانسانية فى عبارته المشهوره « اعرف نفسك » وكانت أزمة العلم الطبيعي ، والهزة العنيفة التى أحدثتها الكشوف الفلكية فى أوائل العصر الحديث ، مرتبطة باتجاه ديكارت الى البحث فى أعماق الذات الانسانية ، واستهلال عهد جديد للفكر الفلسفى ، يدور حول المعرفة الانسانية والمنهج الذى ينبغى ان يتبعه العقل الانسانى للوصول الى الحقيقة ، وهو العهد الذى كانت ترمز اليه عبارته المشهورة « انا أفكر اذن انا موجود » . وكانت العلاقات الاجتماعية اللا انسانية التى أدى اليها انتشار الثورة الصناعية فى أوروبا ، هى الأصل فى ظهور ذلك الفهم الجديد للمجتمع الذى نادى به ماركس ، وأصبح منذ ذلك الحين عاملا رئيسيا من العوامل الى تحدد شكل مجتمعنا المعاصر . وكانت الأزمة الى إحدثتها العلوم البيولوجية فى القرن التاسع عشر ، وادراك الروابط الوثيقة بين طبيعة الانسان الحالية وبين أصوله الحيوية الأولى ، من العوامل الى ساعدت على تحول دراسة النفس الانسانية فى اتجاه جديد بفضل التحليل



النفسي عند فرويد . كما كانت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى فى الثلاثينات من هذا القرن قوة دافعة لمزيد من التعمق فى الدراسات الانسانية ، ولظهور نظريات ومناهج جديدة فيها . وأخيرا فان أزمة الحرب والسلام التى يمر بها العالم فى أيامنا هذه والتهديد الدائم الذى يتعرض له أول جيل بشرى أصبح يملك بالفعل من أدوات الدمار ما يكفى لافناء الحياة على سطح الارض — هذه الأزمة قد أدت الى مراجعة جذرية لكثير من مفاهيم العلوم الانسانية ونظرياتها ، والى بذل محاولات دائبة من أجل تحقيق نوع من التوازن بين فهم الانسان لنفسه ، وبين السيطرة الهائلة على الطبيعة ، التى حققتها التكنولوجيا المعاصرة.

خلال هذا التاريخ الطويل ، كانت دراسة الانسان تزداد تعمقا فى كل مرحلة ، **وكان لا بد للرواد الذين مهدوا الطريق لسير هذه الدراسة فى طريق العلم من أن يكافحوا من أجل التغلب على عقبات كانت كفيلة بأن تحول دون ظهور أية معرفة علمية بالانسان** • وعلى الرغم من أن هذه **العقبات معروفة ، وكثيرا ما** يرد ذكرها — **كلها أو** بعضها — فى المقدمات التى تكتب للمؤلفات الخاصة بمناهج البحث فى العلوم الانسانية ، فانا لا نرى بأسا من أن نعرض هنا لأهمها ، وذلك نظرا الى ما يلقيه هذا الموضوع من ضوء على المشكلات التى نود أن نناقشها فى هذا المقال :

١ — **أولى هذه العقبات** نوع من **الجمود العقلى أدى بالمفكرين الى أن يرتفعوا بالانسان فوق مستوى الموضوعات التى يمكن أن تخضع للبحث العلمى المنظم ، وحجتهم فى ذلك هى الدفاع عن الكرامة الانسانية ، والاحتفاظ للانسان بمركزه المميز فى الكون ، وتأكيد ضرورة معاملته على نحو يختلف عن ذلك الذى تعامل به « موضوعات » العالم الطبيعى** • على أن مثل هذا الحرص الكاذب على الكرامة الانسانية كان هو القوة الدافعة من وراء المعارضة التى سبق أن قوبل بها كوبرنيكوس عندما أكد أن الأرض — مقر الانسان — ليست مركز الكون ، وليست هى النقطة المحورية التى تدور حولها ، ومن أجلها ، كل حوادثه . وبالمثل كان هذا الاهتمام الزائف بمكانة الانسان « الاستثنائية » و « الفريدة » فى الكون من أهم العوامل التى دعت الى معارضة كل « كاشفى النقاب » عن حقيقة الدوافع الانسانية ، من أمثال فرويد ، وماركس ، وهو نوع من المعارضة لا يقوى على الصمود طويلا فى وجه أى كشف جديد حاسم .

٢ — ويرتبط بالعقبة السابقة اعتقاد ظل مسيطرا على الاذهان ردحا طويلا من الزمان ، يرتكز على حقيقة لا يمكن انكارها : هى **التعقد المفرط للظواهر البشرية** • من هذه الحقيقة استنتج الكثيرون أن أية معالجة علمية لتلك الظواهر لا بد أن تكون تبسيطا مفرطا ومخلا ، يهبط بها الى مرتبة « الأشياء » المألوفة ، المتكررة ، التى تسير على وتيرة واحدة ، ويمكن بسهولة كشف نماذج للاطراد المنتظم فى سلوكها . على حين أن أهم ما فى الانسان هو الاختلافات من فرد الى فرد ، لا الصفات المشتركة بين الأفراد . هذه العقبة تفترض مقدمة رئيسية موروثة منذ عهد الفلاسفة اليونانيين الأوائل ، هى أنه « **لا علم الا بما هو عام** » ، ولكن العلوم الانسانية أثبتت ، بفضل مجموعة من المناهج المبتكرة ، أن من **الممكن قيام علم بما هو خاص**، أو أن الفردى يمكن أن يكون موضوعا لدراسة لا تقل فى علميتها عن تلك التى تتعلق بما هو عام، وبذلك قضت على الأساس الذى ترتكز عليه هذه العقبة .

٣ — واخيرا ، **فقد اعتقد الكثيرون أن العلوم الانسانية ، حتى لو استطاعت ان تضمن لنفسها مكانة مساوية لمكانة العلوم الطبيعية ، ليست بافضل وسيلة لمعرفة الانسان • فهناك حدود معينة لا تستطيع هذه العلوم ان تتعداها ، وهى اذا تمكنت من معرفة الانسان فانما يكون ذلك « من الخارج » ، أما التعمق الحقيقى فى أغوار النفس البشرية ، والنفاذ الى جوهرها الفريد فانما يتم على أيدى وسائط أخرى ، كالادب ، والفن ، والفلسفة** . وذهب بعض أنصار هذا الرأى الى حد القول بأن لمحة من لمحات دستويفسكى قد تفوق — فى فهمها لحقيقة الانسان — مجلدات كاملة فى علم النفس ، وأن استبصار فلسفيا عميقا قد يكشف — بطريقة بسيطة مباشرة — عما تعجز عشرات الأبحاث التجريبية عن الوصول اليه .

على أن **الفن والادب** لا يمكنهما أن يقدما ما فيهما من معرفة عميقة بالنفس البشرية الا لمن يمر « **بتجربة** » من نوع فريد ، هى تجربة تذوق العمل الفنى أو الأدبى والاندماج فيه . فالمعرفة المتضمنة فيهما اذن ليست متاحة للجميع ، وانما هى رهن بتهيؤ المرء لتلقيها ، لا عن طريق المران أو التدريب فحسب ، بل عن طريق اتصافه بقدر

معين من رهافة الحس وشفافية النفس . فهي اذن مقرونة بشروط تجعلها بطبيعتها معرفة **« خاصة »** لا تتوافر الا لفئة معينة من الناس ، وربما كانت‌ه تتوافر لكل فرد فى هذه الفئة ذاتها على نحو يختلف باختلاف ابعاد تجربته الفنية أو الأدبية الخاصة .

اما **الفلسفة** فانها ا بالرغم من كل ما أسهمت به فى اثراء معرفتنا بالانسان ، تكسب المشتغلين بها قدرا لا مفر منه من **الطموح المفرط** ، يجعلهم يتعجلون اصدار الاحكام العامه التى قد تتجاوز بكثير نطاق المعرفة المحققة . فالفيلسوف بطبيعته عاجز عن مجاراة المشتغل بالعلم فى تواضعه ، ورضائه بالقليل ، واكتفائه بالسير المتدرج فى ابحاثه ، وقناعته بالنتائج غير الكاملة ، وتذرعه بالصبر والتأنى والتمهل فى الحكم على الأمور . ومن هنا كان من الصعب ان تترك معرفة الانسان فى ايدى الفلاسفة وحدهم ، لأنهم — مع امتلاكهم للحصيلة العلمية التى أصبحت امرا لا غناء عنه عند معالجة اى موضوع طبيعي او انساني — ما زالوا متمسكين بعادات عقلية تجعلهم يظنون انفسهم قادرين على ان يحققوا فى **استبصار** خاطف ما يعجز العلماء عن تحقيقه بعد بحث شـــاق دءوب . وربمـــا كانت امثـــال هذه الاستبصارات قد حدثت بالفعل فى حالات متفرقة ، ولكنها لم تعد اليوم قاعدة ، وهى على اية حال أمر لا يمكن الاعتماد على حدوثه بانتظام ، فضلا عن ان احتمالات الاخفاق فى هذا المجال اعظم بكثير من احتمالات النجاح .

واذن فلم يكن من العسير على العلوم الانسانية ان تتغلب على هذه العقبات ، وان تؤكد نفسها بوصفها علوما تستطيع ان تضيف على الدوام — بطريقة تراكمية منظمة — مزيدا من المعارف المتعلقة بالانسان ، مســتخدمة فى ذلك مناهج خاصة تقترب او تبعد عن المناهج المستخدمة فى العلوم الراسخة ، التى تعالج موضوعات يسهل كشف الاطار المنتظم فى ظواهرها .

وليس من اهدافنا فى هذا المقال ان نتتبع قصة نجاح العلوم الانسانية فى اكتســاب هذه المكانه ، ولكنا نستهدف ، على العكس من ذلك، تنبيه الاذهان الى بعض الاشكالات التى لا تزال تعوق ســير هذه العلوم ، وتمنعها من تحقيق ما ترجوه لنفسها من نجاح فى فهم الانسان . ولسنا نود ان نتحدث عن الاشكالات التى تدركها هذه العلوم عن وعى ، وتحاول التغلب عليها بجهد دائب منتظم ، بل ان هدفنا الحديث عن صعوبات منهجية تعترض طريق العلوم الانسانية دون ان تكون هذه الاخيرة واعية بها كل الوعى . وخطورة هذا النوع من الصعوبات تكمن فى انه يمكن ان يظل ملازما للعلوم الانسانية امدا طويلا ، بحيث يظل يهدد موضوعيتها ودقتها بالخطر ، وان كانت هذه العلوم تظل طوال ذلك الوقت معتقدة انها تحقق لنفسها موضوعية ودقة تتزايدان باطراد.

ذلك لأن تلهف المشتغلين بالدراسات الانسانية على اكتساب صفة العلمية ، واعتقادهم — عن حق — أن هذه الصفة تشريف وتكريم لأى جهد عقلى يقوم به الإنسان قد ادى بهم احيانا الى الوقوع فى اشكالات منهجية يصعب كشفها ، لأنها — فى مجال العلوم الأخرى — ليست باشكالات على الاطلاق . **وبعبارة أخرى فقد استعيرت من مجال العلوم الطبيعية أو الرياضية مفاهيم معينة، وطبقت بشىء من التسرع فى مجال العلوم الانسانية ، فترتب على ذلك نوع من تشوبه صورة هذه العلوم** ، بحيث اصبحت فى بعض الاحيان تبدو محاكية لعلوم اخرى ذات موضوعات مغايرة ، دون أن تكون قادرة على ادراك الصفات التى تنفرد بها موضوعاتها الخاصة ، والتى تحتم عليها استخدام مفاهيم مخالفة ، او تعـديل المفاهيم المستعارة من المجالات الأخرى ، ان لم يكن من استعارتها بد .

وســوف أكتفى ، لايضــاح وجهة نظرى ، بفكرتين رئيسيتين ، يقوم بينهما ارتباط وثيق ، هما **فكرة الحتمية ، وفكرة القانون** . وسأحاول ان اثبت ان العلوم الانسانية حين طبقت هذين المفهومين على مجالها الخاص ، لم تكن قادرة فى كل الاحيان على ادراك ما تقتضيه سماتها المميزة من تعديلات خاصة كان ينبغى مراعاتهــا عنـد استخدام مفهومين كهذين ظلا مرتبطين بمجال العلوم الطبيعية أمدا طويلا .

فكرة الحتمية :

هناك حقيقة لا يستطيع الكثيرون ممن تشغلهم مشكلات العلم ومناهجه ان يدركوها ، على الرغم من وضـوحها البين : هى **أن الاعتراف بفكرة الحتمية من حيث المبدا لا يتعارض على الاطلاق مع ادراك صعوبة تطبيقها فى مجالات معينة .** وأبسط مثل لذلك هو مجال علم الأرصاد الجوية. فمنذ عهد بعيد تخلت الانسانية عن التفسيرات الأســطورية والغائية لتقلبات الجو ، واصبح هناك اعتراف عام بان ما يطرا على الجو من



تغيرات هو امر خاضع لحتمية دقيقة ، وبأن حالة الجو في اية لحظه معينة هى محصلة عوامل متعددة نستطيع — اذا عرفناها معرفة كاملة — ان نتنبأ بدقة بما ستكون عليه الاحوال الجوية فى المستقبل القريب ، وربما البعيد ايضا . ومع ذلك لا يستطيع احد أن ينكر ، فى الوقت ذاته ، أن علم الأرصاد الجوية ما زال بعيدا عن ادراك كل العوامل التى تتحكم فى حالة الجو فى لحظة معينة ادراكا كاملا ، وحساب تأثيرها بدقة ، بدليل أن التنبؤات الجوية ما زالت معرضة لأخطاء كثيرة ، وان هذه الأخطاء تزداد كلما كان مدى التنبؤ بعيدا . فهل يمكن أن يحكم على الشخص الذى يؤكد وجود حدود لا تتعداها القدرة على التنبؤ بحالة الجو ، فى الحالة الراهنة لعلم الأرصاد الجوية ، بأنه لا يؤمن بسيادة الحتمية فى هذا المجال ؟ من الواضح انه لاتعارض على الاطلاق بين الايمان بالحتميه ، من حيث المبدا ، وبين ادراك الحدود التى لاتتعداها الحتمية فى هذا المجال ومن جهة اخرى ، فليس من حق المرء ان يستخدم الايمان بمبدأ الحتمية مبررا لتأكيد ضرورة الوثوق من التنبؤات الجويه الى حد يزيد على ما تسمح به الحالة الراهنه لعلم الأرصاد . وليس من حق مثل هذا الشخص أن يقيس مدى « علمية » الآخرين بمقدار ايمانهم او عدم ايمانهم بصحة التنبؤات الجوية ، مادام من المعترف به ان ظاهرة مثل الحالة الجويه ما زالت من التعقيد بحيث لا يمكن ، فى ضوء معرفتنا الراهنة ، ادراك كل ابعادها وجوانبها والعوامل المتحكمة فيها ادراكا تاما .

وأخشى أن اقول ان شيئا من هذا القبيل يحدث فى مجال العلوم الانسانية . ذلك لأن هذه العلوم قد كافحت ، فى مبدأ الأمر ، كفاحا مريرا من أجل تأكيد انطباق مبدأ « الحتمية » على السلوك البشرى . وما زال الكثيرون غير معترفين بهذا الانطباق ، اى انهم ما زالوا يتمسكون بشكل من اشكال من اشكال ذلك التقسيم المشهور الذى قسم به **«كانت» مجالات** المعرفة الى **عالم للضرورة** هو عالم الطبيعة ، هو عالم الانسان . ولسنا نود أن نخوض الآن هذه المعركة لأنها ستغرقنا متاهات كفيلة بابعادنا عن الفكرة الأصلية التى نرمى الى اثباتها . ولذلك فسوف نسلم بأن الحتمية تسرى ، من حيث المبدأ ، على السلوك الانسانى ، وأن هذا السلوك قابل لأن يتنبأ به اذا ما عرفت كل العوامل المتحكمة فيه

معرفة دقيقة . ومع ذلك ، وبرغم التسليم بهذا المبدأ ، فإن **الظواهر البشريه تبلغ من التعقيد حدا يستحيل معه ، في معظم الاحيان ، ادراك كل العوامل التى يمكن بواسطتها تطبيق مبدأ الحتميه تطبيقا مؤكدا .**

على أن من الأمور التى لا يمكن أن تفوت الملاحظ المدقق ان لدى المشتغلين بالعلوم الانسانية ميلا الى تعجل التطبيق يزيد بكثير عن ذلك الميل الذى نجده لدى اصحاب العلوم الأخرى . ففى الطب ، مثلا ، لا يستخدم عقار جديد الا اذا ثبتت فائدته ـ فى الحالات التى ينطبق عليها ـ ثبوتا مؤكدا . وصحيح انه قد تحدث من أن لآخر حالات سوء استخدام للعقاقير الطبية ، او تعجل فى تطبيقها ، غير ان هذه الحالات تمثل الاستثناء ، لا القاعدة ، فضلا عن انها لا تعبر عن موقف العلماء فى هذا الميدان، بل تمليها المصالح التجارية للشركات الساعية الى الربح أو اى دافع آخر غير علمى .

أما فى حالة العلوم الانسانية ، فان هذا الميل الى التطبيق المتعجل ، دون ان تكون قد توافرت بعد كل الشروط الكفيلة بالاطمئنان الى ان كافة شروط الحتمية قد توافرت ، ظاهر كل الظهور . **وصحيح أن هذه العلوم تتخلى ، فى كثير من الأحيان ، عن المفهوم التقليدى للحتمية، أعنى مفهوم العلاقة الحتمية** بين سبب ونتيجة، **وتستعيض عنه بمفاهيم أكثر ملاءمة لمجال معقد كمجال الظواهر البشرية ، مثل مفهوم الارتباط الاحصائى بين الظواهر ،** ولكن يظل من الصحيح مع ذلك أن التلهف على اخضاع دراسة السلوك البشرى للمنهج العلمى ـ وهو تلهف مشروع تماما ـ قد ادى فى أحيان غير قليلة الى تسرع فى التطبيق لم يتوخ علماء الانسانيات فيه من الحذر بقدر ما يتوخاه علماء الطبيعة او الطب ، مثلا ، حين يشرعون فى تطبيق كشف جديد .

وربما كان الأهم من هذه الملاحظة أن علماء الانسانيات كثيرا ما ينظرون بعين الريبة الى كل من ينبه الى ظاهرة التعجل هذه . وقد يكون لهم فى ذلك بعض العذر : ذلك لأن هناك من يشكك فى قيمة التطبيقات التى تقوم بها هذه العلوم لانه غير مؤمن اصلا بامكان خضوع الظواهر الانسانية للبحث العلمى الدقيق ، وبالتالى فهو غير مقتنع بأن من الممكن استخلاص تطبيقات منها . ولكن الواجب تجنب الخلط بين اصحاب هذا الراى ، واصحاب الراى المخالف ، القائل ان **مبدأ قابلية الظواهر الانسانية للبحث العلمى مبدأ سليم ، ومع ذلك فان تطبيق هذه العلوم ينبغى أن يواكب مستوى التقدم النظرى الذى تحققه ، لا أن يسبقه .** ولما كان استكشاف الظواهر البشرية مازال أمرا حديث العهد ، ومازلنا فى اول مراحل البحث فى هذا الميدان الشديد التعقيد ، فان للمرء الحق فى ان يأخذ على بعض العلوم الانسانية انها تتسرع الى حد ما فى التطبيق ، فتلجأ الى « **العلاج** » بمجرد أن تكتشف نظرية جديدة ، وتسارع بتقديم **((تفسير))** دون أن تكون قد توافرت لديها سوى معطيات قليلة .

وحسبنا ، في هذا الصدد ، ان نضرب مثلا بالجهود التى يبذلها أنصار التفسير الاجتماعى والاقتصادى للظواهر الثقافية والفنية ، وكل ما ينتمى الى « البناء الأعلى Superstructure » في حياه الانسان . **فمن الممكن ان يكون المرء مؤمنا بتأثير البناء الأدنى فى البناء الأعلى ، ومعترفا اعترافا كاملا بالمبدأ القائل بوجود علاقه متبادلة بينهما ، ولكن لا يلزم عن ذلك ان يعترف بتطبيق** هذا المبدأ فى كل حالة على حدة : **فلكى يطبق هذا المبدأ تطبيقا صحيحا لا بد أن تكون المعطيات** كاملة أو قريبة من **الكمال ،** أما فى الحالات التى لا نعرف عنها الا وقائع قليلة ، فان من حق المرء أن يعترض على التسرع فى تطبيق المبدأ ، **لا لعدم ايمانه به ، بل لعدم توافر الشروط الكافية** لتطبيقه . ولكن الذى يحدث ان انصار هذا المبدأ يسارعون بتطبيقه بناء على أبسط المعطيات . كما هى الحال فى تطبيقه على عصور سحيقة فى القدم ، لم تتوافر لدينا عنها سوى معلومات هزيلة ـ ويظنون انهم قد وصلوا بذلك الى كل العوامل المتحكمة فى الظاهرة موضوع بحثهم . **وكثيرا ما يترتب على ذلك أن تفسر الظاهرة الواحدة تفسيرين مختلفين كل الاختلاف فى كتابات مفكرين يؤمن كل منهما بنفس المبدأ ، ويطبق نفس المنهج .** وما هذا الا مثل واحد ، من بين أمثلة عديدة ، لظاهرة التعجل فى التطبيق العملى قبل أن يتوافر الأساس النظرى الكافى .

فكرة القانون :

ترتبط فكرة **القانون** بفكرة **الحتمية** ـ مفهومة بأعم معانيها ـ ارتباطا وثيقا . ولقد كان من ابرز مظاهر التقدم في العلوم الانسانية، تأكيدها خضوع الانسان لقوانين يمكن صياغتها واستخدامها فى السيطرة على الظواهر البشرية

والتنبؤ بما سيكون عليه فى المستقبل . وصحيح أن هناك علوما انسانية ما زال يدور بشأنها جدل حول امكان وجود قوانين — بالمعنى العلمى — فيهـا ، ولكن علم النفس ، وعلم الاجتمـاع ، والتاريخ (فى بعض مذاهبه عل الاقل) يستخدمون فكره القانون منذ عهد ليس بالقريب ، ويحققون بذلك نجاحا لا بأس به فى فهم الظواهـر التى التى يتناولونها بالبحث .

ومع ذلك فان المعنى الذى يستخدم به مفهوم « القانون » فى العلوم الانسانية ، يحتـاج الى تخصيص يلائم طبيعه هذه العلوم ، وان كان كثير من المشـتغلين بها ينظـرون الى معنى «القانون» فى علومهم كما لو كان مكافئا لمعناه فى العلوم الطبيعية والتجريبية . واسـاس هذا الاصرار على توحيد معنى «القانون» فى الحالتين هو الرغبة فى ضمان صفة العلمية للدراسات الانسانية ، وهى فى ذاتها رغبة مشكورة ، ولكن الأمانى والغايات — كما نعلم جميعا — لا ينبغى أن تفرض ذاتها على الاوقع او تحاول تشكيله على هواها . **وواقع العلوم الانسانية يشهد بان فكرة « القانون » فيها تتخذ ، فى بعض الحالات على الأقل ، معنى لا يمكن أن يكون مساويا كل المساواة لمعناها فى العلوم الطبيعية .**

ولكى أوضح فكرتى أود أن أضرب لها مثلا بفكرة قوانين التاريخ فى النظرية الماركسية . وأول ما ينبغى أن نتنبه اليه هو أن نتنبه اليه هو أن كلمة **« التاريخ »** ذاتها تجريد لفظى ، وأن تجسيم التاريخ وكأنه شيء او كيان متحرك، ينطوى فى ذاته على قدر غير قليل من التجاوز . كما ينبغى ان نتنبه الى ان التـاريخ ، حسب تعريفه ، يتعلق بالماضى ، واننا حين نتحدث عن **« حركة التاريخ فى المستقبل »** ، على سبيل المثال ، فنحن — من الوجهة المنطقية الخالصة — نرتكب خطأين : أولهما استخدام لفظ يرتبط فى ماهيته بالماضى ، للدلالة على المستقبل ، وثانيهما تجسيم المجردات وتشخيصها وتحريكها ، على النحو الذى أشرنا اليه من قبل .

واذا تركنا جانبا هذه الملاحظات ، التى قد يراها البعض شكلية ، وانتقلنا الى فكرة قوانين التاريخ ، كما تصاغ فى النظرية الماركسية ، لتبين لنا أن القانون الذى يحتم قيـام الصراع بين الطبقة الراسمالية ، نتيجة لا شتداد التناقض بينهما ، ويحتم انتصار الطبقة العمالية فى نهاية الأمر ، ويؤكد حتمية القضاء على راس المال — هذا القانون يتسم بسمات خاصة ، تحول دون تشبيهه ، آليا ، بالقوانين الطبيعية :

١ — أولى هذه السمات أنه مبنى على استقراء ناقص . ففى النظرية الماركسية يبرر هذا القانون على اساس انه كان هناك تناقض مماثل بين الارقاء ومسترقيهم فى العصور القديمة ، وبين الفـلاحين المعدمين والاقطاعيين فى العصـور الوسـطى ، وان هـذا التناقض انتهى ، فى الحالتين ، بانتصار الطبقة المقهورة ، وبتحرك التاريخ خطوة الى الامام ، تسود فيها قيم اكثر تقدمية من تلك التى سادت فى المرحلة السابقة ، وان كانت بدورها تفضى الى تناقض جديد . وقياسا على ذلك ، فان « قانون التاريخ » ذاته يحتم انتهـاء التناقض الثـالث بين العمـال والراسماليين بانتصار الأولين وظهور شكل جديد من أشكال علاقات الانتاج .

ولو سلمنا بكل مقدمات هذا الاستدلال دون مناقشة ، فسوف نجد مع ذلك أن هذا «القانون» يرتكز على حالتين سابقتين مماثلتين ، ويقيس الثالثة عليهما . **ومن الواضح أنه ليس يكفى فى حالة العلوم الطبيعية تكوين قانون من ملاحظة حالتين فحسب .** وفضلا عن ذلك فان التماثل ليس تاما بين الحالات الثلاث في المجال التاريخي، اذ أن كل حالة تقوم فى سياق مختلف عن الحالة الأخرى ، وتختلف فى تفاصيلها عنها الى حد غير قليل . **فاستقراء الماضى اذن لا يعد فى هذه الحالة أساسا كافيا لاستخلاص « قانون » ، اذا كنا نود أن نحتفظ لكلمة « القانون » بمعناها العلمى المألوف .**

٢ — وفى الوقت الذى يؤكد فيه أصحاب النظرية الماركسية — وهى فى هذه الحالة «المادية التاريخية» — أن انتصـار الطبقة العاملة أمر مؤكد بحكم **« قانون تاريخى »** حتمى ، فانهم ، حتى أشدهم تحمسا ، يؤكدون أن **هذه الحتمية ليست آلية ، تفرضها الحوادث ذاتها سـواء شاء الانسان أم لم يشأ ، بل هى حتمية تقوم فيها الارادة الانسانية بدور أساسى .**

ولقد كان تأكيد أهمية الارادة الانسانية على هذا النحو أمرا لا مفر منـه ، اذ أن الكثيرين قد أساءوا فهم المادية التاريخية بحيث تصوروا أن **« حركة التاريخ »** تسير آليا فى صالح الطبقات المغلوبة على امرها ، ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو

فى نظرهم الى بذل جهد كبير فى الكفاح من أجل تحقيق أهدافهم ، اذ أن « حركة التاريخ » ستحقق لهم هذه الأهداف تلقائيا ، وما عليهم الا ان ينتظروا حتى يحقق لهم التاريخ ما يبتغون لذلك كان لزاما على مفكرى المادية التاريخية أن يصححوا هذا الفهم ، ويؤكدوا أن للقانون التاريخى معنى خاصا ، بحيث يستحيل أن يتحقق هذا القانون ما لم تتدخل الارادة الانسانية من أجل ضمان تحقيقه :

على أن هذا التصحيح لمعنى القانون فى مجال التاريخ الانسانى كفيل بأن يجعل هذا القانون شيئا فريدا بحق . ذلك لأن أهم ما يميز القانون العلمى هو استقلاله عن الارادة الانسانية ، وحدوثه سواء شاء الانسان أم لم يشأ . فالى أى حد يستحق أن يسمى قانونا ذلك الذى لا يتحقق الا بمساعدة الارادة الانسانية ؟ وأين هى النقطة التى يمكن عندها تحديد دور الحتمية التاريخية المؤدية الى ظهور القانون ، ودر الارادة الانسانية التى تساعد على تحقيق القانون ؟ وهل هناك حقا ، الى جانب ارادة الانسان ، **أى عامل آخر « خفى » يوجه الحوادث** فى اتجاه معين ، **أم أن الارادة الانسانية هى التى تقوم فعلا بكل شىء** ؟ واذا صح أن ارادة الانسان هى العامل الوحيد المتحكم فى توجيه دفة التاريخ الانسانى ، فما قيمة الاشارة الى « القانون » في هذه الحالة ؟ ألن يكون فى وسع هذه الاراده أن تكسر القانون اذا شاءت ، وتوجهه فى اتجاه آخر ؟

ولكى ازيد هذه النقطة الأخيرة ايضاحا ، أود أن أشير الى حقيقة أعتقد انها غابت عن ذهن كل من قرأت لهم من انصار المادية التاريخية . فتسلسل التفكير فى هذه النظرية يسير على النحو الآتى : هناك قانون تاريخى يحتم انتصار الطبقة العاملة فى صراعها مع الراسمالية ، ولكن هذا القانون لا يسير على نحو آلى ؛ بل لا بد من ان تتدخل الارادة الانسانية، ممثلة فى كفاح الطبقة العاملة ، من أجل تحقيقه، ولولا هذا الكفاح لما استطاع القانون أن يتحقق. والأمر الذى غاب عن أذهان هؤلاء المفكرين هو **أن القول بأن الارادة الانسانية هى التى يتحقق من خلالها قانون التاريخ ، يترتب عليه أن الارادة الانسانية قادرة ـ لو شاءت ـ على كسر القانون أو عدم تحقيقه** . وبعبارة أخرى فان القانون اذا كان رهنا بالجهد الذى يبذله الانسان من أجل وضعه موضع التنفيذ ؛ فانه يمكن ان يلغى لو اتجه جهد الانسان الى عدم تنفيذه ، مادام القانون لا يملك بذاته قوة تمكنه من تحقيق ذاته.

هذه الحقيقة البسيطة لها فى رأيى اهمية قصوى فى فهم تاريخ القرن العشرين : ذلك لأن هذا التاريخ اذا كان سجلا لكفاح الطبقات المقهورة من أجل تحقيق الاشتراكية ، فهو أيضا سجل لكفاح الطبقات المالكة والرأسمالية من أجل الحيلولة دون تحقيقها ولم يكن فى وسع « قانون التاريخ » فى هذه الحالة أن يغلب كفاحا على كفاح ، بل ان الانتصار فى كل حالة كان يتوقف على مقدار الجهد الذى تبذله ارادة الانسان .

واذا كنا نعترف بأن تدخل الانسان قادر على تحقيق حتمية التاريخ ، فيجب أن نعترف أيضا بان التدخل فى الاتجاه المضاد قادر على ابطال تاثير هذه الحتمية أو ابطائه . **وليس تاريخ مقاومة الرأسمالية طوال القرن العشرين الا سلسلة متصلة من المحاولات الواعية التى تبذلها ارادة مضادة ، لالغاء تأثير القانون التاريخى الذى تؤكد نظرية المادية التاريخية أنه سيؤدى في نهاية المطاف الى القضاء على الرأسمالية .**

ومن الواضح أن قدرة الراسمالية على البقاء قد تجاوزت بكثير الحد الذى كان يتوقعه ماركس أو لينين أو غيرهما من أقطاب المادية التاريخية. بل انه لم تظهر حتى الآن اية بوادر تدل على قرب انهيارها ، وربما كان العكس ـ فى السنوات العشر الماضية ـ هو الصحيح . فعلام يدل هذا كله ؟ انه يدل على تلك الحقيقة التى لم يعمل لها أقطاب المادية التاريخية حسابا ، وهى أن ارادة الانسان ، اذا كانت هى شرط تحقيق الحتمية التاريخية ، فانها تستطيع ، اذا اتجهت وجهة مضادة ، أن تغير عن عمد مسار التاريخ فى اتجاه مغاير للاتجاه الذى تشاؤه ارادة الطبقة العاملة ، أى تستطيع ، اذا اكتملت لها القوة الكافية ، أن تبطل تأثير « القانون التاريخى » . **وليست هذه دعوة الى اليأس على الاطلاق ، بل أنها لا تعدو أن تكون تنبيها للانسان المكافح الى أن كل شىء يتوقف على ارادته ، وعلى مدى صلابته فى الكفاح ، والى أن « حتمية التاريخ » لن تنفع المتخاذل ، ولن تعوض تقصيره فى الدفاع عن حقوقه ، أو فى السعى الى تحقيق مطالبه . بل ان مسار التاريخ يمكن أن ينقلب عليه اذا**

ينشدها ، اذ ليست للتاريخ قوة « سحرية » خارج نطاق ارادة الانسان .

٣ — فاذا كان القانون التاريخى **«موضوعيا»** فانه لا يكون كذلك الا بمعنى خاص تماما . **لم يبذل الجهد الكافى فى توجيهه نحو الغاية التى فموضوعيته « مصنوعة » بواسطة الارادة الانسانية** . ومن الممكن ان يثار فى هذا الصدد سؤال على قدر كبير من الأهمية ، وأعنى به : **هل يمكن ان تكون هناك موضوعية « تصنع » ؟ وماذا يعود للموضوعية من معنى حين لا تعود مفروضة بموجب المنطق الداخلى للحوادث ذاتها؟** هذا ، على أية حال ، سؤال لا أود أن أخوض فيه الآن ، بالرغم من أهميته البالغة ، حتى لايفلت من بين أيدينا الخيط الرئيسى للمناقشة. ولكنى أود ان أتناول المسألة من زاوية أخرى، هى : **ما قيمة « القانون التاريخى » ، فى هذه الحاله** ، اذا كان حدوثه أو عدم حدوثه متوقفا على ارادة الانسان ، اى بعبارة أخرى اذا كانت الارادة الانسانية هى العامل الحاسم ، والوحيد، المتحكم فى توجيه ذمة التاريخ ؟

قد يكون أول ما يتبادر الى الذهن ، اجابة عن هذا السؤال ، هو أن القانون التاريخى لا تعود له في هذه الحالة فائدة . **ولكن الواقع أن فكرة وجود قانون تاريخى يحتم انتصار الاشتراكية على الرأسمالية لها فائدة** عملية كبرى : **اذ أنها قوة دافعة تحفز الجماهير على الكفاح وتشجعها عن طريق اقناعها بأن حركة التاريخ تساعدها فى كفاحها ، أو بان كفاحها مساير لحركة التاريخ .** وهى فى هذا الصدد تؤدى وظيفة مشابهة **لوظيفة فكرة المشيئة والقدرة الالهية** بالنسبة الى المؤمنين المجاهدين : **فالقدرة الالهية تفعل من خلال كفاح المجاهدين أنفسهم** ، ومن المستحيل أن تساعد هذه القدرة على انتصار مؤمن متخاذل، اى أن مصير المجاهدين يتقرر ، فى نهاية الأ ، بالجهد الذى يبذلونه فى كفاحهم . ومع ذلك فان شعور المجاهد بأن القدرة الالهية فى صفه ، يقدم اليه قوة دافعة كبرى فى كفاحه ، كما يشل حركة خصومه اذا امتنعوا بأن الارادة الالهية ليست فى صفهم . **فالمبدأ فى الحالتين واحد ،** وهو فى أساسه مبدأ ذو هدف « عملى » قبل كل شىء . وبالاختصار ، فان **فكرة « القانون التاريخى » فكرة تشجيعية قد لا يكون لها فى الواقع نفسه كيان** ، ولكن تأثيرها يتحقق كما لو كانت ذات وجود وتأثير واقعى — بفضل قدرتها الحافزة وحدها .

٤ — فاذا صح هذا التحليل كان معناه ان **فكرة القانون التاريخى يتداخل فيها ما هو كائن مع ما ينبغى ان يكون ، وأنها ليست وصفا لما هو واقع بقدر ما هى اشارة الى ما هو واجب، أى انها فكرة غائية أكثر مما هى وصفية .** فالقانون فى هذه الحالة تعبير عما نريده أن يكون، أى انه نوع من التفكير المبنى على الرغبة والتمنى wishful thinking وكل هذه ، في صميمها ، **معان غير علمية** لا صلة لها بالمعانى المألوفة التى تتضمنها فكرة القانون فى العلم البحت . وهكذا فان فكرة القانون التاريخى ، التى أملتها الرغبة فى تحقيق الموضوعية فى مجال الظواهر البشرية ، واخضاعها للمنهج العلمى الدقيق ، تتضمن بالضرورة عوامل خارجة عن مجال العلم البحت ، وتخدم أغراضا وغايات عملية فى صميمها .

هذا التحليل لا يعنى على الاطلاق اننا نرفض الأهداف التى يسعى الى تحقيقها القائلون بحتمية انتصار الاشتراكية بناء على قانون علمى موضوعى ، بل يعنى أن الألفاظ المستخدمة فى أمثال هذه العبارة ، كلفظ الحتمية ، أو لفظ القانون ، ينبغى أن تفهم على أن لها ، فى هذا المجال الانسانى ، معنى يختلف اختلافا كبيرا عن معناها فى العلوم الطبيعية ، ومن **الواجب أن تسقر فى أذهاننا هذه الاختلافات الأساسية حتى لا يحاول اقتباس مفاهيم العلم الطبيعى وتطبيقها آليا على مجال الانسان .** ولو لم تبادر العلوم الانسانية الى ادراك هذه الحقيقة عن وعى لظلت الى الأبد أسيرة « تطلعاتها » الى العلوم الطبيعية ومحاكاتها لها.

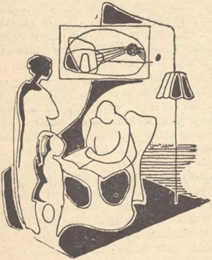
ومجمل القول أننى حاولت فى هذا المقال أن أسير ، على طريقتى الخاصة ، فى نفس الاتجاه الذى يبدو أن العلوم الانسانية كلها تتجه اليه فى الفترة الحاليه من تاريخها ، والذى يظهر واضحا في كثير من مقالات هذا العدد ، اتجاه البحث عن مفاهيم خاصة لهذه العلوم ، أو تحديد معان جديدة للمفاهيم التى تستعيرها من مجالات العلوم الأخرى ، بعد أن اقتربت نهاية ذلك العهد الذى كانت فيه العلوم الانسانية تنبهر بالعلوم الطبيعية وتقتبس فيه مفاهيمها ومناهجها دون تمييز .

فؤاد زكريا

دراسة المجتمع علم ؟

د. سمير نعيم أحمد

إن أى فهم حقيقى للمجتمع الإنسانى لابد أن يكون باتباع المنهج العلمى وأن أية محاولة ناجحة للتحكم فى ظواهر هذا المجتمع أو حل مشكلاته لابد أن تقوم على فهم مبنى على الأسس العلمية لطبيعة هذه الظواهر



نعلم جميعا أن المجتمعات تتكون من أفراد ، وأن هؤلاء الافراد فى حالة تفاعل مستمر بين بعضهم البعض · كما نعلم أيضا أن هؤلاء الافراد ينظمون أنفسهم بأسلوب معين يحدد علاقة كل منهم بالآخر ، أى أنهم يضعون لانفسهم مانسميه بنظام المكانة · وهؤلاء الافراد المنظمون النشطون يكونون تجمعات ومجموعات فيما بينهم يربط بين كل منهـا والاخرى علاقات محددة مثل الروابط المهنية أو السياسية أو الدينية أو الثقـافية · ونحن نعرف من ملاحظـاتنا اليـومية أن هذه العلاقات المتبادلة بين الافراد وبعضهم البعض،وبين التجمعـات التى يكونونها ليسـت ثابتة جامدة ولكنها دينامية ومتغيـرة ، ونسـتطيع أن ندرك بسهولة أن هناك عمليات مختلفة تؤثر على،وتتحكم فى تلك الانماط المختلفة من العلاقات ·

تلك بعض الحقـائق الواضحة البديهية ، والتى تمثل فى الواقع أبسط تعريف للمجتمع – موضوع مناقشتنا فى هذا المقال · والسؤال الآن هو هل يمكن دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية مثلـما أمكن دراسة غيرها من الظواهر الفيزيقية أو البيولوجية ؟ ·

ان الاجابة على هذا السؤال سوف تساعد على حسم الكثير من المشكلات والاختلافات فى الرأى فيما يتعلق بماهية علم الاجتماع · فمازلنا نرى حتى الآن من ينكرون امكانية وجـود علم بهذا الاسم ، وليس أدل على ذلك من أن دراسة المجتمع فى جامعاتنا ، وفى كثير من جامعات العالم ، تعتبر من الدراسات الادبية أو الفنية وليست من الدراسات العلمية · فأقسام علم الاجتماع توجد بكليات الآداب والفنون ، بل ان هناك بعضا من هذه الكليات لا يفرد قسما خاصا لدراسة المجتمع بل يضمها داخل أقسـام الفلسفة أو غيرها من فروع المعرفة · وحين يذكر العلم فنادرا ما يطرأ على ذهن الناس ، حتى أكثرهم معرفة وعلما ومن هم على مسـتوى المسئولية ، أن دراسة المجتمع تدخل فى نطاقه · وحين تنشأ مجـالس قومية متخصصة لرعاية ضروب المعرفة المختلفة تستبعد المعرفة بالمجتمع من قائمة المعرفة العلمية بطريقة آلية وتضاف الى المعرفة الادبية أو الفنية (**مثل المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنـون والعلوم الاجتماعية**) · وما زال الكثير من المثقفين يرون أن فهم المجتمع مسـألة لا تتطلب أكثر من مجرد عملية تأمل لما يدور حولهم وقراءة لما يكتب فى الصحف والمجلات عن «**المسائل**» الاجتماعية، وأن الأمر لا يتطلب تخصصا وتأهيـلا كالذى يتطلبه فهم التفاعلات الكيميائية أو الظواهر البيولوجية· بل ان الأمر يصـل بالبعض منهـم ، من غـير المتخصصين وغير المؤهلين ، الى اعتبـار أنفسهم علماء أو خبراء فى المجتمع يكتبون عنه ويتحدثون فيه دون تردد ودون أن يجدوا أى وجه للشبه بينهم وبين أدعياء الطب مثلا · والمأساة الحقيقية أنه على الرغم من الضرر البليغ الذى ينـجم عن هذا السلوك والذى لا يقل بحال عن الضرر الذى ينـجم عن ادعاء المعـرفة بالطب أو الكيمياء فان المجتمع لا يستجيب لهـاتين الفئتين من الأدعياء استجابة مشابهة · ذلك أن العامة، ولهم عذرهم، مازالوا لا يعلمون أن **دراسة المجتمع قد أصبحت علما له أصوله وقواعده مثلما أصـبحت دراسة الجسم الحى والمواد الجامدة علمـا ، وأن الوقت قد حان لاستبعاد الادعاء والدجل من ميدان دراسة المجتمع مثلما تم استبعاد السحر والشعوذة من ميدان الطب** · من كل ذلك تتضح الحاجة الملحة الى مناقشة وتوضيح الاسس العلمية فى دراسة المجتمع ·

علمية دراسة المجتمع

ان معـظم الاعتراضـات على علمية دراسة المجتمع واللبس فى فهم طبيعة هذه الدراسة تأتى عادة نتيجة للمقـارنة المبـاشرة أو الضمنية بين العلوم الفيزيقية والبيولوجية من ناحية والعلوم الاجتماعية من ناحية أخرى · فالعلوم الفيزيقية **(التى تدرس كل ما هو غـير حى)** ، والعلوم البيولوجية **(التى تدرس أشكال الحياة)** قد حققت حتى الآن انتصارات عظيمة بهرت الناس بنتائجها، ولهذا أصبحت لها مكانة ضخمة فى عقولهم ، أما العلوم الاجتماعية فانها ، نظرا لحداثة نشأتها ، لم تتوصل بعد الى تلك النتائج الباهرة ، ومازال المتخصصون فيها يعملون فى كثير من الصمت من أجل ارساء قواعدها وأصـولها ، وحين يخرج بعضهم عن هـذا الصمت ليعلن فى تسرع بعض النتائج التى توصل اليها أو يطالب بتطبيقها فى مجالات قبل التأكد التام من صـدقها فانه يضر بسمعة ومكانة العلم الذى يعمل من أجله بدلا من أن يرفع منها ، تماما مثلما كان يحدث فى بداية تطور الطب حيث كان السـحرة والمشـعوذون ينتهزون فرصة فشل أى طبيب فى علاج مرضما للتشهير بالطب بأسره والنيل من مكانته · ولكن ليس معنى تأخر نمو وتطور العلوم الاجتماعية عن الفيزيقية أو البيولوجية أن الاولى لا تدخل ضمن نطاق العلوم · **ولا يجب أن ننسى أن كل العـلوم**

مرت بفترة الحداثة هذه ولم يحل ذلك أبدا دون أن تصبح علوما بمعنى الكلمة · ويجب أن نضع فى اعتبارنا أن تأخر تطور العلوم التى تدرس الانسان لا يرجع الى قصور لدى العلماء أو لعدم امكانية دراسة الانسان دراسة علمية ، ولكنه يرجع أكثر من أى شىء الى مقاومة الانسان ذاته **(موضوع دراسة هذه العلوم)** للكشف عن طبيعته وخباياه وللمساس بمعتقداته عن نفسه بأنه شىء مقدس · ولو لاحظنا تطور العلوم لوجدنا أن أولها فى التطور كانت تلك التى لا تمس الانسان مباشرة · ونحن نعلم الآن المقاومة الشديدة التى لقيتها مكتشفات العلوم المختلفة والتى كانت تتعارض مع فكرة الانسان عن نفسه ومعتقداته عن الكون المحيط به ، ونذكر اعتراض الانسان على فكرة أن الارض التى يعيش عليها ليست هى مركز الكون وأنها كوكب من بين الكواكب الاخرى تدور حول نفسها وحول الشمس ، واعتراضه على أن الانسان هو نتاج سلسلة طويلة من التطور الذى لحق أنواعا أدنى من الكائنات الحية وأنه ينحدر عنها ، والثورة الشديدة على الاجتراء على الجسم الانسانى بتشريحه للكشف عن مكنوناته وحناياه ، والغضب العارم الذى أثاره اكتشاف أسرار النفس ومضمون اللاشعور وطبيعة الحياة الجنسية · **ولكن من حسن الحظ أنه كلما استطاع الانسان أن يفهم شيئا عن ذاته سهل ذلك من عملية تقبله للكشف عن جوانب أخرى منها ، ولهذا فاننا نتوقع أن يكون خط العلوم الاجتماعية من سرعة التطور أكثر من خط ما سبقها من العلوم التى تمس الانسان ·**

وهذه المقارنة بين العلوم المتقدمة (الفيزيقية والبيولوجية) وبين العلوم النامية (الاجتماعية) كثيرا ما تعتمد على محاولة ايجاد أوجه الاختلاف بينهما ولكنها نادرا ما تحاول الكشف عن أوجه الشبه فيهما · ومن الواضح أنه ليس لدى كل فرد القدرة على اكتشاف أوجه الشبه بين أشياء تبدو جد متباينة ، ذلك أن هذا الأمر يتطلب درجة لا بأس بها من القدرة على التجريد · وسوف نحاول هنا أن نبين أولا أوجه الشبه بين العلوم جميعا أو بمعنى آخر تلك الخصائص التى ان توفرت فى فرع من فروع المعرفة اعتبرت علما · وبناء على ذلك نستطيع أن ننتقل الى مناقشة مدى علمية علم الاجتماع ·

علمية علم الاجتماع

يعرف العلم عادة بأنه «ذلك النسق المنظم من المعرفة التى تكتسب وتصاغ عن طريق استخدام منهج معين محدد » · والعلم ، شأنه شأن أى فرع آخر من المعرفة ، يعتمد على نظام رمزى للاتصال · فالاساطير والفنون والأدب معرفة منظمة تعتمد على الاتصال الرمزى ، ولكنها لا تدخل ضمن نطاق العلوم · والذى يميز العلم عنها هو المنهج الذى يستخدم فى التوصل الى المعرفة التى يحتويها وفى تنظيمها فى اطار عام كلى · **وهذا المنهج هو الخاصية الاساسية المشتركة بين العلوم جميعا ·** ويتميز هذا المنهج بالتأكيد على الوصف الدقيق الموضوعى للظواهر الثابتة نسبيا والمتكررة والتى يمكن التنبؤ بها ، ثم استخدام المنطق فى تحليلها وايجاد العلاقات والروابط بينها · ويمكن تحقيق هذه الاهداف باستخدام وسائل ملاحظة دقيقة ، صدقها مؤكد ، وأساليب محددة للتصنيف والتعميم والتحقق والتنظيم · **ويقوم هذا المنهج على مسلمة اساسية هى أن كل المعرفة العلمية تستمد من الخبرة الحسية ومن الاستقراء المنطقى منها** · ولكن لما كانت حواس الانسان محدودة نسبيا وغير دقيقة وعرضة للخطأ ، فان العالم فى دراسته للظواهر يجد لزاما عليه أن يعتمد على الأجهزة والادوات والمعادلات الرياضية لكى يزيد من مدى ودقة خبرته الحسية ومن موضوعية تسجيله لملاحظاته ، ولابد له أيضا من أن يستخدم وسائل رياضية ومنطقية وتجريبية لكى يختبر كل فروضه واستنتاجاته · **وهكذا نرى أن المنهج الذى يستخدمه العلم يضمن الموضوعية واللاتحيز والدقة فى وصف وتحليل وتفسير الظواهر الطبيعية ، وهو الذى يرشد العالم الى الطريق السليم لبحث ودراسة أى ظاهرة من الظواهر ، ويجعله يعدل من استنتاجاته أو حتى يرفضها كلية اذا ما وجد دليلا يناقضها ·**

المنهج المتبع فى التوصل الى المعرفة هو الذى يحدد اذا ما اذا كانت هذه المعرفة علما أم لا · ولكن هل يمكن استخدام هذا المنهج الذى شرحنا أهم خصائصه فى التوصل الى معرفة علمية بالمجتمع ؟

يخطىء الكثيرون حين يظنون أن العلوم هى التى تدرس الظواهر الفيزيقية والبيولوجية فقط لأنهم فى هذه الحالة يعرفون العلم على أساس موضوع دراسته لا على أساس المنهج المتبع فى الدراسة · فالظواهر الفيزيقية والبيولوجية كانت ، وما تزال ، موضوعا لاهتمام ضروب مختلفة من المعرفة غير العلمية · ولم تصبح



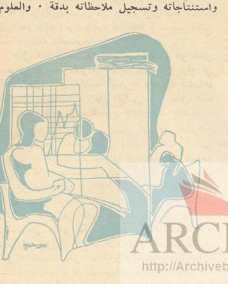
دراسة هـــذه الظواهر علما الا حين اتبع المنهج العلمى فيهـا · وعلى هذا فان المعرفة بالظـواهر الاجتماعية تكون علما حين يتبع فيها هذا المنهج، ومن الممـكن بكل تأكيد اتباع هـذا المنهـج فى دراستها للأسباب الآتية :

أولا : الظواهر الاجتـماعيه ظواهر طبيعية natural بمعنى أنها تحدث فى الطبيعة وتحت بصرنا وسمعنا أى أن المعرفة بها يمكن أن تستمد من الحواس شأنها شأن المعرفة بأى ظواهر طبيعية غيرها · وبالتـالى فان هذه الظواهر يمكن أن تخضع للملاحظة والوصف ·

ثانيا : لما كانت حواس الانسان عرضة للخطأ وعدم الدقة فانه يمكن أيضا استخدام وسائل مساعدة للحس كالتي يستخدمها علماء الفيزياء والبيولوجيا ، وقد تم بالفعل استخدام وسائل مثل التسجيل السينمائي والصوتي للأحداث الاجتماعية ، وهذه الوسائل ليست في الواقع سوى تسجيل موضوعي ودقيق وأمين للظواهر والاحداث يضمن موضوعية ودقة الملاحظة . كما أمكن ابتكار مقاييس جيدة ودقيقة للعلاقات الاجتماعية والاتجاهات والرأى العام ودرجة التحضر وحركة أعضاء المجتمع مكانيا واجتماعيا. الخ.. وهكذا استطاع علماء المجتمع أن يحققوا أهم أركان المنهج العلمي : الدقة والموضوعية في الملاحظة .

ثالثا : الظواهر الاجتماعية ظواهر ثابتة نسبيا ومتكررة ، وبالتالي يمكن التنبؤ بها . والواقع أنه ما لم تكن هذه الظواهر تتسم بالثبات النسبي والتكرار لما أمكن قيام أى مجتمع أو استمراره . فوجود المجتمع في حد ذاته دليل على توفر هذه الصفة في السلوك الانساني الاجتماعي . ومعظم أفراد المجتمع يمكنهم التنبؤ بسلوك الآخرين في مختلف المواقف ، وذلك ما يمكن من التفاعل بين أفراد المجتمع واستمرار بقائهم سويا ، لأن هناك ثباتا وتكرارا نسبيا في هذا السلوك . وقد يبدو من الملاحظة العابرة أن الظواهر الاجتماعية سريعة التغير وغير متكررة بالمقارنة بالظواهر الفيزيقية والبيولوجية ، ولكن هذا التغير في الواقع ليس سوى تغير في الصور التي تتخذها الظواهر ؛ ويوجد وراء هذا التغير قانون يتسم بالثبات النسبي يحكمه ويوجهه كذلك الذى يوجد وراء التغير في الظواهر الفيزيقية والبيولوجية . فتتابع الفصول وتتالى الليل والنهار هو في واقع الأمر تغير ولكن من المعروف أن هناك نظاما ثابتا يحكم هذا التغير . وتغير الكائنات الحية من شكل لآخر في نفس النوع أو من نوع لآخر ثبت أنه يسير حسب نظام ثابت نسبيا يحكم هذا التغير في المادة الحية التي يمكن أن تتخذ صورا شتى تبدو لأول وهلة غير مترابطة وغير متكررة . والمادة غير الحية ثبت أنها ثابتة ومتكررة وتتخذ أشكالا عدة ، ولكنها لا تختفى أبدا أو لا تفنى . وبناء على فهمنا لهذا النظام الثابت لظواهر الكون المختلفة أصبحنا نستطيع التنبؤ بسلوكها ، وكلما ازداد فهمنا له ازدادت دقة تنبؤاتنا بسلوك هذه الظواهر . والظواهر الاجتماعية بلا شك من ظواهر هذا الكون وليست خارجة عنها .

رابعا : يخطىء البعض حين يعتقد أن التجربة المعملية هى جوهر المنهج العلمي ، وبالتالى يخطئون حين يتصورون أن دراسة المجتمع لا يمكن أن تكون دراسة علمية لأنها لا تستند أساسا على التجربة المعملية . فالتجربة المعملية ليست سوى احدى الطرق المستخدمة في البحث العلمي وهدفها الاساسى تمكين الباحث من اختبار فروضه واستنتاجاته وتسجيل ملاحظاته بدقة . والعلوم



الفيزيقية والبيولوجية لا تعتمد على التجربة المعملية وحدها ، كما أن هناك علوما لا تلجأ الى استخدام هذه الطريقة بحكم طبيعة الظواهر التى تدرسها . فعلم الفلك وعلم الجيولوجيا وعلم المحيطات علوم لا تعتمد على التجربة المعملية ، ولكنها تعتمد على الملاحظة والقياس الدقيقين ، كما أنها تلجأ الى الاستعاضة عن التجربة المعملية بتصميم تجريبي للدراسة تتوفر فيه عناصر التجربة المعملية ، وهى التحكم في درجة ونوع المتغيرات موضوع البحث وتناولها بالتغيير من أجل اختبار صحة فرض ما . ولكن الفرق بين التجربة المعملية والتصميم التجريبي هو أن الباحث في الحالة الاولى يحدث التغير المطلوب بنفسه ، أما في الحالة الثانية فانه يبحث عن درجات مختلفة من المتغير الذى يدرسه كما توجد في الطبيعة ويدرس ما يترتب على ذلك من تغير في بقية المتغيرات. مثال ذلك ما لجأ اليه الباحثون عن علاقة التدخين بالاصابة بسرطان الرئة . لم يكن من الممكن بالطبع عند دراسة هذه المشكلة

البيـــولوجية اجراء تجربة معملية على كائنات انسانية بحيث يتحـكم الباحث فى كمية ومدة تدخين الافراد ثم يرى مدى اصـابتهم بسرطان الرئة • ولهـذا لجا الى وضع تصميم تجريبى للبحث فاختـار أفرادا من المدخنين وقسمهم الى فئات حسب كمية ومدة التدخين ، ثم قام بفحصهم طبيا وتسجيل حالة اصابتهم أو خلوهم من سرطان الرئة • والذى جعل من هذه الدراسة اسهاما علميا هو دقة وموضوعية الملاحظة وتسجيل نتائج هذه الملاحظة وتفسيرها •

مثل هذا التصميم التجريبى للبحث هو الذى يتبع فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، ولو أن ذلك لايعنى عدم امكانية التجربة المعملية بمعناها الدقيق عليها ، وعلم النفس ملء بمثل هذه التجارب ، وهو احد العلوم الاجتماعية بالطبع •

خامسا : اذا كان من الممكن اذن فهم الظواهر الاجتماعية على أساس علمى وباتباع المنهج العلمى الذى لا بد من اسـتخدامه فى فهم كل ظواهر الكون ، فانه يصبح من الممكن أيضا التنبؤ بهذه الظواهر والتحكم فيها وتوجيهها لتحقيق أحسن تكيف ممكن للانسان ، وهذان هما الهدفان الآخران للعلم بعد الفهم • وقد يقال ان لدى الانسان ، على عكس الجماد والكائنات الحية الاخرى ، الارادة والقدرة على التصرف وتغيير سلوكه بحيث يجىء منافيا لتوقعاتنا وتنبؤاتنا ، وبالتالى فان سلوكه يصبح أقل قابلية للتحكم فيه وتوجيهه • ولكن يجب ألا ننسى أن الارادة ذاتها وحدود القدرة على التغيير من موضوعات الدراسة التى تهدف الى فهم النظام الثابت الذى يحكمها • وقد يقال أيضا أنه من اللاأخلاقية أن نحاول التحكم فى سلوك الانسان أو فى الظواهر الاجتماعية بوجه عام لأن التحكم لا بد أن يكون وراءه قيم معينة توجهه ، ولأن الناس يختلفون فى هذه القيم • والرد على ذلك أن التحكم فى أية ظاهرة فى الكون وتوجيهها الى خدمة قيم بعينها تدخل فيه الذاتية أيضا • فالتحكم فى الذرة مثلا يمكن أن يوجه الى أغراض تدميرية عدوانية أو الى أغراض نافعة سلمية • والذى نحتاجه اليوم بشدة فى هذا العالم هو أن نصل الى فهم حقيقى للقيم والدوافع وراء سلوك الانسان ، حتى فى محاولته التحكم فى الظواهر الفيزيقية والبيولوجية ، ولن يتأتى ذلك بالطبع الا باخضاع هذه القيم ذاتها للدراسة العلمية المنظمة •

سادسا : اذا كان القانون يعنى علاقة ثابتة نسبيا ومتكررة يمكن التحقق دائما من صدقها بين حقيقتين أو أكثر من حقائق الكون ، فاننا اذا سلمنا بان المنهج العلمى يمكن أن يوصلنا الى اكتشاف حقائق عن المجتمع ـ وهو من ظواهر الكون ـ فاننا لا بد أن نسلم بامكانية التوصل الى قوانين اجتماعية • **واذا عرفنا أنه ليس هناك من العلماء من يفترض وجود قوانين جامدة ثابتة أبدا ولكن الثبات فى القوانين شىء نسبى وبالتالى فان القوانين قابلة أبدا للتعديل وللاضافة وللحذف** ، فانه يكون من السهل علينا أن ندرك معنى عدم ثبات القوانين الاجتماعية • ودرجة الثبات النسبى للقوانين فى أى علم من العلوم تعتمد على عمر هذا العلم وعلى ما استطاع تحقيقه من معرفة • ولهذا كان لا بد لنا أن نتوقع تغيرا فى القوانين الاجتماعية التى يتوصل اليها العلماء دون أن ينفى ذلك الصفة العلمية لعلم الاجتماع •

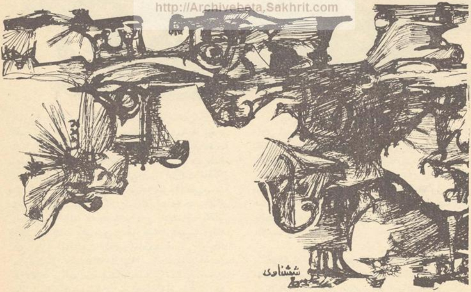
سابعا : ان أى باحث فى أى ظاهرة سواء كانت فيزيقية أو بيولوجية أو اجتماعية معرض لأخطار الذاتية والتحيز ، وليس هذا الخطر قاصرا على الباحث فى الظواهر الاجتماعية • وقد سبق أن قلنا ان أى باحث يعتمد على حواسه وعلى عقله فى ملاحظة وتسجيل وتفسير الاحداث التى يدرسها ، ومن الممكن أن تخطىء الحواس فى الادراك وأن يخطىء العقل فى التأويل • ولذلك فان العلماء يبتكرون وسائل مسعدة لحواسهم تكون بمثابة الرقيب على صدق ما تعطيه لهم الحواس وتساعد على تقوية هذه الحواس وزيادة دقتها وموضوعيتها ، كما أنهم يراجعون ماتوصلوا اليه دائما على ما توصل اليه غيرهم • وهذه هى الوسيلة الاساسية لتجنب أخطار الذاتية والتحيز • ويلجأ علماء الاجتماع الى هذه الوسائل التى تضمن الموضوعية ، وما حدث فى العلوم الفيزيقية والبيولوجية من تطوير دائم ومستمر لهذه الوسائل يحدث الآن فى العلوم الاجتماعية، بحيث أصبح من المتوقع أن تصل هذه الوسائل الى مثل دقة الوسائل المتبعة فى العلوم الاخرى •

نخرج من هـذه المناقشة للاساس العلمى للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة بأن أى فهم حقيقى للمجتمع الانسانى لا بد أن يكون باتباع المنهج العلمى ، وأن أية محاولة ناجحة للتحكم فى ظواهر هذا المجتمع أو حل مشكلاته لا بد أن تقوم على فهم مبنى على الاسس العلمية لطبيعة هذه الظواهر • وهذا الفهم هو ما يحاول علم الاجتماع على اسس علمية أن يقدمه عن طريق الابحاث والدراسات المنظمة التى يقوم بها العلماء المتخصصون فى هذا الميدان •

سمير نعيم احمد

جسر بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية

د. أسامة الخولي



دفع الى الزميل رئيس التحرير بكتاب أصدرته هيئة اليونسكو أخيرا يستعرض الاتجاهات الأساسية فى بحوث العلوم الاجتماعية والانسانيات عموما وأشار الى بحثين بالذات يتعرضان لبعض الأساليب الحديثة المرتبطة بالعلوم الطبيعية والتى وجدت طريقها مؤخرا العلوم الانسانية ، واقترح على أن أستعرض هذه الأساليب لقراء الفكر المعاصر • ووجد اقتراحه هوى فى نفسى ، فطالما فكرت فى التعرض لهذا الموضوع بشىء من التفصيل، خصوصا وأننى - فيما يبدو - أشير اليه دائما فى كل ما أكتب اشارات عابرة مقتضبة •

وسرعان ما أدركت بوضوح حقيقة الأسباب

انه نشأ فى خضم ثورة شاملة فى العلوم الطبيعية خرجت بها عن برجها العاجى وقذفت بها بقسوة فى عواطف المال والأعمال والسياسة ، أى أن هذه الثورة قد ربطت ربطا واضحا ومباشرا - لأول مرة فى تاريخ الانسان - بين العلم النظرى وبين التطبيق •

وتأتى بعد هذا مرحلة ثانية فى عرض العلاقة بين العلوم الطبيعية والانسانية • ويتركز الاهتمام فيها على التعرف على تطبيقات أساليب الأولى فى نشاطات الثانية • وهذا هو الجانب الذى لا أملك المعرفة ولا القدرة على الخوض فيه والذى توجب الأمانة العلمية أن أتركه للمتخصصين فى مختلف العلوم الانسانية ليتحدثوا عنه من واقع خبرتهم المباشرة •



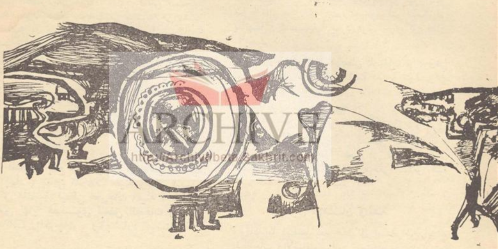
الكامنة وراء احجامى عن هذا العمل حتى الآن • لقد كنت أدرك تماما أن جهلى بحقيقة ما يجرى اليوم من دراسات فى العلوم الانسانية عقبة حقيقية فى سبيل أية محاولة قد أبذلها فى هذا الصدد • ولكننى لم أكن قد أدركت بعد أن التعرض لهذه العلاقة بين العلوم الطبيعية والانسانية اليوم لا يكفى فيه حديث واحد ، اذ أن العرض الواضح لهذه العلاقة لغير المشتغلين بالعلوم الطبيعية لا بد وأن يجرى على عدة مراحل • أولاها التعريف بأساليب العلوم الطبيعية التى وجدت طريقها الى العلوم الانسانية ، وسينطوى الحديث عن هذا على دراسة وقع العلوم الانسانية بدورها على العلوم الطبيعية ، خصوصا وأن غالبية هذه الأساليب جديد على العلوم الطبيعية ذاتها ، بل

الا أن هناك - فى النهاية - جانبا ثالثا للحديث أرى أنه ربما يكون أهم من هذا كله • وأعنى به القضايا الفكرية الأساسية التى يثيرها موضوع هذه العلاقة والتى هى فى حقيقة الأمر ، مشاكل فلسفية تشغل بال الفكر المعاصر • ولا أظن أن المقام يتسع هنا لأكثر من المرحلة الأولى والتى سنعرض فيها بايجاز لبعض أساليب العلوم الطبيعية التى وجدت طريقها مؤخرا الى الدراسات الانسانية •

وفكرة تبنى العلوم الانسانية لأساليب العلوم الطبيعية ليست جديدة فى حد ذاتها، ولعل أوضح مثال لها فى العلم المعاصر هو استخدام الأساليب الاحصائية فى دراسة المجتمع البشرى والسلوك

الانســـانى • وأظن أن غبـار المعركة حول دور الأساليب الاحصائية فى هذه الدراسات والتى دارت رحاها بين أولئك الذين يرفضونها أساسا وأولئك الذين لا يجدون فى ســـواها مضـــمونا للدراسات الاجتماعيه ، أظن أن هذا الغبار قد انقشع الآن وأنها قد بدأت تأخذ مكانها الطبيعى وسط أساليب هذه الدراسات • ولعله من المفيد أن نذكر هنا أن علوم الأحياء ، والتى تأخذ موقفا وسطا بين العلوم الطبيعية والانسانية ، كانت أول من اهتم بالأساليب الاحصـــائية وطورها فى التطبيقات العملية • وقـامت بهذا بدور الجسر الذى عبرت عليه تلك الأساليب من شــاطىء الرياضيات البحتة الى شــاطىء الدراسات الاجتماعية •

« المتناهى فى الصـــغر » وفكرة التفاضل التى تشـــكلت على يدى لايبنتز ونيوتن • وكان كل ما حققته من دراسات أدت الى الحصول على نتائج كمية دقيقه استنتاجا من معطيات تحليلية تعالج الجزء « المتناهى فى الصغر » من الجسم أو الآلية وتطبـق عليه القـوانين النيوتونية للحركة ، ثم قانونى الديناميكا الحرارية فيما بعد ، وكانت هاتان المجموعتان من « قوانين الطبيعة » هما كل ما فى جعبة الطبيعيات من سلاح حققت به كل هذ الانتصارات الباهرة التى وطدت مكانة الأسلوب العلمى كما نعرفه اليـــوم وأثبتت بما لا يحتمل الشك فعاليته فى التعريف بالعالم والتنبؤ بسلوكه واتاحة فرص حقيقية للتحكم فيه واستغلاله للخير والشر على حد سواء •



أسلوب تحليل المنظومات

وسأقصر حديثى هذه المرة على التعريف بواحد من أهم ما استحدث أخيرا فى العلوم الطبيعية ، قرب بينها وبين العلوم الانســـانية ، ألا وهو أسلوب تحليل المنظومات system analysis ولا ينظر هذا الأســـلوب الى الأمور نظرة آلية mechanistic بل يدور حول مفهوم المنظومة system وأود ـ قبل تعريف مفهوم المنظومة ـ أن أعود قليلا الى الوراء لأسترجع الدور الحاسم الذى لعبته النظرة الآلية فى تقدم العلوم الطبيعية منذ عصر النهضة • ولقد شاركتها فى هذا الأساليب الرياضية التقليدية التى تطورت فى نفس الوقت والتى ابتدعت لأول مرة مفهوم

ولكن هذا الكيان العلمى الضخم ظل يعانى من خلل جوهرى فيه وقف حائلا فى ســـبيل اتخاذ « الآلية » (أو المكنـــه) نموذجا لكل شىء فى الطبيعة ، الا وهو عجزه عن أن يشمل أيضا سلوك الكائنات الحية التى هى مثال واضح لظاهرة يواجهها بصور مخففة فى مجالات أخرى هى ظاهرة «التعقيد المنظم» • وربما كان من سوء الحظ أن الطبيعيات التقليدية عالجت ، أول ما عالجت ، النظام الشمسى الذى تسيطر عليه الشمس سيطرة غاشمة بحكم الفروق الشاسعة بين وزنها وصفاتها وبين وزن وصفات أى كوكب آخر فى المجموعة الشمسية • لقد أتاح هذا للأفكار الآلية أن تحقق نجاحا فى معالجة هذه « المنظومه » بالأسلوب التفتيشى الذى أتاحته الرياضيات النيوتونية ودونمواجهة مشكلة

« التعقيد » المنظم بشـــكل حاد فى هذه الحالة الخاصة التى تضعف فيها الروابط المتبادلة بين الكواكب الســايرة كثيرا عن روابط أى منهــا بالشمس • ولقد ســمح هذا بتجاهل الروابط المتبــادلة بين الكواكب فى التحليل الأول ، ثم اجراءات تصحيحات هامشية بعد ذلك عن طريق أخذها فى الاعتبار واحدة واحدة •

لقد أدى هذا الفشل عندماتكشــفت أبعاده من انكار المعالجة الآلية الى ظهور فكرة المنظومة • ويرى كثيرون أن محاولة تعريف هذه الكلمة لابد وأن تبوء بالفشل ، فهى كلمة عامة وشاملة ينطـوى تعريفها على استخدام عبارات أخرى أكثر عمومية وشمولا ، أى أقل وضوحا عن الكلمة ذاتها • ولعل فى الحديث عن بعض أنواع المنظومات ما قد يوحى بالمعنى المقصود من هذه الكلمة • فنحن نستخدم كلمة منظومة عندما نتحدث عن مجموعة من الاشياء المتشابهة أو المترابطة ، كالمنظومه الشمسية • ولكننا نتحدث أيضا عن المنظومة كجمع من القواعد أو الاجراءات • فالمنظومة اذن تعنى جمعـــا من الأشياء المترابطة من ناحيه ، ومجموعة من القواعد والاجراءات أو الســـلوك ، من ناحية أخرى • ومجموعة الأشياء هى « كيان المنظومة » ، بينما مجموعة القواعد هى « نسق عمل المنظومه » • وربما يكون التعريف التالى هو أقرب التعريفات التى قابلتها للفهم :

« المنظومة جمع من الكيانات أو الأشياء (الحية أو الجماد) يتلقى مدخلات معينة ويؤثر فيهـــا بشكل متناسق ليعطى مخرجات معينة ، بقصــد تحقيق نهاية قصـــوى لبعض الصفات المرتبطة بالمدخلات والمخرجات » (ريتشارد كيرشنار)

ويعنينا فى هذا التعريف عدد من الكلمات ، أولاها « يؤثر عليهــا » • فهــذا يؤكد أننـــا ازاء عملية دينامية متغيرة وأن الكيانات الساكنة التى لا تتغير لا تدخل فى عداد المنظومات • ولهذا الاعتبـــار أهمية بالغة فى محاوله تطبيق مفهوم المنظومة على الكائنات الحية • وهو يثير قضـــية أساســـيه حول مدى انطبـــاق القانون الثانى للدينامكا الحرارية على الكائنـــات الحية • وهذه قضية حاسمة فى تقرير صلاحية أسلوب تحليل المنظومات لمعالجة الكائنات الحية البالغة « التعقيد المنظم » • ولن نتوقف عن هذا الاعتبار الفلسفى طويلا فهو يدخل فى عداد المرحلة الثالثة للحديث، كما فصلنا فى مستهله •

ومعنى المفهوم الدينامى هو أن بناء فندق مثلا لا يعتبر منظومة • ولكن البناء والعــاملين ونظام العمل يمكن اعتبارها منظومة تتلقى مدخــلات (هى الطعام والشراب والوقود والضيوف والمال والشكاوى والفواتير) وتؤثر عليها لتعطى مخرجات (منها الراحة والجو المكيف والوجبات والفضلات والفواتير أيضا) وذلك بقصد الحصول على الحد الأقصى من الربح •

والكلمة الثانية الهامة فى التعريف الســـابق هى كلمة « بقصــد » • ويؤكد هذا أن للمنظومة هدفا ما ، بينما يســـتبعد من نطاق اهتماماتنـــا المنظومات الطبيعية المحضة مثل شبكة الأنهار التى يتكون منها حوض نهر النيل مثلا ويقصر البحث على المواقف التى تتفاعل فيها مقاصد البشر مع أداء المنظومة • وعلى هذا فان حوض نهر النيل عندما تقام عليه الخزانات والسدود التى نتحكم فى بنائهـــا وتشـــغيلها يعود مرة أخرى الى نطاق البحث •

وهناك أخيرا كلمة « بعض الصفات » • وهى تعنى أن هناك شيئا ما له قيمة عددية تتوقف على قيم المدخلات والمخرجات •

وتهتم دراسة المنظومات بأمرين : أولهما تحديد الصفة ، أو الصفات ، التى سنتخذها معيارا لتقييم الأداء والتى تســـعى لكل فصـــل بها الى القيم العضوى ، والثانى هو البحث فى تعديل « كيان المنظومه » أو « نسق عملها » لكى تتحقق هذه القيم العضوى لمعايير تقييم الأداء •

بين الانســـان والمكنة

فاذا ما انتقلنا بعد هذا الى استعراض أنواع المنظومات والأساليب التى تستخدم فى دراستها لبدأنا بالمعدات الآلية الخالصـــة (أى المعدات الميكانيكية أو الكيميائية أو الكهربية) التى تعمل طبقا لقوانين الطبيعيات والكيمياء • ويقتصر دور الانسان هنا على اختيار « كيان المنظومة » ، أى على عملية تصميم هذه المنظومات الآلية الصرفة • ولقد مرت عملية التصميم هذه بتغيير ثورى فى الآونة الأخيرة • فلقد كان الأسلوب السائد حتى وقت قريب أسلوبا « تخليقيا » synthetic يبدأ بأن ينتقى المصمم — على مسئوليته ومن واقع خبراته السابقةوبشكل لا واع ولا رشيد،مكونات المنظومة من بين قائمة ما هو موجود منها والذى تكون صفاته الديناميــة معروفة • وكان البحث يبدأ باســـتنتاج أداء المنظومه التى تشـــكلت من

المكونات المعروفة الصفات التى انتقاها المصمم وبتحديد عيوب الأداء • وينتقل البحث فى المرحلة الثانية من التصميم الى معالجة هذه العيوب عن طريق تطبيق عدد من الأساليب النمطية المعروفة• الا أن لمقدرة المصمم على تلافى العيوب حدا كامنا أصلا فى عملية الاختيار الاولى التى جرت دون تحليل منطقى لاحتياجات الأداء المطلوب يثبت أولا أن فى استطاعة المكونات التى اختارها تحقيقه • ودعا هذا الى الاهتمام بالبحث عن أسلوب بديل للتصميم أخذ يتطور تدريجيا حتى أصبح يعرف الآن بالأسلوب «التحليلى» analytic وفيه يبدأ المصمم بتحديد معايير الأداء المطلوبة ثم يستنتج منها صفات مكونات المنظومة التى تحقق هذه المعايير •والأساليب الرياضيه التى استحدثت لهذا الغرض امتدادات طبيعية للأساليب التقليدية لا تخلو من الطرافة وان كانت لا تخرج الى نطاق الأساليب الرياضية الأخرى الا فى الحالات التى تكون المدخلات للمنظومة فيها ذات طابع عشوائى احصائى يمثل ما تتعرض له المنظومة فعلا فى الواقع •

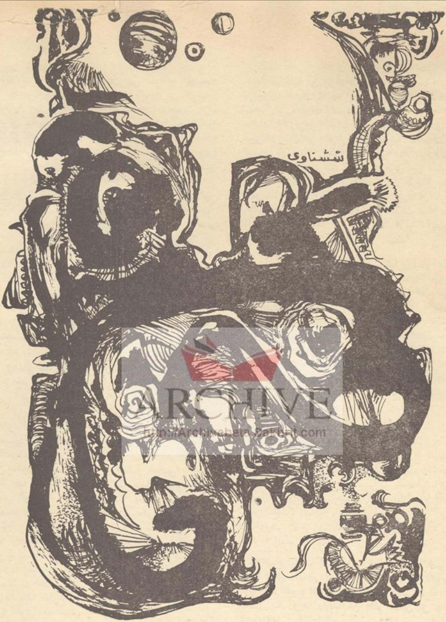
وهناك بعد هذا النوع من المنظومات الذى يحدث فيه الحد الأدنى من التفاعل بين الأنسان والمكنة ، نوع آخر يكون الانسان فيه جزءا من منظومة آلية فى غالبيتها ، مثل القائد فى طيارة حديثة أو الجنود فى منظومة الدفاع الجوى • ومهما يكن تصورنا لسلوك البشر ومهما تكن محاولاتنا للاقتراب به من سلوك المكنات ، فسيبقى قدر ما من سلوك الانسان غير قابل للتنبؤ الدقيق • ومن الطريف أن نذكر هنا أن الانسان يقوم ، فى نفس الوقت ، بمهام جانبيه يتمنى كل مصمم للمنظومات أن يجدها أيضا فى مكونات المنظومة الآلية ، مثل قدرته على التنبيه بقرب وقوع خلل فيه (عندما يعرب عن احساسه بالمرض مثلا) أو فى سلوك المكنات المحيطة به (عندما ينبه الى حدوث تغييرات غير محمودة فى بعض صفاتها)• وسنترك الحديث عن الأساليب التى تستخدم لمعالجة هذا النوع من المنظومات مؤقتا لنعود اليه مرة أخرى بعد قليل •

وهناك أيضا منظومات يقوم البشر فيها بمهام غير آلية بالمرة ، مثل اتخاذ القرارات لتعديل نسق عمل المنظومه • وتندرج تحت أعمال الادارة فى وحدة انتاجية أو اقتصادية مثلا • وتسمى هذه المنظومات منظومات متوائمه adaptive والغرض من وجود الانسان كجزء من المنظومة هو المواءمة بينها وبين ظروف العمل المتغيرة • وهذه وظيفه غير آلية فى جوهرها ولا توجد مكنات قادرة على أدائها ، وان كانت الحاسبات الحديثة بطاقتها المذهلة على اختزان المعلومات وسرعتها الفائقة فى تحليلها قادرة على القيام بقدر من التحكم المتوائم يعجز الانسان عن القيام به ، كما فى حالة مصنع كيميائى أو شبكة القدرة الكهربائية مثلا !! وهناك من يرى أنه ليس ثمة فارق جوهرى بين سلوك المواءمة الذى تبديه هذه الآلات وبين طريقة عمل العقل البشرى • والمهم هنا هو أن ندرك أن طرق تحليل ودراسة المنظومه المتوائمة تختلف تماما عن تلك المستخدمة فى المنظومات الآلية بالمفهوم التقليدى الذى ورثناه عن عصر النهضة •

وهنا، فى آخر هذه القائمة من أنواع المنظومات، نوع فريد يتميز عن سابقيه ويحتم علينا تطوير أساليبجديدة لتحليله ودراسته• وهذا هو النوع الذى توجد فيه المنظومة ومعها ، أو حولها ، منظومه أخرى أو أكثر يكون من بين أهدافها تحطيم المنظومة التى ندرسها أو هزيمتها (أى أن المنظومات الأخرى تستهدف تحقيق نهاية صغرى لقيمة التغير الذى تسعى المنظومة التى تدرسها لكى تصل به الى نهايته العظمى) • والمنافسة بين الشركات والدول والجيوش المتحاربة أمثلة لهذه المنظومات « المتنافسة » competitive

ولعل هذا العرض البسيط لأنواع المنظومات يكشف لعلماء الانسانيات عن الاغراء الكامن فى مفهوم المنظومة والذى وصل بنا فى تدرج أنواعه من النماذج الآلية النيوتونية الى مواقف تكشف تدريجيا عن المضمون الانسانى للمسالة التى نعالجها • وواضح أن هناك اغراءا قويا حقا لكى نخطو الخطوة الباقية ونفكر فى المنظومة التى تقع فى النقيض الآخر للمنظومة الآلية المحضة، ألا وهو المنظومة البشرية الصرفة ، أو الانسان نفسه •

وواضح أيضا أن هذا ـ كما سبق أن أشرنا عندما دخل العنصر البشرى لأول مرة فى تكوين منظومات النوع الثانى من القائمة السابقة ـ يسير بنا رويدا رويدا من عالم اليقين الى عالم الاحتمالات • فكلما لعب البشر دورا رئيسيا فى عمل المنظومة كلما ازدادت صعوبة التنبؤ بأدائها فى ظروف معلومة • الا أن هذا لا يعنى بالمرة الكف عن محاولات التحليل والتنبؤ ، فكثيرا ما يكون من الممكن تحديد السلوك « المتوسط » average للانسان فى ظروف معينة وبدرجة كبيرة من الدقة• وينقلنا هذا بأساليب التحليل من يقين ميكانيكا نيوتن الى دنيا الاحتمالات الاحصائية •



ولقد جرى تطوير الأساليب الاحصائية تحت ظل سيطرة المفاهيم اليقينية وبعيدا تماما عن عالم الدراسات الطبيعية · الا أن هذه الأساليب سرعان ما دخلت فى هذه الدراسات عندما حاول ماكسويل وبولتزمان ، عام ١٨٦٠ ، وصف أداء منظومة آلية ضخمة كثيرة المكونات هى الحشد الكبير من جزئيات الغاز المحصور فى وعاء · فلم يكن هناك سبيل لحل العدد البالغ الضخامه من المعادلات الذى يصف حركة كل منها · ولكن الميكانيكا النيوتونية غضت الطرف عن هذا الغزو واعتبرته حالة لا تمس جوهر أساليبهم السائدة حينئذ ووجدت له مبررات كثيرة · وجاءت الضربة القاصمة مع

اكتشاف القوانين التى تحكم سلوك الذرات المشعة، وهى قوانين تهدم الأفكار النيوتونية • ثم جاءت قاعدة هيزنبرج، عام ١٩٢٠ ، فأجهزت على الأفكار اليقينية وتوجت « عدم اليقين » uncertainty ملكا على عرش الطبيعيات الحديثة •

أزمة الطبيعيات الحديثة

ويهمنا من هذا العرض لأزمة الطبيعيات الحديثة المعروفة أن نوضح أن الأساليب الاحصائية لم تدخل العلوم الطبيعية أصلا بسبب انشغالها بالكائنات الحية عموما أو الانسان على وجه الخصوص ، وانما كان ذلك ضرورة أملتها دراسة العالم الجماد نفسه ولو أن هذا لا يخلو من مغالطة ليس هذا مجال الخوض فيها وأرجو أن يصفح عنى المتزمتون ان أنا طرحتها جانبا فى هذا السياق • وعذرى فى هذا هو أن لهذا الحديث ، كما قلت ، وجها فلسفيا لا نستطيع أن نوفيه حقه فى هذا العرض السريع لأساليب حديثه •ولعلى اجد فرصة قريبة للحديث عنه ان شاء الله •

وبدخول البشر فى المنظـــومات واســـتخدام الأساليب الاحصائية لمواجهة الموقف يتحول الحديث من محاولة حساب طريقة أداء المنظومة بشـــكل قاطع لا يتغير الى محاولة تحديد نسبة عدد مرات التشغيل الذى يكون سلوكها فيها من نوع ما • وهذه هى النسبة التى نســـميها « احتمال » probability حدوث هذا السلوك • وان كنا قد نضطر الى استخدام أسلوب احصائى فى معالجة منظومة آلية صرفة ، مثل القنبلة الذرية ، لأنها تعتمد فى عملها على قوانين الطبيعيات الحديثة التى هى احصائيه فى جوهرها •

وهناك عدة أساليب معروفة لحساب الاحتمالات فى الحالات البسيطة ، مثل ألعاب الحظ والميسر ، تستخدم كبدائل لاجراء التجارب عددا كبيرا من المرات وحصر عدد المرات التى يتحقق فيها السلوك الذى نريد تحديد احتمـــال وقوعه • الا أن هذه الأساليب لا تصلح للمنظومات المعقدة المتشابكة . الأمر الذى يضطرنا الى اعادة النظر فى امكانيـــة القيام بالتجارب الفعلية • وهنا يأتى الحاســـب الالكترونى مرة أخرى لنجدتنـــا ، فهو يتيح لنـــا أسلوبا جديدا فى التحليل الاحصائى للمنظومات — وان كان فى حقيقته من أساليب التمثيل simulation وهو الأسلوب الذى يعرف الآن باسم طريقة مونت كارلو Monte Carlo Method ويقوم الحاسب هنا باتخاذ القرارات أو القيام بالأفعال العشـــوائية التى يقوم بها الانسان فى التجارب الحقيقية •

ومن مسائل المنظومات المعقدة التى جرى حلها بأسلوب مونت كارلو مســـائل حركة المرور فى شوارع المدن وتحديد فترات اضاءة الأنوار الثلاثة (الأحمر والأصفر والأخضر) لتحقيق أكبر سريان لحركة المرور • وهذه مسالة بالغة التعقيد حقا ، خصوصا لوجود التقاطعات • فهناك أولا احتمالات وصول ســـيارة الى التقاطع عند أى وقت محدد بالذات ، ثم هنـــاك احتمالات انعراجها يسارا أو يمينا • وهذه احتمـــالات قد يكون من الممكن قياسها فعلا فى الطبيعة بواسطة معدات تسجيل حركة المرور فى الشوارع وعند التقاطعات • الا أن العلاقات بين وحدات هذه المنظومة بالغة التعقيد والتشابك بحيث يستحيل تقرير النتـــائج بطرق حساب الاحتـــمالات المعروفة ، دع عنك الوصول بها الى النهايات القصوى المطلوبة عن طريق تعديل نظام عمل المجموعة • ولكن أساليب مونت كارلو تزودنا بحلول ممتازة لهذه المشـــكله دون القيام بأية تجارب على الطبيعة •

وتستخدم هذه الأســـاليب ايضا فى تحليل المنظومات التى يكون الانسان جزءا أساسيا فيها ، لأنه بطبيعته عنصر يصعب التنبؤ بسلوكه • ولكن تحديد احتمالات سلوك الانسان قد أصبح اليوم فرعا قائما بذاته يعرف باسم الهندسة البشرية Human Engineering ويعالج الانسان هنا على أنه آلية ميكانيكية فقط ، فمازلنا بعد عاجزين عن حساب احتمالات اصدار الانسان لأحكام ســـليمة ، وان كنا قادرين على تحديد احتمالات قيامه بعمل آلى ما ، وبالذات فترة الزمن التى تنقضى ما بين استشارته للقيام بهذا العمل وبين قيـامه به فعلا وتأثير طرق الاســـتشارة ، والمرئية منهـــا بالذات ، على طـــول هذه الفترة واحتمـــالات خطئه فى القيـــام بالعمل المطلوب واحتمالات عـــدم استشارته اطلاقا وأثر الارهاق والعقاقير على ذلك كله •

فاذا ما وصلنا فى خاتمة المطاف الى المنظومات غير الآلية والتى تعمل أيضا بطرق غير آلية ، أى عندما تصدر الأحكام أو تتخذ القرارات مثلا ، فان عملية التحليل تصبح بالغة المشقة • الا اننا اذا افترضنا أن الانسان يسير فى اصداره للأحكام أو فى اتخاذه للقرارات على هدى أسلوب خاضع ولو جزئيـــا ، للتحليل المنطقى ، فانه يصبح من

الممكن لمنافسه أن يقوم بنفس التحليل وأن يتنبأ بطبيعه الأحكام التى سيصل اليها منافسه • ومن حسن الحظ أننا لسنا بحاجة لمعرفة سلوكه الفعلى بقدر ما نحن بحاجة الى تحديد سلوكه الأمثل optimum أى أن أداءه الفعلى لو كان دون ما كان يمكنه أن يحققه ، فان هذا يضمن لنا هزيمته – أى تحقيق أهدفنا – أكثر فأكثر • وتسرى هذه الأفكار مباشرة فى حالة المنافس الصغير جدا الذى لا يكاد منافسه الكبير أن يحس بوجوده ، وبالتالى ، ربما لا يتصرف دائما كما يجب – الأمر الذى يعطى الصغير ميزة واضحة لو أحسن التصرف ، ولو لفترة من الزمن على الأقل • وعمليات التسلل على نطاق صغير فى الحروب أمثلة لهذا الموقف غير المتكافىء • أما اذا تساوى الخصمان فان التحليل يصبح أكثر صعوبة ويحتاج الى أسلوب جديد يعرف باسم نظرية المباراة Game Theory

نظرية المباراة

ولقد وضع أسس هذه النظرية العالم الأمريكى الشهير – والمجرى الأصيل – جون فون نويمان والذى سيذكره العالم كقائد فريق العلماء الذى صمم وانتج أول حاسب الكترونى حقيقى ناجح فى أعقاب الحرب العالمية الثانية • فقد أصدر – هو و دور جنشترن – كتابا عام ١٩٤٤ عنوانه «نظرية المباريات والسلوك الاقتصادى» قدم فيه هذه النظرية كطريقه مستحدثة لتحليل المنظومات المتنافسة وهى المنظومات التى يمكن اعتبار المباراة التى يقوم فيها متباريان أو أكثر باتخاذ القرارات سرا نموذجا لها • وتؤدى نظرية المباراة فى الحالات التى يمكن حلها الى تحديد « استراتيجية » strategy أى جمع من الاختيارات ، مع تحديد احتمال كونها الاختيارات المثلى optimum choices بالنسبه للاعب • واختيار معيار الأمثلية optimality محفوف عادة بكثير من الشكوك • ومن أشهر هذه المعايير معيار يعرف باسم النهاية الصغرى للحد الأقصى minimax وتحدد الاستراتيجية بمقتضى هذا المعيار بحيث تجعل الخسائر القصوى أقل ما يمكن (أو تجعل النهاية الدنيا للمكاسب التى يمكن تحقيقها أكبر ما يمكن) •

وأريد هنا أن أبرز أمرين : أولهما أن لهذه النظرية كيانا رياضيا شكليا كاملا ، شأنها فى هذا شأن بقية الأساليب الرياضية المعروفة • فهى تبدأ بتحديد المفاهيم والاصطلاحات ، ثم تحدد طرق الحل • ومن بين هذه الطرق وسائل التمثيل التجريبيه والتى هى فى حقيقتها امتداد لأسلوب مونت كارلو • والأمر الثانى هو أن انتقاء معيار الأمثلية ينطوى على مقارنات أقل ما يقال فى أمرها هو أنها غير مألوفه – ان لم تكن ممجوجه – فى العلوم الطبيعية ، مثل المقارنة بين الزمن اللازم لتنفيذ سياسة ما وفاعليتها أو بين الدولارات والروبلات وبين الأرواح البشرية • ولقد أثار هذا الجانب الاهتمام بعملية اتخاذ القرارات ذاتها وبدأت تبرز أخيرا كفرع جديد قائم بذاته أصبح يعرف «بنظرية القرارات» Decision theory

وعندما ظهر كتاب فون نويمان ومور جنشتيرن عام ١٩٤٤ قال عنه أحد النقاد :

« لا يدعى المؤلفان أنهما قد صاغا نظرية رياضية كاملة للمجتمع ؛ فالكتاب لا يعالج سوى المسائل الاقتصادية • ومازالت النظرية وتطبيقاتها – حتى فى هذا المجال – فى دور الطفولة ؛ ولكنها طفولة حية تبشر بالخير • ونستطيع أن نقول منصفين ان نظرية المباريات قد وضعت الاساس للمعالجة الرياضية الرتيبة النفاذة فى نطاق شاسع من مسائل العلوم الانسانيه » •

وفى عام ١٩٥٧ عرض كاتبان آخران الموقف بالنسبة لهذه النظرية بقبولهما :

« ان الوقت اللازم لظهور تأثير التطورات النظرية يقاس بعشرات السنين • ثم ان النظرية بشكلها الحالى قد تبدو غير مرضية بالمرة – ولو فى بعض أجزائها ••• ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن طرحها جانبا هو السبيل الوحيد أمام علماء الاجتماع • فنظرية المباراة واحد من أوائل الأمثلة لتطور رياضى يدور حول العلوم الاجتماعية وحدها » •

ولا أتصور أن ينتهى حديثى عن المنظومات وأنواعها وأساليب معالجتها دون أن أتعرض لمفهومين يلعبان دورا رئيسيا فى فكرة المنظومة بأسرها • وهاتان الفكرتان هما فكرة التغذية المرتدة feed-back والاستقرار stability

والفكرة الأساسية فى مفهوم التغذية المرتدة هى تصميم المنظومه بحيث تأخذ دائما فى الاعتبار، وبحكم ترابط أجزائها ، الانحراف بين ما نريد منها أن تؤديه (أى التعليمات أو الأوامر أو المعطيات أو المدخلات) وبين سلوكها الفعلى (أى مخرجاتها) • وتعرف هذه المنظومات باسم منظومات الحلقة المغلقة closed-loop ولعل فكرة الحلقة

المغلقة أن تتضح من الشكل والذى نرى فيه المنظومة وهى تتلقى التعليمات عن السلوك المرغوب فيه أو المطلوب من جانب وتعطينا سلوكها الفعلي من جانب آخر • ولكن هذا السلوك الفعلي «يرتد» ثانية الى الخلف ، عن طريق أجهزة قياس تحدد قيمته ، دائرا حول المنظومة ليكون حلقة مغلقة وليعود فيلتقى بالسلوك المطلوب فى جهاز يتولى المقارنة بينهما comparator أى يقوم بطرح قيمة السلوك الفعلي من قيمة السلوك المطلوب ويعطينا اشارة حافزة للمنظومة هى الفرق بين الاثنين أو الخطأ أو الانحراف فى سلوك المنظومة error وتؤثر هذه الاشارة على المنظومة وتستمر فى هذا التأثير حتى ينعدم الخطأ وينعدم بالتالى التأثير على المنظومة ، «فتستقر» فى وضع تحقق فيه ما نطلبه •

وسلوك الانسان وهو يلتقط قلما من فوق منضدة مثال كلاسيكى عرضه نوربيرث فينر فى كتابه التاريخي الشهير « السيبرينات » • فعندما تمتد يدنا لتلتقط القلم فاننا «نوجهها» عن طريق محاوله واعية لتقليل المسافة التى تفصل بين مكان القلم ومكان اليد (الخطأ) • وهذه عملية تجرى فى حلقة مغلقة ، اذ أن الخطأ الذى تقيسه العين ويرتد ثانية عن طريقها الى المخ الذى يسيطر على العضلات يستخدم فى التحكم فى حركاتها ، وتكفى محاوله التقاط القلم والانسان معصوب العينين لكى تكشف عن حقيقة ما يجرى وعن أهمية التغذية المرتدة عن طريق العين • وهناك نموذج دينامى »خر مشهور يوضح التغذية المرتدة هو نظريه كالتسكى لدورة الرواج والكساد فى الاقتصاد الرأسمالى •

أما الاستقرار فيمكن تعريفه على أنه قدرة المنظومة على العودة الى وضع متزن جديد بعد ازعاجها والخروج بها عن وضع متزن ابتدائى • ولعل أحد الأمثلة الواضحة لعدم الاستقرار هو الانسان الذى يتعلم ركوب دراجة • وهذا مثال مفيد لأنه يكشف أيضا عن الفرق بين التغذية المرتدة والاستقرار ، كما يكشف عن العلاقة بينهما فى نفس الوقت •

ويعمد هذا الانسان ، عندما تميل الدراجة ناحية اليسار ويدرك بواسطة التغذية المرتدة عن طريق حواسه وقوع انحراف عن الوضع السوى المنشود، يعمد الى ادارة قضيب القيادة جهة اليمين• ولكنه يبالغ فى فعل التصحيح هذا فينحرف يمينا بقدر يزيد عن انحرافه الأصلى ناحية اليسار • ويبادر الى اجراء تصحيح أكثر حدة بادارة القضيب جهة اليسار • ويزداد انحرافه مرة اثر مرة وهو يترنح يمينا ويسارا حتى ينهار توازنه تماما ويعلن سقوطه المهين عن عدم استقراره فوق الدراجة •

ولكنه عندما يتعلم طرق اكساب المنظومة ، المكونة منه ومن الدراجه ، الاستقرار يدخل فى الاعتبار نوعا جديدا من التغذية المرتدة هو تحديد « معدل تغير » الانحراف بالاضافة الى قيمته • فهناك احتمالان عندما تكون الدراجة مائلة جهة اليسار ، فاما أو تكون آتية من الوضع السوى متحركة جهة اليسار واما أن تكون آتيه من حد أقصى من الانحراف فى طريقها نحو الوضع السوى ، أى أن سرعة انحرافها قد تكون الى اليسار بحيث تزيد من الانحراف مع مرور الزمن، أو الى اليمين ، أى بحيث تقلل منه • وواضح أن الموقف الثانى مختلف تماما عن الأول ، بل قد لايحتاج الى تصحيح بالمرة أو لتصحيح جهة اليسار اذا كانت سرعة العودة عالية •

وعندما يتعلم الراكب ركوب الدراجة ، يكون قد أدرك أهمية أن تشمل اشارة التغذية المرتدة بيانات عن معدلات تغير الانحراف • ويقال ان المنظومة خاضعة الآن لعامل جديد نسميه المضاءلة damping وهو عامل يحقق الاستقرار عادة •

وهذه مفاهيم قابلة للتطبيق المباشر على الكائنات الحية ، بل هى مفاهيم بالغة الأهمية فى السيبرينات cybernetics وهى العلم الذى يربط بين المكنات والكائنات الحية ويعالج كلا منها على أنه منظومة تخضع لقوانين دينامية تمكن صياغتها رياضيا بقدر لا بأس به من الدقة•

ولا شك أن علماء النفس والاقتصاد قد أدركوا من هذا العرض السريع أن هذه المفاهيم شائعة جدا فى الدراسات النفسية والاقتصادية ، وان كانت فى حقيقة الأمر جزءا جوهريا من دراسة المنظومات بكل أنواعها ، حتى الميكانيكى الخالص منها •

ولعلى ان أكون قد وفقت فى اثارة اهتمام علماء الانسانيات ببعض الأفكار التى تعتبر اليوم جسرا بين علومهم وبين العلوم الطبيعية • ولعلى أجد فرصة قريبة لمعالجة بعض المسائل الفلسفية التى تثيرها هذه الأفكار وعن تاثير ذلك على تطور الفكر المعاصر كله •

أسامة أمين الخولى

القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية

صلاح قنصوه

١ ـ القيم في الفلسفة :

أصاب الفلسفة حظ عاثر من سوء الفهم جعلها لا تحظى بسمعة طيبة بين أوساط العلوم الاجتماعية . فكاد يصبح تقليداً درجت عليه بعض هذه الاوساط أن ينحى باللائمة على الفلسفة لأنها وقفت عائقا تاريخيا فى وجه تطور العلوم الاجتماعية أمدا طويلا ، وحالت دون أن يدرس موضوع مثل القيم دراسة مؤسسة على الواقع ، وهكـذا عد الاعتراف بتخصص علم من العلوم الاجتماعية واستقلاله عن الفلسفة ضربا من التحرر القومى من ربقة استعمار بغيض !

وقد يكون مصدر الريبة فى الفلسفة ، عندما تعرض لموضوع القيم ، أن البعض يعتقد أنها تنصب نفسها بديلا ومنافسا للعلوم الاجتماعية. فاذا ظن البعض ذلك ، واحتكم من ثم الى المقارنة بين ما تقدمه الفلسفة وبين ما تقدمه العلوم الاجتماعية بصدد ذلك الموضوع،فلن يحمله ذلك على انصاف الفلسفة لأنه سيجدها حينئذغامضة بسبب لغتها الخاصة ، وسيراها غير مجديه لأنها لا تزوده بحلول مباشرة لمشكلات المجتمع لأن مثل تلك الحلول رهينة بتقدم المعرفة العلمية ، وسيحكم عليها بأنها عبث لاطائل تحته لأنها خصومة وشقاق دائم بين مختلف الآراء لا يفضى الى غير البلبلة والشك .

ولعل ازورار البعض عنها قد يفسره أنه يحسبها مجرد وعاء قديم لشتات من المعرفة المتنوعة لم يخلف تخصص العلوم فيه شيئًا . فاذا خطر للفلسفة اذن أن تقدم باسمها شيئًا فى دراسة القيم ، فلن يكون حظها أوفر مما يؤتيه العطار فى منافسته للصيدلى ، ولن يكون موقفها أفضل من موقف حلاق الصحة من الطبيب !

فخير للفلسفة ، فى رأى هؤلاء ، أن تدلف الى ذمة التاريخ ، وعليها ألا تتسلل من ضريحها والا دهمتها عجلات العلم .

أجل ، هذا حق اذا عددنا الفلسفة علما من بين علوم ، ينافسها عندما يعرض السلعة نفسها ولكن خلف واجهة أخرى . أو اذا حسبناها حزمة من المعارف القديمة ما لبث أن انفرط عقدها الى مجموعة من العلوم المتخصصة .

بيد أن الفلسفة شىء مختلف عن كل هذا ، فما يزال لها موضوعات ومنهج وغاية خاصة. ولكن فريقا من الفلاسفة لا يشارك فى هذا الرأى فمن سوء طالع الفلسفة أن محاولات تقويضها لا توجه من خارجها فحسب ، بل قد تنبعث من داخل صفوفها أيضا . فقد تعرضت أخيرا مسائل الفلسفة جميعا ، ومن بينها القيم ، على يد التحليليين الوضعيين المنطقيين للانكار . ونزع من الفلسفة أوراق اعتمادها وعزلت عن



بعضها لتصير وصيفة للعلم ، تتسقط قضاياه وتصوراته ، وتتبعها بالتحليل المنطقى واللغوى دون أن يكون لها الحق فى التعبير عن مشكلات تختص بها وحدها تبحث عن تفسيرها أو تجد حلولا لها.

ويتفق أصحاب هذه الاتجاهات على استبعاد كل ما يخرج عن دائرة العلوم الرياضية والتجريبية لأنها وحدها التى تحمل معنى ، وما عداها من العبارات والقضايا لغو باطل وكلام بلا معنى . فقضايا العلوم الرياضية تحليلية يكرر محمولها موضوعها ، وقضايا العلوم التجريبية تركيبية يتطلب التحقق من صدقها رجوعا الى معطيات الحس فى الخبرة أو التجربة المباشرة . ولا يبقى للفلسفة فى هذا كله سوى أن تفرغ لتحليل النوعين السابقين من العبارات والقضايا من حيث المبنى والمعنى، ومن جهة اللغة والمنطق . وليس للفلسفة ان تقول أو تضيف من عندها شيئا أو تتحدث عن الوجود او الانسان ، فحسبها مهمة التحليل

وهكذا لا تجد القيم لها مكانا فى الفلسفة لأن كل قضاياها وأحكامها ليست قضايا أو أحكاما مما يقبل أن يوصف بالصدق او الكذب، ومن ثم فهى لا تحمل معنى ، ولا تعدو أن تكون أوامر فى صورة لغوية مضللة لا تجد دعامتها الا فى دعوتها الانفعالية ، مما لا يمكن استخلاصه من معرفة الوقائع .

ويحسن بنا قبل أن نمضى الى نقد الأساس المنطقى الذى يقيمون عليه انكارهم النظرى للقيم ، أن نشير الى موقفهم العملى منها . ففى الوقت الذى خرجوا فيه من باب أحكام القيمة ، عادوا فتسللوا اليها من النافذة . فهم يسرفون فى انكار المعنى واحتمال الصدق أو الكذب فى أحكام القيمة ، ثم ما يلبث أن يحاول كل منهم وضع نسق خلقى يضمر اعترافا بالقيم وأحكامها ، بوصفها قضايا تحمل معنى وتقبل التحقق فهذا جورج مور فى كتابه « برنكيبيا ايثيكا » أو أصول الأخلاق يعود فيمثل تقاليد الحدسيين ، فالخير عنده خاصة Property لا تقبل التعريف أو التحليل ، بسيطة فذة فريدة لا يمكن ادراكها الا بالحدس أو البصيرة المباشرة ، ويعنى ذلك أن صدق القضايا التى تحكم بقيام خيرية باطنية ذاتية ، أى التى تحكم بأن أمرا ما هو خير بمقتضى ذاته وليس لأن قيمة وسيلة لغيره ، انما هو صدق يمكن ادراكه مباشرة دون توسط أو برهان .

وهذا شليك رائد حلقة فيينا في كتاب « مبادىء الأخلاق » يرتد الى الاعتراف بأن الأخلاق شأن من حيث هي جهد لتحصيل المعرفة عن الصواب والخطأ ، وأن القيم وضروب الالزام اذا كانت نسبية وفقا لرغبات الأشخاص فهي موضوعية بمعنى أن البشر يؤثرون بعض الأشياء على غيرها .

ويعود مارسل ووكر وهو أحد فلاسفة العلم الوضعيين المنطقيين في كتابه « طبيعة الفكر العلمي » ، بعد أن يفرغ من تحليله للعلم مصدرا للصحيح والمشورة في السلوك الانساني ، يعود فيقرر وحدة الأصل والغاية للعلم والقيم ، فالأصل هو التجربة الانسانية ، والغاية هي بقاء الانسان . والحكم الخلقي والحكم العلمي لديه سواء . فكل منهما يقوم على أساس من النظر الى النتائج والتنبؤ بها حسب قاعدة مقررة أو قانون معلوم .

أما هربرت فايجل المتحدث باسمهم والمؤرخ لهم على اختلاف نزعاتهم ، فيختتم مقاله الشهير عن الوضعية المنطقية بنظرية للقيمة يستمد فيها على ديوى ، ذلك الفيلسوف الذي يجعل للقيمة دورا كبيرا في مذهبه البراجماتي . فيعزو « فايجل » للقيم الوسيلية معنى واقعيا ، فهي التي تحددها الحاجات والمصالح التي تقرر ما قد ثبت بالتجربة من علاقات بين الوسائل والغايات ، ويحكم عليها بالصدق أو بالكذب .

كما نجد مثل ذلك التعارض أو التناقض عند الدكتور زكي نجيب محمود ، فبعد انكاره القيم موضوعا للمعرفة في كتابه « نحو فلسفة علمية » ، يعود في كتابه « فلسفة وفن » فيعقد مماثلة بين الربان في سفينته وبين القيم في الانسان . فهي على حد تعبيره . « قيم يدركها بالفطرة حينا ، وحينا تبث في نفسه بثا ، وهي المعاني في رأسه التي تسيره ، وفهم الانسان على حقيقته هو فهم هذه القيم . وانهم ليقسمون هذه القيم ثلاثة أقسام كبرى تنضوي تحتها شتى المعاني التي تضبط مسالك الانسان في خضم حياته ، وهي الحق والخير والجمال ، في مقابل الثلاثة أوجه التي يحللون بها حياة الانسان الذاتية ، وهي الادراك والسلوك والوجدان » .

ويكشف هذا التعارض بين موقف الوضعي المنطقي المعلن — وهو بصدد تحليله لقضايا العلم، واستبعاده لأحكام القيمة — وبين موقفه المهرب الذي يعيد فيه خلسة ما تبرأ منه صراحة ، يكشف هذا عن قصور شائن في مذهبه ، هو العجز عن استيعاب قضايا الانسان واتخاذ قرار بشأنها . فوقوف المذهب عند مبدأ التحقق معيارا لكل ما يحمل معنى — باستثناء قضايا المنطق والرياضيات — انما هو انكار لكل معنى يبحث عنه الانسان في حياته ، فكرا وسلوكا .

تزعم الوضعية المنطقية أن القضية التي تحمل معنى هي ما كانت قضية تحليلية يكافىء محمولها موضوعها ، أو كانت قضية تركيبية يتحقق صدقها بمعطيات الحس ، وغير هذه وتلك ليس الا لغوا باطلا . ولكن أين مبدأ التحقق من هاتين القضيتين؟؟ لو رددناه الى أي منهما لما وجدناه منتميا الى احداهما . الا يعني هذا اذن انه لغو باطل بحكم منطق المذهب نفسه ؟

غير أننا لا نود الالتزام بقواعد لعبتهم المنطقية ، وحسب هذا التصدع المنطقي أن يكون دليلا على ضيق المذهب عن استيعاب خصوبة الفكر الانساني وتنوعه .

فاذا كان الفيلسوف التحليلي أو الوضعي المنطقي يعتقد أن العبارات التي تحمل معنى هي تلك التي يمكن التحقق منها — من حيث المبدأ — وأن العبارات التي تتحدث عما هو كائن هي التي تنتسب وحدها الى ذلك النوع ، وأما العبارات التي تنطوي على ما ينبغي أن يكون ، أي المنطوية على قيم ، فليست من ذلك النوع المشروع ، اذا كان ذلك هو القضية الأساسية عند أنصار تلك النزعة ، فاننا نلحظ من وراء هذا المحك ، تعهدا والتزاما قيميا ، هو وحده الذي يجعل مبدأ التحقق عندهم ممكنا ، هذا التعهد يلزم بقول الحق أو الصدق . فهناك اذن في قضيتهم الأساسية التي تصوغ محور منهجهم، يتربص بهم ما حاولوا رفضه وانكاره . ويتجلى هذا متى أبرزنا مبدأ التحقق عندهم على الوجه التالي :

« ينبغي علينا أن نتصرف على النحو الذي بمقتضاه أن ما يكون صادقا ، هو ما يمكن التحقق منه » . فأينما تولوا فثم ما ينبغي أن يكون ، وهو جوهر القيم !

فلا مفر اذن للفلسفة من التصدي لموضوع القيم ودراسته ، بل ان الفلسفة بطبيعة

موضوعاتها ، ومنهجها ، وغايتها يحتويها كلهـا اطار معيارى يغلب عليه طابع القيم .

فهى نظرة كلية شاملة يحتط بكل جوانب الفاعلية الانسانية . والعلوم مهما يكن لها من قدرة على الحديث فى كافة موضوعات المعرفة ، فانها تقف عند تخصصاتها لا تعدوها . فاذا أصبح لدينا من العلوم ، تصورا وافتراضا ، ما يعالج كل موضوعات المعرفة ، فلا بد أن نظل فى حاجة الى من يضم شتات هذه الموضوعات فى موضوع واحد يتخطى به تفصيلات عناصره ، ويعقد بينها الصلات ويسد الفجوات فالعالم او الوجود بكل جوانبه ، والانسان بكل ضروب نشاطه لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم من العلوم كذلك البحث فى أصول تلك العلوم من افتراضات سابقة وأسس منهجية لا يصرح بها الباحث فى عمله ليس من شأن العلوم . فالفلسفة توحد بين كل جوانب الفكر وتخصصاته وتؤلف بينها جميعا فى اتساق منطقى . والفلسفة موقف من العالم ، وموقف من العصر والمجتمـــع ، فى استيعاب شامل لكل جوانب الانسان . وكل مشكلة تصلح مادة للفلسفة على شريطة أن تدرس على أساس مكانها من نسق ومذهب متكامل فى ضــوء سائر التجـــارب والمطالب والأهـــداف الانسانية .

واذا كانت المواقف المتجددة التى يواجهها الانسان لا يمكن أن تنتظر حتى تفرغ العـــلوم المختلفة من دراسة مسائلها لكى يتقدم لهـــا الانسان بالحل ، فان الفلسفة كما يقول «رسل» هى التى تعلم الانسان « كيف يحيا بغير يقين ، ودون أن يشله التردد » . وهى ليست نظرا متطوع الصلة بالعمل ، بل هى نظر نقدى ينطوى على موقف من الحياة ، وليست تجريدا الا بقدر استعادة ما هو عينى ملموس عن طريق ما هـــو مجرد على حـــد تعبير « هوايتهد » . وهى رغم تحليقها المظنون عن الواقع ، فهى أكثر التصاقا به ، وذلك لأنه لا غناء عنها لكل انسان ســـواء اختار فلسفته عن وعى أو لا وعى ، فلا مهرب من الالتزام بفلسفة ما ازاء مواقف الحياة التى يواجهها الانسان كل لحظة . ولا تقنع الفلسفة بالتطلع الى الأهداف البعيدة ، بل تصقل ما يتاح للانسان من قدرات ومعرفة فى الوقت الراهن ، دافعة لها الى أقصى نتائجها ومتضـــمناتها ، وتزوده بالطاقة والعزم توصلا الى أهـــدافه وغاياته القصوى .

فالفلسفة تستند اذن الى اســـاس قيمى سواء فى اتجاهها الى النقد أو الابداع . فهى التى تبرز المبادىء وتكشف عن الافتراضات ، وتناقش القيم الرئيسية ، ظاهرة أو خافية وراء مشكلات الثقافة السائدة بما يحتدم فيها من صراع ، وما يختلج فيها من توتر ، وتوضح ذلك فى حياة الفرد والجمـــاعة وتبين دلالة فى حاضر الثقافة ومستقبلها ، وهذا من شأنه أن يعمق احساس الانسان بقيمه والالتزام بها ، ويدعـــم قدرته على توجيهها فيما ينبغى أن يكون . فهى مبدأ موجه للانسان فى موقفه ازاء العـــالم بمشكلاته التى تحدق به من كل جانب ، ولا مفر من اتخاذ قرار بشأنها سواء من حيث التفسير أو التغيير ، فلا يجدى الانتظار حتى يأتينا المدد من العلوم ، تقدم ثمراتها التى نضجت وفروضها التى تحققت .

وهناك من الفلسفات من تبرر واقعها ، ومنها ما يتحسر على ماض ذهبى ، ومنها من تثور على هذا وذاك ابتغاء بناء مستقبل جديد . وهى فى كل هذا تجعل الناس على وعى بالتزاماتهـــم وقيمهم الجوهرية وآثارها المترتبة عليها ، لأنها تهب الانسان مقاليد عالمه ، يفهمه بطريقتـــه ، ويتخذ منه موقفا تستبطنه القيم لا محالة .

غير أن الاتفاق لا ينعقد بين كل من عرض للقيم من الفلاسفة على تحديد مكانة معينة لها من المذهب الفلسفى . فمنهم من يبدأ بها مدخلا ، ومنهم من يجعلها محورا تدور من حوله تفصيلات مذهبه ، ومنهم من يخصص لها ركنا منزويا ، ومنهم من يزج بها داخل موضوع آخر يطويها مع غيرها من تصورات ومفهومات . كما يتفاوت الفلاســـفة فى درجـــة التصريح بموقفهم من القيم أو اضماره ، بحيث قد يتيسر تحليـــل موقفهم أحيانا ويتعذر أحيانا أخرى . ويبدو أن السبب فى ذلك انما يرجع الى مفهوم القيم نفسه من حيث هى مشكلة لم تقرر بعد قواعد تعريفها ، وتصنيفها والتمييز بين اتجـــاهاتها ومدارسها ، على غير ما نجد عليه الحال فى الميتافيزيقا ونظرية المعرفة التى صقلت تصوراتها وقواعد بحثها قرون طويلة من الحوار الفكرى الخصيب .

وتعد القيم نموذجا بارزا لما تكون عليه العلاقة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية . وهى ذات طبيعة اشكالية ، ولم تستقر مادة صريحـــة

محددة للبحث والدراسة فى الفلسفة أو العلوم الاجتماعية على السواء الا منذ زمن قريب فى أواخر القرن التاسع عشر ، ومن تاريخ نظرية القيمة تتبدى طبيعة العلاقة بين الفلسفة والعلم والأساليب النوعية التى يتناول كل منهما موضوع القيم . ويجدر بالملاحظة ان مفهوم القيم بمعناه الحديث قد دخل الفلسفة عن طريق علم الاقتصاد ، ثم تناوله علم الاجتماع عن طريق الفلسفة ولئن تبادر الى الخاطر أن مفهوم القيمة مفهوم فلسفى أصيل ، فذلك لا يصدق الا اذا عددنا القيمة عنوانا جديدا لموضوعات قديمة ، بمعنى أن القدماء من الفلاسفة قد عرضوا البحث القيمة ولكن تحت عنوانات أخرى مثل الحق والخير والجمال وغيرها ، ولكن القيمة في شمولها من حيث هى كذلك غير متعينة فى وعاء معيارى نوعى — أى بمفهومها الاكسيولوجى وفقا للاصلاح الفلسفى — فانها لم تكن محل نظر الفلاسفة حتى عهد قريب .

وللقيمة دلالات مختلفة تتعدد بقدر تعدد المجالات التى تطلق عليها ، فهى ، بلغة المنطق ، مفهوم له ما صدقاته الهائلة التى تنتشر فى اللغة المعتادة واللاهوت والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ، فضلا عن العلوم المعيارية المعروفة ، المنطق والاخلاق والجمال .

ويتحدد موقف الفيلسوف من القيم على مستويين ، الأول : متى تعرض لها فى صميم مذهبه امتدادا لنظرية فى المعرفة والميتافيزيقا والثانى : متى بحثها مستقلة فى علم من العلوم المعيارية .

وعلى هذا الوجه قد تقفز القيم الى قمة المذهب الفلسفى ، فتغدو طابعه الغالب ويكون لها دلالتها المنهجية العامة التى تسوق نظرة الفيلسوف الى مشكلات الفلسفة جميعا وتحكم مواقفه منها وحلوله التى يقدمها مثلما صنع نيتشه وشيللر . وقد تتوارى فى ركن قصى من المذهب عندما لا يعرض لها الا بوصفها قيمة خلقية أو منطقية أو غيرها من القيم النوعية مثلما صنع معظم الفلاسفة .

ولعل من الممكن ان نوجز مواقف الفلسفة من القيم فى وجهات النظر التى تتعلق بمسألتين، الأولى طبيعة القيم ، والثانية صنوفها .

فأما طبيعة القيم فهو ما تعلق بتعريفها .

وهنا تبرز مشكلة التمييز بين القيم من حيث هى وسيلة مفضيه الى غاية ومن حيث هى غاية تنشد لذاتها . فالأولى قيم خارجية تختلف باختلاف حاجات الناس ومطالبهم ، بينما الثانية باطنية ذاتية لا شأن لها بهذا الاختلاف بين الناس وهى المثل العليا والغايات القصوى .

وأما المسألة الثانية فهى طبيعة القيم من حيث هى ذاتية من وضع الذات واختراعها ، أو من حيث هى موضوعية تشير الى صفات عينية فى الأشياء لها وجودها المستقل عن الذات التى تدركها . وقد تتخذ هذه المشكلة صورة أخرى فتغدو تعارضا بين القيمة والواقعة ، وبينها وبين الوجود . وقد تمتد المشكلة الى مناقشة القيم من حيث هى نسبية أو مطلقة .

اما المسألة الثانية وهى صنوف القيم ، فتعنى السؤال عن وحدة القيم أو تعددها ، كما تنسحب أيضا على مناقشة مستويات القيمة دنيا أو عليا ، والصورة التى يكون عليها تسلسلها وتدرجها ان كان ثمة تسلسل أو تدرج .

ومتى أضيف موقف الفيلسوف من صنوف القيم الى موقفه من طبيعتها ، من حيث تعريفها ومن حيث هى وسيلة أو غاية ، ذاتية أو موضوعية ، نسبية أو مطلقة ، فذلك يؤلف نظرة منسجمة تتيح لنا أن نضعه ضمن فريق أو فئة معينة من أصحاب المذاهب .

ويمكن ، بقدر من التعسف ، أن تصنف مواقف الفلاسفة من القيم الى أربعة مذاهب رئيسية هى ، الموقف الطبيعى ، والمثالى ، والبراجماتى ، والوجودى .

فأما الطبيعى ، فليس موقفا متجانسا الا من حيث اتفاق أصحابه على أن القيمة سلوك طبيعى يخضع لقوانين علمية حتمية . ولكنهم يتباينون فى تفضيل نوع من القوانين العلمية على غيره . فمن الطبيعيين أصحاب المذاهب البيولوجية مثل هانس دريش ووارنجتون الذين يردون القيمة الى المستوى البيولوجى للفرد ، ومنهم الذين ينزعون الى الاتجاه النفسى مثل ماينونج واهر نفاس الذين يردون القيم الى مشاعر الرغبة . ومنهم الاقتصاديون ، مثل ماركس ، الذى يرد القيمة الى أصولها فى أسلوب الانتاج . ومنهم أنصار النزعة الاجتماعية مثل

دركايم الذى يرجع القيمة الى ما يفرضــه المجتمع من الزام .

بينما يرفض المثاليون ان تكون الخـبرة الحسية مصدر القيم أو حتى وسيلة ادراكها ، لأن العقل أو الوعى أو الحدس هو أداة ادراكها ، واكتشافها أيضا لانها ليست من خلق الذات بل هى موضوعية ، مطلقة غائية ، على نحــو ما يذهب جود وماكنرى وهارتمان .

ما الموقف البراجمــاتى فيدنو من موقف الطبيعيين فى رده مشاعر التقويم الى مستويات بيولوجية أو سيكلوجية أو جماعيــة ، الا انه يتميز عنهم فى رفضه الوقوف عند تفســير بيولوجى أو سيكلوجى أو اجتماعى للقيم لانه يتجاوز تلك المستويات الطبيعية الى جعل القيمة طابعا عاما للوجود الانسانى دون تفرقة بين هذه المستويات . فشأن القيمة شان كل فعل انسانى وسيلة واجراء يستهدف غاية مثلما هو الحال لدى شيلر وديوى .

والقيم عند الفلسفات الوجودية ، على نحو ما يمثلها سارتر ، يخلقها الانسان كل لحظــة عند اختياره الحر بين ممكنات داخـل موقف معين . فهى اذن لا تسبق اختياره وابداعه لها ، بل انها تفقد طبيعتها بوصفها قيمة عندما تصبح معيارا يسبق اختيار الفرد لموقف من المواقف . فهى شىء موقوت مرهون بالاختيار ، وليس ثمة قيمه ســابقة تهدى الانســان فى اختياره ، بل عليه ان يخلقها كل لحظة لنفسه وللآخرين .

وعلى هذا النحو يتبين أن الموقف الفلسفى من تصور القيم موقف شامل ، واطار كلى مهما اكن من محتواه : الذاتى أو الموضوعى ، النسبى أو المطلق ، الوسيلى أو الغائى . فكل وجهات نظر الفلسفة على اختلاف تفسيراتها للقيمة ورد اصولها الى الواقع التجريبى أو عالم الفكر ، انما تشارك جميعا فى موقف له خواصه النوعية التى تميزه عن موقف العـلوم الاجتماعية من حيث طبيعة الموضوع ، والمنهج ، والغاية .

فمن حيث الموضوع ، تتناول الفلسفة القيم بحيث تضـعها عنصرا من عناصر نسق يفسر الوجود أو الانسان على أساس منظــور كلى شامل .

ومن حيث المنهج ، لا تصوغ الفلسفة آراءها فروضا تقبل التحقق السريع المباشر ، لان القيم تدخل عنصرا فى بناء أكبر ، ولا تثبت صحة وجهة نظر الفيلسوف الا بثبوت صحة النسق الاكبر . ولا يتيسر ذلك داخل اطار علم واحد وأدوات منهجية بعينها ، بل لابد من توافر أدلة تجريبية ونظرية تتجاوز حدود هذا العلم أو ذاك ، ويكون التحقق منها والوفاء بشروطها على مدى طويل من الزمان ، وعلى امتداد رقعة فسيحة من العلوم المتآزرة .

ومن حيث الغاية ، فانمهمة الفلسفة ليست جمع المعارف المحققة بالتجــربة والبرهان ، وتنسيقها فى قوانين ونظريات كما يصنع العلم ، بل غايتها هى اسداء العون فى وضع اطار معيارى يستهديه الانسان فى مواقفه التى يتخذها ازاء واقعه دون ترقب لصحة هذه القضية أو تلك فى هذا العلم أو ذاك ، لأن الانسان فى حاجة دائمة الى الفعل والالتزام باتخاذ القرارات لا يسعفه فى ذلك انتظار ما تسفر عنه تجارب العلم .

٢ ـ القيم فى العلوم الاجتمــاعية

تفترق العلوم فى تناولها للقيم عن الفلسفة . فالعلوم الاجتماعية على اختلاف مجالاتها النوعية لا تقدم نسقا يشمل كل جوانب الوجود . بل يتخصص كل منها فى ميـدان نوعى ، ومن ثم تختلف موضوعاتها ومنهجها وغايتها عن الفلسفة .

فموضوعها رهن بالظاهرة النوعيــة التى تدرسها . ومنهجها يقوم على التناول التجريبى للظاهره بحيث تطرح فروضا يؤيدها أو يفندها الواقع وفقا لشروط محددة للتحقق من الفروض وفروضها لا تشبه فروض الفلسفة الشــديدة الاتســاع والعمومية ، بل تصاغ بحيث يتيسر التحقق منها بصورة سريعة مباشرة ، كلما كان ذلك ممكنا ، لكى تعمد بعد اثباتهــا قانونا أو نظرية . لذلك كانت غاية هــذه العلوم تنسيق المعارف المحققة وربطها بقوانين ونظريات تصلح أساسا ناميا لتطوير قدرة الانســان على فهم الظواهر بوصفها ، وتفسيرها ، والتنبؤ بها ، ثم التحكم فيها ، وهى فى كل هذا تتوخى دوما الدقة والضبط عن طريق تطويع الظاهرة للبحث التجريبى ، بالمعنى الواسع أو الضــيق على السواء .

وقد يطيب للبعض ان يوجز الفــرق بين الفلسفة والعلوم ، فى موضوع القيم ، فى التعارض

المأثور بين ما ينبغى أن يكون ، وما هو كائن . فعلى العلم الاجتماعى أن ينصرف عن التشريع المثالى للقيم وأن يقبل على دراستها كوقائع دراسة وصفية تقريرية تعمد الى التحليل والتفسير على نحو ما ذهب اليه « ليفى بريل » ودوركايم من قبل .

غير ان الفلسفة — كما رأينا — لا تقنع بالتحدث عما ينبغى ان يكون من قيم ، لأن هذا هو ميدان العلوم المعيارية كالمنطق والأخلاق والجمال . والفلسفة ليست كلها علوما معيارية لأنها تناولت القيم أيضا بالوصف والتحليل والتفسير ، ولكن بطريقتها الخاصة التى سبق ان أشرنا اليها .

والمثال على الفرق بين الفلسفة والعلوم هو ما نراه بارزا فى علم الاقتصاد. فالاتجاه الفلسفى الطبيعى الذى يجعل من القيمة بتفسيرها الاقتصادى أساسا لتفسير الفاعلية الانسانية ، بأسرها يفترق عن علم الاقتصاد الذى يدرس القيمة بوصفها موضوعا من موضوعات النشاط الاقتصادى لا ينصرف الى سواه من ضروب النشاط الانسانى الأخرى . فهناك فرق هائل بين النظرية الماركسية كنظرية فلسفية ، وبين نظرية العمل عند آدم سميث وريكاردو ، فكلتا النظريتين تجعل من العمل أساس القيمة ، الا أن الماركسية تجعل من نظريتها فى القيمة الاقتصادية أساسا تفسر به كل صور الفاعلية الانسانية خارج ميدان الاقتصاد ، بينما يقف « سميث » مثلا عند تفسير النشاط الاقتصادى لا يعدوه . ويتبين ذلك من موقفه المغاير من مسائل الأخلاق والمعرفة ، فالجدير بالذكر انه كان استاذا للمنطق والأخلاق بجامعة جلاسجو القيمة فى علم الاقتصاد ، كنظرية المنفعة الحدية، قبل ان يكتب فى علم الاقتصاد .

وهناك بطبيعة الحال نظريات متباينة عن القيمة فى علم الاقتصاد ، كنظرية المنفعة الحدية ، ونفقات الانتاج ، وكلها مثل نظرية العمل تقف عند تفسير النشاط الاقتصادى لا تجاوزه .

أما القيم فى علم النفس فهى من موضوعات علم النفس الاجتماعى على الأصالة ، ويبدو انه يستعيرها من علم الاجتماع ، ولكنه يتخصص فى دراسة العمليات التى بمقتضاها يتمثل الفرد داخل هذه القيم خلال مراحل التنشئة والتكيف الاجتماعيين ، واكتسابه لها فى نطاق جماعته المرجعية الصغيرة .

أما علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية، فهما يحتفلان أشد الاحتفال بدراسة القيم ويفردان لها الكثير من البحوث. وهما لا يدرسان القيم على نحو ما يدرسها علم الاقتصاد أو علم النفس حيث يدرسها كل منهما وقد عزل ظواهره النوعية — وهو عزل مشروع — عن السياق الاجتماعى الشامل ، بل يعمد علم الاجتماع اليه بحثها على امتداد المجتمع بأسره ، فينفذ الى المجتمع المحلى الخاص ، كما يعقد المقارنة بين مجتمعات متعددة . وهنا تواجه علم الاجتماع مشكلة تعيين الحدود لتخصص موضوعاته . فهذا ريمون آرون عالم الاجتماع الفرنسى يثير التساؤل الذى يطرحه علم الاجتماع على نفسه . فوفقا لعبارته في كتابه « المجتمع الصناعى » : « يتساءل علم الاجتماع عن نفسه لأنه يريد ان يكون علما خاصا (اى مستقلا عن الفلسفة) كما ينشد فى الوقت عينه أن يحلل وأن يفهم مجمل الجوانب الاجتماعية . فمن التقاء هذين المقصدين احدهما بالآخر تنبعث شكوك علماء الاجتماع فى أنفسهم ، ويبرز صراع المذاهب الاجتماعية ، وتأتى أيضا فائدة التأمل الفلسفى » .

وتعد دراسة القيم فى هذا العلم مصداقا لهذا الشك أو التساؤل . فقد دخلت القيم علم الاجتماع متأخرة ، ولم تعد مبحثا من مباحثه الا فى هيكل الفلسفة على خلاف ما حدث فى الاقتصاد . وقد يتبين هذا فى تصريح دور كايم بأن « تقدم نظرية القيم أخيرا انما يرد الى اقامة عمومية ووحدة ذلك المفهوم » . ويعنى هذا بعبارة أخرى اعتماد هذا التقدم على البحث الفلسفى للقيم لأنه وحده الذى يحق له بمقتضى اتساع موضوعاته وشمولها أن يثبت هذه العمومية وتلك الوحدة . بل ان محاضرة دوركام عن « أحكام القيمة وأحكام الواقع » انما تعد بحثا فلسفيا خالصا لأنها كانت محاولة لتأييد وجهة نظر خاصة فى مقابل وجهات نظر فلسفية أخرى ، غير أنها كانت فى الوقت نفسه استباقا لما ينبغى أن تجرى عليه بحوث علم الاجتماع فى دراستها للقيم . .

ولعل « فركمايستر » قد أوضح ذلك التزاوج بين الفلسفة وعلم الاجتماع فى دراسته للقيم ، عندما حدد معنيين لمشكلة القيم فى علم الاجتماع . يقوم الأول طالما كان التقويم او

الالتزام بالقيم جزءا من الوقائع التى يدرسها عالم الاجتماع . ويتعين الثانى كمالة تخص المقولات أو الفئات التفسيرية التى تحتاجها العلوم الاجتماعية ، والمعنى الأول ليس في حاجة الى مزيد من الايضاح ، فالكائنات البشرية مخلوقات ساعية الى غايات تقدر وتقوم هذه الغايات على نحو فردى او اجتماعى . وهذا التقويم له أصوله ونشأته وتغيراته وتعدد علاقاته المتداخلة، وعلى هذا فدراسة القيم كوقائع وموضوعات لعلم الاجتماع لا تثير اية مشكلة منهجية . أما المعنى الثانى وهو القيم بوصفها مقولات أو فئات تفسيرية ، أو معان كلية ، ففيه تقوم بوظيفة هامه هى التى تتجسد فى الألفاظ والمصطلحات القيمية التى تفهم بمقتضاها الظواهر الاجتماعية ، فهى وحدها فى نظر « فركمايستر » التى تقدم الأساس العقلى لفهم بنية المجتمع وثقافته .

ويبدى « فركمايستر » تحفظا على هذا المعنى ، وهو أن استخدام العالم الاجتماعى للمصطلحات القيمية كمقولات او فئات تفسيرية لا يعنى أنها تعبير عن تقويماته وانحيازاته وميوله الخاصة ، بل ينبغى ان تكون تفسيرا للالتزامات القيمية الرئيسية الباطنة فى الظواهر الاجتماعية نفسها . وينبغى ان يكون الكشف عنها عن طريق أشد ضروب الفحص والاختيار دقة وشجاعة ، وعلى أساس من تحليل الوقائع ذاتها .

وهذا هو « هوارد بيكر » . عالم الاجتماع والانثروبولوجيا، يقيم نظريته فى التفسير الاجتماعى على القيم ابتداء وأساسا . فهو يقول : « اذا كان على علم الاجتماع بأن يضطلع بمهمة هداية اختيار البشر لغاياتهم ووسائلهم معا ، فعليه أن يجلو دور القيم واتساقها فى السلوك الانسانى ». ويقول بيكر ان العبارة القائلة بأن « لا مكان لاحكام القيمة فى علم الاجتماع ، انما هى نفسها احد احكام القيمة . فالانسان لا يكمن دراسته بوصفه كائنا بشريا فعالا فى نطاق مجتمع الا اذا عرفنا قيمه . ولا بد من وضع قيمه تلك فى صورة منتظمة مرتبة ، ومصنفة فى نمط موحد يمكننا من التنبؤ بالسلوك الانسانى والتحكم فيه كفاية عملية . فالانسان على حد تعبيره « مقوم اصيل » . والسلوك الانسانى هو دائما سلوك معيارى .

والى هنا لا تكاد نلمس فرقا بين عالم الاجتماع والفيلسوف ، غير أن الفرق يتضح عندما يصوغ علماء الاجتماع آراءهم ــ التى قد تنتمى الى مجال الفلسفة ــ فى فروض تقبل التحقق يطبقونها على المجتمعات التى ينتقونها ميدانا للبحث .

فالفارق اذن بين الفلسفة والاجتماع هو ما يصنعه رجل العلم فى صوغه لما يمكن أن يسمى « بالموقف التجريبى » . ويستلزم هذا بدوره منذ البداية أن يختلف موضوع العلم عن موضوع الفلسفة ، بمعنى أن يعين رجل العلم موضوعه بحيث يشير الى جزء أو جانب من الواقع يمكن أن يطوعه لتحديدات الزمان والمكان ومتطلبات التكميم ، على خلاف ما تصنعه الفلسفة عندما تجول حرة طليقة من أبعاد الزمان والمكان تحلق هنا وهناك باحثة عما يؤيد وجهة نظرها العامة .

أما «الموقف التجريبى» فهو ضرورة منهجية يسعى اليها رجل العلم وفاء لشرط الموضوعية ، لأنه في حاجة الى التحقق من فرضه . والفرض لا يتحقق الا بنتائجه التجريبية ــ أو قل الواقعية ــ المقيدة بمكان وزمان معينين فى وسع الباحث أن يستوعبهما بحواسه وادواته . والفرض ليس مجرد مقدمة منطقية تستنبط منها نتائجها ــ كما يفعل الفلاسفة فى أكثر الأحيان ــ بل هو لون من الحلول التى يصوغها الباحث حلا لاشكال تختبر صلاحيته فى موقف واقعى . والا عدل عنه الى آخر . وهنا على الباحث أن يحدد منذ البداية أدواته التى لابد ان يتزود بها فى مواجهته للواقع الواسع المبعثر . وعليه حينئذ أن يختار أو يهيىء معطياته الملائمة، ويؤلف ويرتب وقائعه التى يمكن أن ينظمها عقدا متسقا مع فرضه هذا فضلا عن مفهوماته التى يعطيها دلالات اجرائية ، اى مترجمة الى خطوات منهجية محسوبة يمكن أن يؤديها غيره ، وبحيث يستطيع أن يعزل ما يريد عزله ، ويجمع شتات ما يراه معززا لفرضه كلما كان ذلك متيسرا .

فيبدأ الموقف التجريبى اذن من تحديد المشكلة وتعيين عناصرها فى اطار الاقع المتاح ، وقد تكون مثلا علاقة القيم بالتغير الاجتماعى ، أو صلة القيم بظاهرة أو نظام ما ، ثم يضيف اليها مادته العلمية ، وهى هنا :

١ ــ اطاره التصورى ومفهوماته وفروضه، وهنا تدخل الفلسفة شريكا ظاهرا أو خفيا .

٢ — اجراءاته وأدواته المنهجية . وبعدها يوجه هذه المادة بشقيها النظرى والمنهجى الى ما اختاره أو اصطنعه ، بحسب امكانياته التجريبية أو الواقعية ، من معطيات ووقائع ليست كما قد يتبادر الى الأذهان تقبع جاهزة فى انتظاره ، بل هو يفرزها فرزا ويعزلها عزلا عن عمد واختيار فى أغلب الأحيان .

فاذا ما أتيح لعالم الاجتماع أن يجعل من موقفه التجريبى عناصر متسقة مع فروضه بحيث يغدو الموقف فى نهاية الأمر محلول الاشكال ، بمعنى انطباق فروض الباحث على الواقع ، يكون قد أفلح فى بحثه . واذا وجد موقعه مختل العناصر وجب عليه أن يعدل الى فروض وطرق أخرى .

وليس من المتعذر أن نصادف هذه الصورة كثيرا فى العلوم الاجتماعية . فهناك على سبيل المثال البحث الذى قامت به مجموعة من الباحثين فى أمريكا أبرزهم فلورنس كلوكهون عما أسموه : « التنوعات في التوجيهات القيمية » واختاروا لتطبيق فروضهم خمسة مجتمعات محلية فى منطقة الريمروك فى جنوب غرب الولايات المتحدة . فهم يبدأون بصياغة مادتهم النظرية ، فيعرفون التوجيهات القيمية على النحو الذى يستخرجون منه من بعد فروضهم وتوقعاتهم التجريبية اذا ما نزلوا الى واقع معين مختار . فالتوجيهات القيمية فى نظرهم هى : « مبادىء منتظمة فى نماذج تتسلسل في الرتبة ، ناتجه عن التفاعل بين عناصر عملية التقويم الثلاثة : المعرفية والوجدانية والنزوعية ، وهى التى تهيىء الترتيب والاتجاه فى المجرى المتدفق دوما للافعال والافكار الانسانية التى تتعلق بحل المشكلات الانسانية المشتركة العامة » . ثم يصادر الباحثون بوضع بعض الدعاوى ، تحديدا وتصنيفا لهذه التنوعات التى تندرج تحتها التوجيهات القيمية : فهناك عدد محدود من المشكلات الانسانية التى لابد أن يجد لها البشر فى كل الأزمان صيغا معينة . ومتى توجد تلك الصيغ ، فهى ليست بلا حدود ، وليست عشوائية ، بل هى تنوعات فى نطاق مجال محدود من الحلول الممكنة . كما توجد دائما بدائل متنوعة للحلول المتكررة فى كل الثقافات وفى كل الأزمان ،ولكنها تتلقى باختلاف المجتمعات والثقافات ، درجات متفاوتة من التوكيد .

وهناك خمسة مشكلات مشتركة عامة تبعث على تلك الحلول وهى : ما تعلق منها بطبيعة الانسان ، وعلاقته بطبيعة وما فوق الطبيعة ، ومكانته من جريان الزمان ، وحالات الفاعلية الانسانية ، وعلاقة الانسان برفاقه من البشر .

ثم يواصل الباحثون صقل مادتهم النظرية، فيقسمون كلا من تلك التوجيهات المتعلقة بهذه المشكلات الى ثلاثة جوانب ، كانقسام التوجيه القيمى عن « الانسان — الطبيعة » الى السيادة عليها والخضوع لها والتوافق معها ، وانقسام التوجيه القيمى عن « الزمان » الى ماض وحاضر ومستقبل ، وهكذا فى سائر التوجيهات . كما يفرقون في التوجيهات القيمية بين ما هو سائد، وما هو متفاوت ، ومن الأخير ما هو مطلوب ، وما هو مسموح به ، الى آخر مثل هذه الفروق.

ويمضون فى تصنيف مادتهم النظرية ، فيميزلون بين نمطين رئيسيين من « التمايز المجتمعى » يستعان به فى كل المجتمعات ، وهما: التمايز الخاص بالجماعات الفرعية من النوع الذى نجده فى الوحدات الاجتماعية الاقليمية ، والعنصرية ، والطبقية وغيرها . والثانى هو ما يسميه الباحثون تمايز « المجال السلوكى » ، وهو ما تعلق بالفئات الواسعة للأنشطة الاجتماعية اللازمة لانتظام المجتمع فى أداء وظائفه . ووجه الباحثون عنايتهم الى المجالات السلوكية الاقتصادية والدينية والعقلية والجمالية والترويحية ، فضلا عن المجالات السياسية من النشاط وعلاقتها بسائر المجالات . وافترض الباحثون أن تبرز فى المقارنة بين الثقافات اختلاف تمايزات الجماعات الفرعية من حيث النمط والمقدار ، واختلاف درجة التمايز فى المجالات السلوكية بصورة واسعة من مجتمع الى آخر .

وهكذا يعمد الباحثون الى مواصلة تسجيل توقعاتهم التجريبيه المرتبة على فروضهم بحيث يسيرون الى أمثله من الواقع الذى اختاروه ميدانا تجريبيا للدراسة . وعلى هذا النحو وقع اختيارهم على خمسة مجتمعات خاصة ، فى منطقة الريموك ، اثنتان منهما هنديان — أمريكيان ، وواحد أمريكى — اسبانى ، وواحد من قرية المورمون ، والأخير مستوطنون قدموا الى المنطقة من تكساس وأوكلاهوما فى بداية

الثلاثينات من هذا القرن . واختيرت عينة ممثلة من تلك المجتمعات ، وطبقت على أفرادها استمارات مقابلة Schedules مؤلفة من خمسة وعشرين بندا وزعت على امتداد الاستمارة بصورة متكافئة بحيث تغطى أسئلتها توجيهات القيمة الخاضعة للدراسة . ثم عولجت معطيات الاستمارات بالأساليب الاحصائية لاستخراج التعميمات التجريبية ، والنتائج النظرية العامة التى أفضى اليها البحث .

ولا يعنينا هنا بطبيعة الحال أن نناقش اجراءاتهم التى اصطنعوها ، ونتائجهم التى بلغوها ومدى نجاحهم أو اخفاقهم فى مواجهة « الموقف التجريبى » الذى انتظم بحثهم . فما يهمنا بالدرجة الأولى هو ابراز أوجه الافتراق أو الالتقاء بين الفلسفة والعلم فى تناول القيم .

فرغم مانلاحظه في المثال السابق من امعان فى التجريد النظرى وتوسع الفروض فى احاطتها لمسائل شديدة العموميه ، مما يبعث على الشك فى انتمائها الى العلم بأكثر من انتمائها للفلسفة على الرغم من ذلك ، فان الباحثين فى هذه العلوم لا يقفون عند ذلك التجريد ، بل يترجمون مكوناته الى عناصر وأمثلة واقعية يتجهون اليها بأدواتهم المنهجية . فالفرق اذن بين العلم والفلسفة هو الاحالة المباشرة الى معطيات الواقع ، بمعنى أن هناك على الأقل امكان الترجمة الى اجراءات للتحقق من صحة الفروض التى تنطوى عليها النظرية الاجتماعية . ومع هذا فثمة عنصر فلسفى يكمن دائما فى النظرية الاجتماعية قد يصرح به عالم الاجتماع أو لا يصرح ، ما دام على علم الاجتماع ان يحيط بمجمل الجوانب الاجتماعية كما يقول «آرون». والعلوم الاجتماعية كما يقول « كمروف » ينبغى عليها أن تتعلم من الفلسفة كيف تتناول أشد الموضوعات عمومية ، وأكثرها أهمية ، فهى تقدم مثلا لدراسة تلك الموضوعات . وعلاقة الفلسفة بكل من العلوم الاجتماعية هى علاقة العام بالنوعى ، والخاص ، والفردى . ولكن على شريطة الا تبالغ العلوم الاجتماعية فى صلتها بالفلسفة فتسقط فريسة لنزعات التبرير ، كما لا ينبغى أن تبالغ فى عزلتها عن الفلسفة فتستهويها مطالب الدقة والضبط التىقد تشلها عن مجاوزة التفصيلات التافهة الى التجريد النظرى المشروع .

وتتحدد صلة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية على مستويين ، الأول منهجى حيث تبرز الفلسفة الافتراضات والمزاعم المسبقة التى تتوارى خلف صوغ رجل العلم لمفهوماته ومصادراته ، كما تخدم الباحث العلمى فى صقل أدواته المنهجية وصون اتساق بنائها المنطقى . والمستوى الثانى نظرى حيث قد تزود العلوم الاجتماعية بالمشكلات التى ينبغى أن تتصدى لها بالبحث ، أو قد تقدم لها تصنيفا ناجحا تعرضه على محطات التجريب مثلما أفاد اختبار ألبورت وفرنون فى علم النفس من تصنيف شبرانجر للقيم .

بيد أن ذلك لا يعنى أن الفلسفة وصية على العلوم أو أنها بمثابة تاجر بالجملة يزود العلوم بموضوعاتها ، بل هى تفيد دائما من العلم ومن كل خطوات تطوره فى تعديل آرائها وفروضها الواسعة ، ولكنها قد تسبقه أحيانا الى صوغ فروض لا تتمكن أدوات العلم في هذه المرحلة أو تلك من أن تؤيدها أو تفندها . ولا يهمنا هنا ما تزعمه الفلسفة من أسماء وألقاب تخلعها على هذه الفروض وعدم الاعتراف بها فروضا لم تتحقق بعد ، فحسب الانسان أن يكون فى حاجة اليها اليوم ، وليكشف المستقبل عن صدقها أو كذبها .

ويبدو أن الفلاسفة يستحون من تسمية آرائهم فروضا لأنهم يطلقون عليها اسم نظريات ومذاهب وأيديولوجيات . وقد يستسلمون أحيانا لاغراء هوى يحملهم على اضفاء صفتى الضرورة والاطلاق على بعض التعميمات التجريبية ، مثل بقاء الطاقة أو التطور البيولوجى أو توهم بعض المفهومات والدالات العلمية كيانات ثابته ، وجواهر وأشياء كما هو الحال فى الطاقة والكتلة ، وهذا من شانه أن يقلل من الثقة فى متانة نسيجها الفرضى الذى يحتضن منجزات العلم والثقافة التى بلغها هذا العصر أو ذاك ، وينظمها فى نسق يستبق به أحيانا تطور العلوم .

ومهما يكن من أمر ، فعندما يتم لعلم أو لبضعة علوم معا أن تتحقق من صدق فرض فلسفى فانه ما يلبث أن يضاف الى رصيد العلم ، ويخرج من الفلسفة . ولكن يظل للفلسفة وظيفتها الخاصة عندما تضم ما حققته العلوم المختلفة فى اطار معيارى واحد ونظرة كلية شاملة .

صلاح قنصوة

الظاهريات وأزمة العلوم الأوربية

د. حسن حنفي

اذا كان القرن التاسع عشر هو عصر انتصار العلوم الطبيعية ، منهجا وتطبيقا وأثرا ، حتى انه ليؤرخ للحضارة الأوروبية به ، بعد أن استقر فيه المنهج التجريبي ، واثبت خصبه وجديته ، وبعد أن تمت تطبيقاته في العلوم ، وحدث الانقلاب الصناعي ، أي الثورة التكنولوجية الأولى ، وأصبح التقدم يقاس بالسنين لا بالقرون - اذا كان القرن التاسع عشر كذلك فانه يمكن أن يقال : **ان القرن العشرين هو بدء ازمة العلوم الانسانية بل وبدء ازمة الضمير الأوروبي نفسه،** اذ كان بمثابة مرآة عكست انتصارات القرن السابق وصورتها بوصفها عقبات وخيمة تهدد كيان العلم ، وتنذر الحضارة الأوروبية بالخطر ، حتى لقد تنبأ البعض لها بالفناء من أمثال **نيتشة** وانتهائه الى العدمية ، **وشبنجلر** وتأكيده لانهيار الغرب . ولكن المحاولة العلمية الجادة في هذا الموضوع هي تلك المحاولة التي قام بها **ادموند هوسرل** في آخر حياته (١٨٥٩ - ١٩٣٨) كآخر صيحة له بعد ان أسس الفينومينولوجيا ، واطمأن الى أنه عثر في النهاية على هذا العلم الشامل الذي طالما راود الفلاسفة الأوروبيين ، والذي جعلته الحضارة الأوروبية مطلبا لها وغاية ، هذه هي المحاولة التي سطرها في كتابه الضخم « **ازمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية** » .

أولا - بوادر الازمة :

١ - ظل المثل الأعلى للمنهج العلمي حتى أواخر القرن التاسع عشر هو منهج العلوم الطبيعية الذي يعد بالفعل أهم مكاسب الحضارة الأوروبية منذ عصر النهضة ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، والذي أصبح نموذجا لكل فكر يريد أن يصير

علما ، واستطاعت العقلية الأوروبية بفضله القضاء على كثير من النظرات الذاتية ووجهات النظر والأبنية الأسطورية والميتافيزيقية . **أصبح منهج العلوم الطبيعية شرط اليقين ، والضامن للموضوعية ، والكفيل بتقدم العلم** ، وأثبت تاريخ العلم حتى هذا العصر صدقه ، أصبح المعمل هو بدء العصر فيه تقاس الظواهر ، ويكتشف القانون فى تجربة معملية ، صورة مصغرة لما يحدث فى الطبيعة الخارجية التى أمكن السيطرة عليها والتنبؤ بأحداثها بفضل الجهد الانسانى فى اكتشاف القوانين العلمية ، واختراع أجهزة الضبط والقياس، **كان لابد من تحويل كل ظاهرة فى الخارج الى ظاهرة معملية اى الى ظاهرة حسية كمية تخضع للقياس** ، ويمكن الوصول فيها الى قانونها الموضوعى الذى يحكمها .

وكانت العلوم الانسانية فى هذا الوقت مازالت فى نطاق النظريات الفلسفية العقلية والحدسية التى تخضع لأهواء الفلاسفة ولمزاجهم الشخصى ، أو التى هى نتاج لظروف العصر وأحداثه ، أو التى هى خليط من العلم والأسطورة ، والتى تصل فيها البساطة الى حد السذاجة ، أو التى هى صدى لبعض المعتقدات الموروثة والشعبية أو الدينية . كان علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق صدى لروح الفيلسوف ونزعته المثالية التى كانت فى الغالب صدى لايمان دينى مستنير ، كان الانسان من طبقة ، والطبيعة من طبقة أخرى ، ولما كان الانسان أشرف ما فى الكون فكيف كان يمكن أن يقاس بمقياس العلوم الطبيعية التى تدرس الأشياء الأقل كمالا ؟

لذلك سارع علماء النفس والاجتماع والأخلاق وغيرها من العلوم الانسانية بتبنى هذا المثل الرائع الذى أعطته العلوم الطبيعية بمنهجها التجريبى ، **وحولت الظاهرة النفسية الى ظاهرة معملية فنشأ علم النفس التجريبى** ، وخرج من معامل الفزيولوجيا لأول مرة على يد **فونت** ، وسار فى الطريق **كونديالك** وآخرون حتى **شاركو** وفى علم الاجتماع نشأت المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى وضع أسسها **اوجست كونت** ، وسار بعده فى نفس الطريق **دوركايم و ليفى بريل . فاعتبر دور كايم الظاهرة الاجتماعية شيئا يخضع للكم والقياس . واعتبر ليفى بريل تحليل العقل جزءا من علم الاجتماع** أو علم الانسان أو علم الوراثة أو البيولوجيا ، وكان أوجست كونت قد وضع من قبل **قانون الحالات الثلاث** لفلسفة فى التاريخ ترى أن العصر الحاضر هو عصر العلم والتجريب بعد أن قضى على العصر الميتافيزيقى والدينى الى غير رجعة . **وفى علم الأخلاق حول ليفى بريل هذا العلم المعيارى القديم الى دراسة للعادات وجعله فرعا من علم الاجتماع .**

ولقد تقدمت العلوم الانسانية بعد تبينها منهج العلوم الطبيعية ، واستطاعت أن تتخلى أيضا عن النظرات الفلسفية الذاتية والجوانب الأسطورية فيها . ولكن بعد ذلك ، وفى أوائل القرن العشرين ، بدأت الأزمة فى الظهور . لقد تكشف للبعض من أمثال هوسرل وبرجسون وبعد ذلك مونييه وميرلو بونتى وجيرفتش – **ان الظاهرة الانسانية ليست كالظاهرة الطبيعية ، وانها من نوعية مخالفة ، وان الظاهرة النفسية مختلفة عن الظاهرة الفيزيقية وان الظاهرة الاجتماعية ليست شيئا ملموسا يقاس كما . اذا كانت الظاهرة الطبيعية كما فالظاهرة الانسانية كيف ، واذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن قياسها فالظاهرة الانسانية تند عن القياس ، اذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن التنبؤ بمجراها ووقوعها اذا علمنا قانونها وسيطرنا عليها فالظاهرة الانسانية تند عن القانون وتتميز بحرية باطنة فيها لا يمكن التنبؤ بمجراها ووقت وقوعها او باشكالها المستقبلة ، اذا كانت الظاهرة الطبيعية موضوعا فان الظاهرة الانسانية اقرب الى الذات ، فالانسان ذات وليس موضوعا وهو ما عناه** الوجوديون بعد ذلك بلفظ التعالى .

٢ – ومن ناحية أخرى ، رأى البعض أن **نموذج اليقين فى العلم هو المنهج الرياضى** أى اتساق الفكر مع نفسه لا تطابقه مع الواقع كما هو الحال فى المنهج التجريبى ، بل ان العلوم الرياضية تعد أقوى يقينا من العلوم الطبيعية لأن معدل التغير فى الأولى أقل بكثير من نسبة الخطأ فى الثانية . بل ان العلوم الطبيعية نفسها تتخذ اليقين الرياضى نموذجا لها فى الموضوعية والشمول ، وبالتالى فعلى العلوم الانسانية ان أرادت أن تصير علوما مضبوطة **ان تأخذ العلوم الرياضية نموذجا لها ، فهى الأصل فى البحث عن اليقين** ، وأن تتبنى **المنهج الصورى** ، خاصة وأن أزمة العلوم الانسانية التى تبنت المنهج التجريبى أخذت فى الظهور ، ولم يكن هناك مفر من الرجوع الى الأصل فى العلوم الرياضية . ومن ثم **اخذت العلوم الانسانية تنموا نموا رياضيا** ، وتتبنى المناهج

الاحصائية ، وأصبحت الظواهر كلها طبيعية أم رياضية أم انسانية مجرد معادلات ورموز ، وأصبح اليقين كله فى الوصول الى نظرية شاملة تشابه **نظرية الكثرة** أو **نظرية المجموعات** فى الرياضة البحتة ، وأصبح نموذج العلم هو **الرياضة الشاملة** التى حاول **ليبنتز** من قبل وضع أسسها ، والتى يعتبرها هوسرل المشروع الأوروبى لاقامة نظرية فى العلم مرادفة للبحث عن الحقيقة وبديلا للحقيقة نفسها ، وكما كان خلاص العلوم الانسانية من قبل على يد **بيكون ومل** فان خلاصها الآن يتم على يد **كانتور و ديدكند وريمان وبولزانو** •

ولكن حدثت أزمة ثانية • ففى هذه المرة أيضا **ندت الظاهرة الانسانية عن التحليل الرياضى ، وظهرت نوعيتها المستقلة ولم يعد فى الامكان تحليلها على أنها مجرد مجموعة من التصورات الرياضية أو المفاهيم المنطقية • الظاهرة الانسانية ظاهرة حية والرياضية علم صورى محض ولا يمكن دراسة الحياة بمنهج موضوعى فارغ من كل مضمون** • وقد أدى ذلك على مايقول هوسرل الى فقد عالم **الحياة** فى العلوم الانسانية ، **وأصبحت ازمة العلوم الانسانية فى جوهرها ازمة للشعور الأوروبى نفسه بفقده التجربة الحية** التى هى مصدر العلم ومادته •

وعلى **مشارف هاتين الأزمتين** الأولى والثانية **بدات الفينومينولوجيا فى البحث عن منهج** خاص للعلوم الانسانية **يحفظ نوعية الظاهرة ويميزها عن** الظاهرة الطبيعية والظاهرة **الرياضية وبالتالى يشق طريقا** ثالثا وهو ما سماه **بالفينومينولوجيا** •

ثانيا ـ نشاة الفينومينولوجيا من خلال الأزمة :

لم تنشا الفينومينولوجيا مرة واحدة والى الأبد بل **خرجت من أزمة العلوم الانسانية** خاصة المنطق والرياضة ـ تجاوزا ـ وعلم النفس والفلسفة • فقد ظلت الفينومينولوجيا حتى سنة ١٩٠١ تقريبا أى حتى كتاب « **بحوث منطقية** » لهوسرل مجرد دراسات فى الرياضة والمنطق وعلم النفس لم تكتمل الا فى سنة ١٩١٣ بظهور الجزء الأول من « **الأفكار** » وظهور الجزء الثانى والثالث سنة ١٩٢٤/٢٥ ، ثم تأتى المرحلة الثالثة التى تحولت الفينومينولوجيا الى العلوم الانسانية من جديد تثبت أصالة منهجها فى التطبيق فى المنطق وعلم النفس والفلسفة والأخلاق والحضارة ، وهى مرحلة « **علم النفس الفينومينولوجى** » سنة ١٩٢٥ ، « **المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى** » سنة ١٩٢٩ ، « **التجربة والحكم** » الذى ظهر قبيل وفاته بقليل سنة ١٩٣٨ • ثم مؤلفاته فى تاريخ الفلسفة « **الفلسفة الأولى** » بجزئيها سنة ١٩٢٣/٢٤ ، « **تاملات ديكارتية** » سنة ١٩٢٩ ، وأخيرا « **أزمة العلوم الأوروبية** » سنة ١٩٣٥/٣٦ •

١ ـ بدأ هوسرل فكره بالدخول فى المعارك الدائرة فى فيينا حول طبيعة الرياضة وماهيتها وشارك فى حل المسائل المعروضة وقدم حلوله فى رسالتيه للدكتوراه الأولى « **مساهمة فى حساب المتغيرات** » **فى فيينا** سنة ١٨٨٢ (وهو ما زال مخطوطا حتى الآن) والثانية عن « **مفهوم العدد** » فى هاله سنة ١٨٨٧ ، ثم فى عمله الفلسفى الأول « **فلسفة الحساب** » الذى نشر الجزء الأول منه فى هاله سنة ١٨٩١ والذى حاول فيه **رد التصورات والمفاهيم الرياضية الى أسسها النفسية** ، معارضا بذلك جميع الاتجاهات الرياضية التى تحاول رد هذه المفاهيم الى أسس صورية محضة ، أى أن هوسرل كان أولا من أنصار الاتجاه النفسى فى المنطق والرياضة وهو الاتجاه الذى رفضه بعد ذلك فى الجزء الأول من « **بحوث منطقية** » • وقد تناول هوسرل فى هذه الفترة مشاكل الكل والجزء قبل أن يعالجها فى المنطق ، كما عرض لمشكلة الصفات الحسية لوحدة ما قبل أن يعرض لها فى الفينومينولوجيا ، كما دخلت كثير من المفاهيم الرياضية واستقرت فى الفينومينولوجيا مثل الكميات الخيالية ، المضمون الأولى ، العدد ، الحكم • وكذلك ظلت كثير من التمييزات بين المستويات المختلفة مثل التمييز بين الوصف النفسى للظواهر وبين تحليل المعانى ، أو بين المضمون النفسى والمضمون المنطقى ••• الخ • أى أن هوسرل فى هذه الفترة أراد حل أزمة الرياضة بارجاعها الى علم النفس وكان ذلك مقدمة لاكتشاف البعد الشعورى فيما بعد •

٢ ـ ثم دخل هوسرل معركة ثانية شبيهة بالأولى ولكن فى هذه المرة لتحديد الصلة بين المنطق وعلم النفس فقد كتب هوسرل قبل « بحوث منطقية » عدة مقالات عن « **حساب التتابع** » و « منطق المضمون » ، وعن « **جبر المنطق** » ، وكذلك « **دراسات نفسية عن المنطق الأولى** » ، وأيضا « **الصراع بين النفسيين والصوريين فى المنطق الحديث** » كما كتب عدة بحوث عن تاريخ المنطق ، ولكن هذه المحاولات الجزئية كلها انصبت أخيرا فى عمله الضخم « **بحوث منطقية** » بأجزائه الثلاثة ، الذى صدر سنة ١٩٠١/١٩٠٢ يهاجم فى الجزء الأول منه « **مقدمة فى المنطق الخالص** » الاتجاه النفسى فى المنطق ، ويقدم فى الجزئين التاليين بحوثا ستة ينتهى منها فى المبحث السادس من المنطق الى الفينومينولوجيا • أى أن هوسرل قد غير اتجاهه الأول النفسى فى « **فلسفة الحساب** » ووقف موقف المعارضة منه واعتبره اتجاه ماديا ، نسبيا ، أنثربولوجيا (اردمان ، سيجوارت) ، تطوريا (فرارو) ووقوعا فى الشك وانكار لقوانين الفكر • لقد اعتبر الاتجاه النفسى فى المنطق قوانين الفكر مثل قانون التناقض وقانون الهوية قوانين طبيعية أو وظيفية دون أن يكون لها اى أساس فكرى أو منطقى ، بل مجرد بعض الصور التركيبية للفكر • ولقد أراد المنطق الانثربولوجى الوصول الى الموضوعية ولكنه انتهى الى الخلط بين المثالى والواقعى ، بين أساس الحقيقة وأساس الحكم ، بين حقيقة العقل وحقيقة الواقعة •

٣ ـ وقد حلل هوسرل مرات عديدة المنطق الرياضى عند

بولزانو Bolzano (١٧٨١ـ١٨٤٨) **فى نظرية العلم** » كما ناقش « **نظرية الفكر** » **عند ميمل** Memmel، هذا المنطق لم يستطع بعد أن يشق طريق الفينومينولوجيا لأنه لم يستطع البحث عن الماهية بالحدس القبلى واقامة الفلسفة وعلم النفس على معرفة الماهية · ان غياب « **حدس الماهيات** » فى المنطق الرياضى جعله مجرد منطق خالص للتمثلات كما هو الحال فى علم النفس ، أو جعله صوريا خالصا كما هو الحال فى الرياضة · لقد خلط المنطق الرياضى بين المنطق والرياضة صحيح أنه قدم لنا نظرية جديدة فى نقد العقل ، ولكنه لم يعطنا تقييما لها ، لذلك أتت الفينومينولوجيا لتطوير هذه النظرية وبيان امكانياتها ، وتوضيح ماغمض منها واكمال ما نقص فيها ونقلها من المستوى الرياضى والمنطقى الى المستوى الفينومينولوجى · **ان التحليل النظرى للتصورات خطوة حاسمة نحو** الفينومينولوجيا ولكن المنطق الرياضى من حيث هو « **نظرية فى العلم** » نظرية رياضية ينقصها نظرية فى المعرفة ونظرية فى المنطق ، **ولقد أتت الفينومينولوجيا وقامت بدور حاسم فى تطوير المنطق الرياضى ونقله من علم للصور المنطقية الى علم للانطولوجيا الصورية العامة** ·

وقد تناول هوسرل أيضا المنطق الفلسفى عند لوتزه Lotze (١٨١٧ ـ ١٨٨١) بالتحليل وبين أن الحس الجذرى بالمبادىء ينقصه ، اذ انه لم يستطع النفاذ الى الأسس النظرية للأفكار ولم يستطع توضيح المشكلات المتشعبة منه · لقد كان جل همه محاولة التوفيق بين الذهن والعاطفة دون القيام ببحث جذرى حاسم فى الموضوع · لم يستطع لوتزه فى تفسيره الرائع لنظرية المثل أن يستخلص كل امكانياتها ، وظلت نظرية المعرفة لديه مليئة بالتناقض ، ولم تتجاوز الفينومينولوجيا على يديه اقامة بعض العلاقات القبلية بين المضامين الحسية دون أن يعرف التصور الحقيقى لحدس الماهيات ، أو مقياسا مطلقا للحقيقة ، لذلك ظل تصوره القبلى لا قيمة له ، **وقد استطاعت الفينومينولوجيا وحدها اعطاء نظرية عامة للشعور من حيث هو مضمون وبناء للأشياء** ·

وهكذا من مشاكل الصلة بين المنطق والرياضة وعلم النفس بدأت الفينومينولوجيا شق طريقها الخاص ·

٤ ـ ولما كانت الفينومينولوجيا تشق طريقها نحو الشعور تقابلت مع « **فلسفة الحياة أو فلسفة تصورات العالم عند دلتاى** (١٨٣٣ ـ ١٩١١) التى كانت تحاول قبلها حل أزمة العلوم الانسانية ، فاعتبرت ميدانها **عالم الحياة** ، وهو العالم الذى نظرته الفينومينولوجيا ، كما فرقت **بين علوم الانسان وعلوم الطبيعة** وهى التفرقة التى سماها هوسرل فيما بعد بالتفرقة بين **علوم الماهيات وعلوم الوقائع** · ولكن هوسرل رفض هذه الفلسفة بعد ذلك واعتبر أنها لم تتجاوز **المذهب التاريخى** ، وانها كانت أسيرة « روح العصر » الذى تصور هيجل أن الفلسفة تعبير عنه ، وبالتالى فهى مازالت مشوبة بالوقائع المادية ولم تصل بعد الى « علم الماهيات » · إنها مازالت علما نسبيا ولم تتخلص بعد من الشك فى الحصول على المطلق الدائم ، وقد انتهت أخيرا الى الوقوع فى الاتجاه الطبيعى وأصبحت اتجاها نسبيا · صحيح أنها حاولت وضع نقد للعقل التاريخى ، هذا العقل الذى أهمله كانط وفى نفس الوقت وضع أسس لعلم نفس جديد خالص مناهض لعلم النفس الطبيعى ، ولكنها لم تستطع أن تقيم نظرية علمية محكمة وأن تضبط المشاكل وأن تحلها بطريقة منهجية ، ينقصها اذن التنظير العقلى المجرد للتجربة الباطنية ، كما ينقصها التحليل المنطقى والرياضى · لقد التجأت فلسفة الحياة الى الحدس العيانى ولكنها ظلت أسيرة الجزئى والفردى دون أن تضعه فى علم رياضى شامل وموضوعى · لقد اعتنت فلسفة الحياة بالتطور والارتقاء أكثر مما اعتنت بالبناء فجاءت الفينومينولوجيا لتعتنى بالبناء أكثر مما تعنى بالتطور · وبهذا المعنى **تصبح الفلسفة علما محكما** كما يقول هوسرل فى مقاله المشهور الذى يعد فاتحة للعلم الجديد « **الفلسفة بوصفها علما محكما** » سنة ١٩١١ ، أى علما نظريا خالصا تخلص من الاتجاه الطبيعى السائد فى المذاهب التجريبية المتعلقة بعلوم الانسان أو من الاتجاه النسبى الشكى السائد فى فلسفة تصورات العالم ، وتصبح الفينومينولوجيا مرادفة لهذا العلم المحكم الباحث عن المطلق ·

٥ ـ كما عرض هوسرل ، قبل اعلان محاولته لحل أزمة العلوم الانسانية لبرنتانو (١٨٣٨ ـ ١٩١٧) الذى حاول من قبل وضع أسس **العلم النفس الوضعى** يفرق فيه بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية حتى يحل أزمة علم النفس التجريبى ويقضى على سيادة الاتجاه الطبيعى فى العلوم الانسانية كما فعل هوسرل بعد · لقد وصف برنتانو لأول مرة بناء الشعور على أنه **قصد متبادل** ، وفتح بذلك آفاقا جديدة فى علم النفس خاصة فى ميدان العواطف والرغبات ، حتى أن **الفينومنيولوجيا فى بدئها كانت علم نفس وصفى** قبل أن تستقل كعلم خاص · لقد رفض علم النفس الوصفى من قبل علم النفس الذى يقوم على تتبع نشأة الظواهر النفسية فى مظاهرها المادية محاولا ايجاد علل مادية وارتباطات حسيه بينها ، ولجا الى تحليل الظواهر الباطنه ، ولكنه ـ فى رأى هوسرل ـ لم يستطع أن يتخلص من شوائب الاتجاه الطبيعى ، وظلت التجربة مادية لا خالصة ، ولم يكن علم النفس الوصفى حدسا للماهيات المستقلة ، ولم يستطع العثور على مفاهيم ملائمة يعبر من خلالها عن مضامينه الجديدة ·

لقد ظل بالفعل قاصرا عن التفرقة بين الادراك الداخلى والادراك الخارجى ، أى بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية بعد أن صنف كثيرا من الظواهر النفسية على أنها فيزيقية وكثيرا من الظواهر الفيزيقية على أنها نفسية ، لذلك اقترحت الفينومنولوجيا بعد ذلك تصنيف الاشياء في مقولات مختلفة كامكانات خالصة للشعور مرتبطة بنظرية الكثرة فى الرياضة دون الاكتفاء بتصنيف علم النفس الوصفى للظواهر النفسية الى تمثلات واحكام وعواطف وانفعالات أى ان علم النفس وحده

لا يكفي دون الأنا الترنسندنتالى ، **ينتقص علم النفس الوصفى** اذن نظرية فى المعرفة تعطيه أساسه النظرى حتى يصبح تحليلا للماهيات ، اى أنه لم يمارس « **تعليق الحكم** » الذى كان فى امكانه تخليصه من رواسب الاتجاه المادى كما أنه ينقصه مشاكل البناء نظرا لغياب المنطق الخالص . صحيح أن علم النفس الوصفى قام بتحليل الجانب اللغوى من التجارب الحية ولكنه لم يضم معه الجانب المنطقي الذى استطاعت الفينومينولوجيا تحليله . لقد حاول علم النفس الوصفى وضع الظواهر النفسية فى عدة مجموعات دون أن يعطى كل ظاهرة استقلالها الخاص وماهيته المستقلة . خلاصة القول أن **كل أوجه النقد التى وجهها علم النفس الوصفى الى علم النفس التجريبى وجهتها الفينومينولوجيا بدورها الى علم النفس الوصفى :** بقايا الاتجاه الطبيعى ، عدم فاعلية نقد الاتجاه التجريبى ، بقايا الاتجاه التجريبى فى علم النفس ، غياب علم النفس كفلسفة وصفية خالصة ، غياب الفلسفة الترنسندنتالية ، اهمال الأسس النظرية للذاتية ، عدم التعرف على المعنى الحقيقى للقصد المتبادل ، العجز عن تحقيق مشروع الفلسفة الحديثة ، أعنى اقامة علم الذاتية الترنسندنتالية ، اى أن **عيـوب علم النفس الوصـفى جعلته قاصرا عن ان يصـير فينومينولوجيا .**

٦ ـ ولقد حاول **علم النفس النظرى** الذى وضع شتومف أسسه حل مشاكل العلوم الانسانية خاصة علم النفس ونقد الاتجاهات الصورية والنفسية والطبيعية والنسبية والشكية كما فعلت الفينومينولوجيا بعد ذلك ، فرق شتومف بين «الوظيفة» Function و «المظهر» appearance فى علم النفس ، وهى التفرقة التى تبناها هوسرل فى تفرقته بين « **الفعل** » و« **المضـامين الأولية** » . لقد أعطى علم النفس النظرى للفينومينولوجيا تحليل مضامين الشعور واستعار منه هوسرل تفرقته بين **المضمون المستقل والمضمون غير المستقل** فى تفرقته بين المضمون الحسى والمضمون المجرد كما تابع هوسرل شتومف فى فكرته عن اتحاد الصفات الحسية فى كل واحد ، وهو ما سماه هوسرل **اتصال الظواهر النفسية** ، كما استخدم هوسرل فكرته عن « التمثل العام » من حيث هو اقتصاد فى الفكر فى اقامته نظريته عن « **الوحدة المثالية للنوع** » . لقد استطاع علم النفس النظرى وقف تيار علم النفس التجريبى واقامة نظرية فى المعرفة مستقلة عن علم النفس ، ولا غرو فقد أهدى هوسرل كتابه « بحوث منطقية » الى شتومف عرفانا منه بأنه الوحيد تقريبا الذى استطاع تصور الفينومينولوجيا قبل أن يضع فيها هوسرل اللمسات الأخيرة .

واخيرا استطاعت الفينومينولوجيا شق طريقها وسط المنطق وعلم النفس فى طريق ثالث جهله الجميع حتى ذلك الحين وهو طريق الشعور ، وبذلك استطاع علم النفس أن يتخلى عن ماديته كما استطاع المنطق أن يقضى على صوريته . أصبح علم النفس مادة للشعور والمنطق صورة له .

وقد حاول هوسرل فى أعماله المنطقية الانتقال من المنطق النفسى الى الفينومينولوجيا وذلك فى « **بحوث منطقية** » ١٩٠١/١٩٠٢ ، ورفع المنطق المادى الى عالم الشعور وتحويل مضمونه النفسى الى تجربة حية فى الشعور . لقد كان الهدف منه رفع المنطق من مجرد احساسات نفسية (**مل**) أو تكوينات بيولوجية (**سبنسر**) أو ترسبات أنثربولوجية (**سيجوارت ، اردمان**) الى منطق للشعور تصبح فيه المادة تجربة حية . لقد وجه هوسرل فى الجزء الأول منه « **مقدمات فى المنطق الخالص** » أعنف نقد وجهه فى العصر الحديث للاتجاه النفسى فى المنطق وحول المنطق الى علم معيارى نظرى أو « **نظرية فى العلم** » أو « **علم العلم** » ، وذلك لأن نقص العلوم الجزئية يرجع أساسا الى نقص جذرى فى بنائها النظرى أى فى التصور العام للمنطق ، ولا تستطيع العلوم الجزئية تكملة هذا النقص الا بارجاع أسسها النظرية الى الميتافيزيقا المعرفة ، أى الى المنطق الخالص ، **فالمنطق فى الحقيقة هو المعرفة نفسها** . المنطق اذن علم نظرى قبل أن يكون علما معياريا وظيفته وضع القواعد ، وقبل أن يكون علما عمليا وظيفته تطبيق هذه القواعد فى العلوم الجزئية . لقد أراد الاتجاه النفسى فى المنطق جعل المنطق فرعا من علم النفس أو اعتباره فيزيقا الفكر (**سبنسر**) وتصبح قوانين الفكر قوانين بيولوجية محضة فلا فرق بين الأشكال المنطقية والمعادلات الكيميائية . يرفض هوسرل ذلك كله ويجعله خلطا بين المادة والصورة ، أو وقوعا فى الشك أو فى النسبية كما يرفض اعتباره اقتصادا فى الفكر (**ماخ ، افيناريوس**) .

وفى البحوث الست التالية حاول هوسرل بناء أهم المشاكل المنطقية فدرس الصلة بين « **التعبير** » **والدلالة** ، وفرق بين **العلامة والمعنى** ، وجعل المعنى مستقلا عن علامته واعتبره وحدة مثالية بالرغم من تغير معانى الكلمات طبقا لأفعال الشعور المعطية لهذا المعنى (المبحث الأول) . ثم رفض هوسرل **النظريات الحديثة فى التجريد** ، أعنى نظريات **مل وسبنسر وهيوم ولوك** التى تعتبر النوع المنطقى مجرد ارتباطات حسية ، والتى تنكر وجود الموضوعات العامة المستقلة عن ارتباطاتها الحسية ونشأتها فى الوقائع الجزئية ، بل ولا يرضى هوسرل عن نظرية **بركل** فى التمثل ويعتبرها أيضا قضاء على وجود الموضوعات المثالية (المبحث الثانى) . ثم فصل هوسرل فى مشكلة **الكل والجزء** ، واعتبر الكل سابقا على أجزائه ومستقلا عنها فى حين أن الجزء غير مستقل ويعتمد على الكل الذى هو موجود فيه ، أى أنه يأخذ بوجهة نظر مماثلة لوجهة نظر **كافكا فى علم النفس الجشطلتى وبرجسـون** فى رؤيته للظواهر الحيوية **وليفى ستراوس** فى البنائية (المبحث الثالث) . ثم فرق هوسرل بين **المدلولات المستقلة والمدلولات غير المستقلة**، ووضع للمعانى المستقلة منطقا خالصا للمعانى فى (المبحث الرابع) ، ثم انتهى هوسرل **الى المنطق الشعورى الذى يقتصر على تحليل التجارب الحية ومضامينها** ، فالشعور فى نفس

الوقت هو الأنا الخالصة والادراك الباطنى ، لذلك **كانت التجربة الحية قصدا متبادلا** يضم الأنا الخالصة ومضمونها معا ، وأصبحت وظيفة الحكم هى وضع مادة أفعال الشعور فى تمثلات تقوم هى نفسها بوضع أسس له ، اذ يقوم التمثل باعطاء وحدة كيفية لأفعال الشعور (المبحث الخامس) . وأخيرا ينتهى هوسرل الى **تحويل المنطق الى فينومينولوجيا** ويحلل القصد المتبادل ويبين طرق ملئه ، وتصبح المعرفة هى عملية هذا الملء ، وتكون درجات المعرفة طبقا لدرجات هذا الملء ، وهى عملية تحويل الاحساس الى ذهن (المبحث السادس) .

ثم حاول هوسرل مرة ثانية – وذلك بعد بناء الفينومينولوجيا فى الجزء الأول من « الأفكار » سنة ١٩١٣ – اعادة بناء المنطق الصورى وتحويله الى فينومينولوجيا فى **المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى سنة ١٩٢٩** وانزال المنطق الصورى الى عالم الشعور وتحويل الصور العقلية الخالصة الى قوالب للشعور تكون مناطق فيه يمكن تحويلها بعد ذلك الى علم للانطولوجيا العامة . حول هوسرل منطق القضايا الى رياضة صورية **(من ارسطو الى ليبنتز وبولزانو)** ثم حول الرياضة الصورية الى نظرية الكثرة (**ريمان**) . لقد كان للمنطق الصورى القديم والجديد جانبان : القضايا والانطولوجيا ، ثم انتقل المنطق من المجال الصورى الموضوعى الى المجال الترنسندنتالى ، **أى من ارسطو وريمان الى ديكارت وبرنتانو** ، وبدلا من تحليل القضايا أو الصور الرياضية يتم تحليل الشعور الذى يقوم باجراء الأحكام ويتحول المنطق الموضوعى الى فينوفينولوجيا للعقل .

وأخيرا حاول هوسرل للمرة الثالثة التوحيد بين المنطق وعلم النفس فى « **التجربة والحكم** » الذى ظهر سنة ١٩٣٨ والذى يرجع عنوانه الى مخطوط لسنة ١٩٢٩ ، يدرس فيه هوسرل للمرة الأخيرة **التجارب السابقة على الأحكام** ، ويصف بناء الشعور من حيث هو قصد متبادل ، التجربة الحية مضمونه ، والصورة الخالصة قالبه . **أى أن هوسرل بعد أن رفع المنطق من المادة الى الصورة فى المرة الأولى وانزل المنطق من الصورة الى المادة فى المرة الثانية حاول ان يشق الطريق الثالث بالدخول فى أعماق الشعور** ، أولا فى محاولة بناء التجربة السابقة على الحكم ، أو التجربة من حيث هى استقبال محض للعالم الخارجى ، يمكن ادراكها ادراكا مباشرا بالحدس أو بعد الايضاح ، ثم ادراك علاقاتها وأسسها ، ثانيا فى محاولة بناء الفكر الحملى وموضوعات الذهن ، وذلك بمعرفة البناء العام للحمل ، ونشأة أشكال المقولات ، ونشأة الموضوعات ودالات الأحكام ، ثالثا فى بناء الموضوعات على وجه العموم وأشكال الأحكام العامة وذلك ببناء العموميات التجريبية من أجل الحصول على العموميات الخالصة عن طريق الرؤية الحدسية للماهيات . **وبذلك حاول هوسرل شق طريق ثالث ليحل الأزمتين فى العلوم الانسانية ، ازمة الصورية وازمة المادية .**

ثالثا – خطوات المنهج الفينومينولوجى :

لم يكتف هوسرل بوضع الفينومينولوجيا كعلم بل حاول صياغتها كمنهج للعلوم الانسانية مكون من خطوات ثلاث : **تعليق الحكم ، والبناء والايضاح** Eclaircissement (١) ويكتفى الدارسون عادة بذكر الخطوتين الأوليين دون الثالثة مع أنها هى الخطوة الوحيدة الذى يظهر فيها لفظ فى تعبير هوسرل Klärungs méthode **فالمنهج الفينومينولوجى هو فى حقيقته منهج للايضاح وما الخطوتان الأوليان الا مقدمة للخطوة الثالثة** أو مجرد « أفكار موجهة » دون أن يتم صياغتها فى قواعد للمنهج كما هو الحال عند ديكارت فى «مقال فى المنهج» أو «قواعد لهداية الذهن» ، بل ان الفينومينولوجيا كانت فى مرحلة الجزئين الأول والثامن من «الأفكار» أقرب الى الفلسفة منها الى المنهج ولم يتم صياغتها فى منهج الا فى الجزء الثالث .

١ – تعليق الحكم : يعنى « تعليق الحكم » عند هوسرل **وضع العالم بين قوسين** أو وضعه خارج الميدان ، ويعنى بذلك عدم الحديث عن الظاهرة المادية وازاحتها جانبا ، **واخراجها من موضع الاهتمام** ، وعدم التعرض لها ، أو اصدار حكم عليها . ويرمى هوسرل من ذلك الى **القضاء على الاتجاه الطبيعى** بكل مظاهره المادية **من نفسية ووضعية وانثربولوجية وبيولوجية** وذلك بالتفرقة بين « **علم الماهيات** » الذى يأخذ الماهية موضوعا له ، « **وعلم الوقائع** » الذى يأخذ الواقعة موضوعا له . لقد اعتبرت العلوم الانسانية التى اتخذت العلوم الطبيعية نموذجا لها **الظاهرة الانسانية** على أنها واقعة مادية مع أنها فى الحقيقة ماهية خالصة . كما يفرق هوسرل **بين التعالى** trancendence **والمباطنة** ، ويقصد بالتعالى الظاهرة التجريبية المحضة التى تتعدى الشعور وتتجاوز التجربة الحية ، وهو معنى غريب تماما عما عرف به التعالى عند كانط مثلا من أنه ما يتجاوز حدود التجربة ، أو عند الوجوديين من تعالى الذات على نفسها واحساسهما بانها تتجاوز حدود الموضوع . فالظاهرة المتعالية يجب تعليق الحكم عليها لأنها ظاهرة مادية ، خالية من كل معنى ، ظاهرة مصمتة ، لا تصبح دالة الا بعد حلولها فى الشعور كتجربة حية . أما « **المباطنة** » فانه يعنى ببساطة المحايثة أو وجود الظاهرة كتجربة حية فى الشعور حتى يمكن بناؤها بعد القضاء عليها كظاهرة متعالية . أى أن هوسرل يعنى بلفظ « **المباطنة** » ما عناه كانط من قبل بلفظ « ترنسندنتال » ولكن هوسرل كشف عن مضمونه صراحة ورفض كل كلمة فيها مقطع الذى يدل على التعالى والتجاوز والمفارقة حتى لايحدث التباس

---

(١) تعليق الحكم هو موضوع الجزء الأول من الأفكار « مقدمة عامة فى الفينومينولوجيا الخالصة » سنة ١٩١٣ والبناء موضوع الجزء الثانى « بحوث فينومينولوجية البناء » سنة ١٩٢٤/٢٥ ، والايضاح موضوع الجزء الثالث « الفينومينولوجيا والعلوم الأساسية » ١٩٢٤/٢٥ .

بين «ترنسندانس» ، «ترنسندنتال» كما حدث فى حياة كانط . وقد خصص هوسرل محاضرات خمس سنة ١٩٠٧ لهذه التفرقة فى كتابه « **فكرة الفينومينولوجيا** » .

ويعنى تعليق الحكم ثانيا «قلب النظرة Blick-wendung » من الخارج الى الداخل ورفض رؤية الظواهر فى المكان بل رؤيتها فى الزمان ، خاصة وأن الفينومينولوجيا قد نشأت أساسا كتحليل للشعور الداخلى بالزمان ، كما فعل هوسرل فى محاضراته عن « **فينومينولوجيا الشعور الداخلى بالزمان** » سنة ١٩٠٥ ، فالشعور لديه يتكون فى ثلاث أبعاد للزمان : **التوتر** tension ، **والاستدعاء** retention ، **والانتظار** protention ، أى أن الزمان على مايقول **برجسون** مفتوح نحو الماضى فيتم ظهور الحاجز فيه ، ونحو المستقبل فالحاضر هو مستقبل المستقبل ، وهى الأبعاد الثلاثة التى أطلق عليها **هيدجر** لفظ extase ستعمل هوسرل كثيرا المقطع ur الذى يدل على الأصل والنشأة لبيان نشأة الظواهر فى الشعور الداخلى بالزمان ، وفى هذا المعنى تحدث هوسرل عن « **أصل العالم** Der Ursprung der Welt فى بحث مازال مخطوطا ليبين فيه نشأة العالم فى الشعور لا كما يوحى العنوان من انه حديث عن نشأة الكون كما هو الحال فى علم الجغرافيا الطبيعية والكونية .

ولا يعنى « تعليق على الحكم » الايمان بوجود « شىء فى ذاته » لا يمكن الحديث عنه أو معرفته كما هو الحال عند كانط ، لأن الفينومينولوجيا هى « عود الى الأشياء ذاتها » ، أى أن هوسرل بهذا المعنى أحد الفلاسفة التالين لكانط مع **فشته وهيجل وشلنج وشوبنهور** الذين رفضوا « الشيء فى ذاته » الذى لا يمكن معرفته الا بالايمان ، وحاولوا معرفته بنظرية فى العلم كما هو الحال عند فشته ، أو بالجدل كما نجد عند هيجل ، أو بوحدة الروح والطبيعة على طريقة شلنج ، أو من خلال الارادة كما تصور شوبنهور . لقد قضى هوسرل مثلهم على هذا التعارض بين الظاهرة موضوع العقل النظرى « والشىء فى ذاته » موضوع العقل العملى وذلك باعتباره هذا الظاهر « ظاهرة » ووضعها فى الشعور حتى تصبح مرادفة للشىء نفسه .

وقد قيل كثيرا عن أوجه الشبه بين « تعليق الحكم » عند هوسرل **والشك** عند ديكارت ، فكلاهما خطوة منهجية يتم فيها القضاء على الأوهام والمعتقدات الساذجة والأحكام السابقة والأخطاء الشائعة حتى يمكن بعدها فى الخطوة التالية وهى البناء عند هوسرل ، أو تطبيق قواعد المنهج الأربع عند ديكارت ، القيام بالخطوة الايجابية فى المنهج والتى يتم فيها الوصول الى اليقين . كما قيل أيضا عن أوجه الشبه بين **تعليق الحكم** عند هوسرل **ونقد العقل النظرى** عند كانط من ان كليهما مجرد تمهيد لما سيتلو من بناء عند هوسرل واقامة قواعد الايمان عند كانط . كما قيل أيضا ان تعليق الحكم عند هيجل الذى يعنى aufhen يعنى المعنى الأول لفعل « هدم » أو « قضى على » لأنه قضاء على الاتجاه الطبيعى ، وأن الخطوة الثانية وهى **البناء** تفيد المعنى الثانى لهذا الفعل وهو « يبنى » أو « يرفع » أو « يسترد » .

البنـــاء :

٢ ـ بعد « تعليق الحكم » يأتى « **البناء** » كخطوة ثانية حيث يظهر الشعور **كقصد متبادل** مكون من **قالب** noese **ومضمون** noeme ، الأول يمثل **الجانب النظرى أو العقل** فى الأنا الخالصة وهو ما عبر عنه ديكارت باسم الأنا المفكرة أو ما سماه كانط الأنا الترنسندنتالية ، أى أنه يمثل الذات التقليدية فى نظرية المعرفة ، والثانى يمثل **الموضوع** وهو الذى جعله ديكارت حركه وامتدادا ، والذى اعتبره كانط مجرد ظاهرة أو حدس حسى ، وهو عند هوسرل مضمون الشعور ليقضى على الاتجاه الطبيعى الذى يجعله مستقلا عن الذات العارفة ، وكذلك ليقضى على الاتجاه الحسى عند هيوم الذى يجعله مجرد انطباعات حسية . **يرى هوسرل اذن أن الشعور هو ذات وموضوع معا ، وبذلك ينتهى هذا التعارض التقليدى بين الذات والموضوع ، كما ينتهى هذا الصراع التاريخى بين** المثالية التى تعطى الأولوية **للذات على حساب الموضوع وبين الواقعية** التى تعطى الأولية **للموضوع على حساب الذات** . يصبح الذات والموضوع عند **هوسرل وجهين لشىء واحد وهو الشعور** الذى هو ذات عارفة **وموضوع للمعرفة ، وتكون مهمة الفينومينولوجيا** تحليل **الشعور أى تحليل القصد المتبادل** والذى **يكون** فى نفس الوقت **تحليلا للمعرفة والوجود فى آن** واحد . هذه الوحدة بين **الذات والموضوع ، أو بين المعرفة والوجود** ، أو بين الصورة **والمادة ، أو بين المثالى والواقعى ،** هى التى جعلت الفينومينولوجيا **فى النهاية أقرب الى وحدة الوجود الصوفية التى يتم فيها الوحدة بين الله والعالم . اى بين الحقيقة والواقع** ، وبذلك ينتهى هوسرل الى مشروع **ليبنتز** فى اقامة رياضة شاملة أو انطولوجيا عامة يتم فيها التوحيد بين الواقع والممكن أو بين العقل والوجود . وبهذا المعنى تكون الفينومينولوجيا تعبيرا عن الفكر المعاصر الذى لا يود اعتبار الموضوع شيئا بلا علاقة كما هو الحال فى منطق العلاقات عند **رسل** أو فى بناء العلاقات عند **ليفى شتراوس** أو فى اعتبار الموضوع على أنه متضايف مع corrélate للشعور ، فالشعور يتميز بانه « **يتجه نحو** s'onen ta vers أو « **ينطلق نحو** s'éclute vers **أو** « **يمتد نحو** se tend vers

ويضع هوسرل وهو بصدد **نظريته فى الحدس** ليعيد بها بناء نظرية الادراك الحسى perception التقليدية ، فالحدس لديه ادراك مباشر كما هو الحال عند الحدسيين ، ولكنه يقوم على رؤية مزدوجة يسميها نظرية « الشعاع المزدوج » يتم فيها توجيه شعاع من الذات نحو الموضوع أى من قالب الشعور الى مضمون الشعور ، وتوجيه شعاع ثان من الموضوع نحو الذات أى من مضمون الشعور الى قالب الشعور ، وبدون

هذا الشعاع المزدوج لا يصبح الادراك ممكنا ، أى **أن الانتباه** attention ، على مايقول **مين دى بيران** ، هو شرط الاحساس وأنه لا يمكن للحواس أن تقوم بوظيفتها فى الادراك الحسى الا بفعل الانتباه ، فالادراك الحسى دون انتباه لا يتعدى أن يكون مجرد انطباع حسى impression يحوله فعل الانتباه الى ادراك حسى بالفعل perception

وتمتد عملية البناء الى جميع أحوال الشعور والظواهر النفسية مثل التذكر والتخيل والتصور فكل ذلك يمكن تحليله فى القصد المتبادل كما فعل **سارتر فى** دراستيه عن « **الخيال** » ثم « **الخيالى** » ، ولذلك انتهت الفينومينولوجيا الى الاغراق فى **تحليل عمليات الابداع الفنى** وأصبحت العلم الذى « **يفسر** » و « **يفهم** » الظواهر النفسية ، يفسر النشأة ويفهم الماهية .

والشعور عند هوسرل نوعان : الشعور المحايد la conscience neutre **والشعور الواضع** la conscience positionnelle ، فالأول مجرد شعور لم يبدأ بعملية تحليل القصد المتبادل بعد ، والثانى شعور بدء هذا التحليل للظواهر المعرفية أو العملية والارادية أى الظواهر التى تتعلق بالرغبات والميول . ويكون **لمضمون الشعور** noême **انماط خمسة** يسميها هوسرل **انماط الوجود** les modes d'être وهى : **الواقعى** réel ، الممكن possible ، المحتمل vraisemblable ، المشكل problematique والمشكوك فيه douteux وذلك فى مقابل **انماط** خمسة **لقالب الشعور** noèse يسميها هوسرل **انماط الاعتقاد** Les modes de croyance **وهى** : اليقين certitude ، والافتراض supputation ، والظن conjection ، والاشكال question ، والشك Donte

ويتم البناء فى موضوعات ثلاثة بينها هوسرل فى الجزء الثانى من « الأفكار » وهى : **بناء الطبيعة المادية** ، ثم بناء **الطبيعة الحية** ، ثم **بناء عالم الروح** ، أى أن الواقع عند هوسرل مكون من ثلاث دوائر متداخلة : **المادة** الدائرة الكبرى ، **والحياة** الدائرة الوسطى ، **والروح** الدائرة الصغرى . وكل دائرة مكونة من مراتب ثلاث : فالطبيعة المادية تبدأ بالطبيعة العامة، تتلوها منطقة الأشياء التى تخضع للادراك الحسى ، تتلوها حاسية البدن ككل . أما الطبيعة الحية فتبدأ أيضا بالطبيعة الحية العامة ، تتلوها الطبيعة الحية من خلال البدن ، تتلوها الطبيعة الحية من خلال الاستبطان . وفى هذه الأخيرة تظهر الذات الخالصة . أما عالم الروح فانه يتكون أولا بالتعارض بين العالم الطبيعى والعالم الشخصى وذلك بفعل تعليق الحكم، ثم يتلو ذلك ظهور البواعث فى العالم الشخصى ، وأخيرا تظهر أولوية العالم الطبيعى . وينتهى من ذلك الى أن العقل والواقع ، أو الشعور والواقعة الطبيعية يكشفان عن هذه الدوائر الثلاثة المتداخلة ذات المركز الواحد : **الذات الخالصة، الآخرون ، عالم الأشياء** ، وهو ما عبر عنه الوجوديون بعد ذلك ــ **سارتر** ، **هيدجر** ، **ميرلوبونتى** ــ باسم « **الوجود فى العالم** » أى أن الذات مركز عالمين : عالم الانسان وعالم الأشياء ، وبذلك وضع هوسرل أسس اقامة علم للاجتماع الفينومينولوجى لدراسة الآخر وعلم للوجود لدراسة الشيء .

٣ ــ **منهج الايضاح** : وبعد اكتشاف البناء لهذه المناطق الثلاث تأتى الخطوة الثالثة أعنى **منهج الايضاح** مهمته توضيح **الصلة بين الفينومينولوجيا والانطولوجيا** ، وكذلك **الصلة بين الفينومينولوجيا وعلم النفس** ، وذلك لوجود ثلاث مناطق متداخله : **النفس** ، **والبدن** ، **والشيء** ، فالنفس موضوع الفينومينولوجيا والبدن موضوع علم النفس ، والشيء موضوع الأنطولوجيا ، وهى المناطق الثلاث التى عرضها هوسرل فى نظرية البناء : فالفينومينولوجيا علم لمنطقة الشعور الخالص ، وعلم النفس ينحصر فى منطقة الموجودات الحية ، والانطولوجيا يصدق على عالم الأشياء . مهمة منهج الايضاح هو تحديد الصلة بين هذه المناطق الثلاث وتحديد الصلة بين العلوم الانسانية المطابقة لها وذلك عن طريق البحث عن الوضوح الحدسى أو عن طريق التحليلات اللغوية للتصورات مثل : التصور المنطقى الصورى ، التصور المنطقى (من منطقة) الشعورى regional ، والتصور المادى وهو ما يقابل أنواع المنطق الثلاثة التى حددها هوسرل فى المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى » : علم الصور العامة الخالصة morphologie pure منطق الاتساق ، منطق الحقيقة .

ويفرق هوسرل بين أنواع عديدة من **الايضاح** ، **التوضيح** eclaircissement clarification ، **السبر أو الكشف** élucidation ، **ثم الشرح** explication ، فالايضاح يتم فى اللغة وذلك بالتمييز بين الألفاظ المحكمة والألفاظ المتشابهة، على ما يقول الأصوليون ، فى حين أن التوضيح يتم بين الأشياء . أما السبر أو الكشف فيتم فى الشعور مهمته استكشاف مناطقه الذى يؤدى فى النهاية الى الشرح والبيان، واخراج مضمونه الى حيز الرؤية الواضحة .

ومنهج الايضاح فى جوهره هو **منهج للتمييز** ، **والتمييز هو روح العلم** ، أى أنه منهج يقوم أساسا على منع الوقوع فى الخلط ، وان تاريخ العلم ليثبت أن تقدمه كان مرهونا برفع الخلط والتمييز بين مستويين مختلفين من حيث الدرجة أو من حيث النوع ، كما حدث فى علم النفس التجريبى فى الخلط بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية ، أو فى العلوم الانسانية التى اتخذت العلوم الطبيعية نموذجا لها ، بين الواقعة والماهية ، بين الواقعة الطبيعية والشعور ، بين الواقع والعقل ، وفى بعض الأحيان **يتم التمييز بين مستويات ثلاثة** مثل : الطبيعة المادية ، الطبيعة الحية ، عالم الروح كما هو واضح فى البناء ، أو فى ايضاح التصورات مثل : التصور الصورى ، التصور المنطقى régional (نسبة الى منطقة لا الى منطق) والتصور المادى ، الأول منفصل عن المادة تماما ، والثانى مرتبط بالمادة ، والثالث مادى محض ، الأول موضوع الانطولوجيا ، والثانى الفينومينولوجيا ، والثالث علم النفس . **مهمة منهج الايضاح هى ايضاح العلوم**

الدجماتيقية التى تختلط فيها الغريزة بالحدس ، أو التصور الشعبى بالتصور النظرى ، أو التى تجمع بين الظن واليقين ، وهو موجه أساسا **ضد تحيز العلوم التجريبية لطرف واحد** unilatérolité دون الطرف الآخر – ومن ثم فهو **يقوم باعادة الطرف الآخر ويقيم التوازن فى الظاهرة ، يقوم بالتعميم ضد التخصص ، والرفع ضد السقوط ، والتوسع ضد قصر النظر وضيق الأفق حتى يعيد بناء المثالى . يقوم بقلب النظرة فى مقابل القلب الحادث فى العلوم الطبيعية . فقلب القلب عود الى الوضع الصحيح ، وهو عود الى الأصل** originaire **والأولى** primaire **فى مقابل التابع والثانوى فى العلوم الطبيعية . الايضاح اذن هو السبيل لاقامة نظرية فى الوضوح ، وهو الذى يسمح بحدس الماهيات أى حدس العموميات الخالصة ،** فلا حدس دون وضوح وهو ماوضحه **برنتانو** من قبل فى كتابه « **الحدس والوضوح** Einsicht und Evidence » .

الايضاح هو الحل النهائى لازمة العلوم الانسانية التى تقوم أساسا على الخلط بين المستويات **أو على المزج** بينها ، أو على **التوحيد بين مستويين** أو على **وضعهما متوازيين على نفس المستوى** أو على **تماثلهما** analogie أو على **رد احدهما الى الآخر** reduction أو على **قلب أحدهما مكان الآخر** conversion renversement أو على استبدال **احدهما بالآخر** substitution . يقوم الايضاح اذن بعدل الظاهرة وارجاع المستويات ولذلك كان الايضاح **منهجا للمرور** méthode de passage من مستوى للآخر ، من الصورى الى **الترنسندنتالى** ، من المادى الى الشعورى . **فالايضاح اذن ليس نظرية فى المعرفة فحسب بل هو نظرية فى الوجود يقوم على حفظ المستويات ثم على الربط بينها ربطا صحيحا مستعملا** مفاهيم جديدة للربط **مثل : حامل** posteur, substract **واقعة** حامل للماهية وليست مرادفة لها ، **أو معطى** conférant فالفعل يعطى المعنى وليس مرادفا له ، **أو طرف متضايف** corrélat ، فالآخر طرف متضايف مع الشعور وليس خارجا عنه ، **يقوم الايضاح أيضا** بالتخلى عن الالفاظ القديمة مثل « شىء » ووضع الفاظ جديدة مثل **حالة الشىء** حتى يتم رفع المستوى من المادة الى الشعور ، أو بالتخلى لفظ مثل فكرة أو مثال idee ووضع لفظ جديد مثل intention ، ويعنى به **هوسرل عملية تحويل العالم الى فكرة** أو مثل وذلك للقضاء على صورية المثال وتحويل الصورى الى ترنسندنتالى . **والايضاح أيضا منهج جدلى** بين الالفاظ والتصورات اذ يعثر فى مفهوم واحد على مفهومين متميزين كما هو الحال عند برجسون ، أو يضع المذهبين المتعارضين فى مذهب واحد ثم يرفضهما معا ، **مهمة الايضاح اذن هى الكشف عن الوحدة الباطنة فى الوجود : وحدة المعرفة والوجود فى الفينومينولوجيا ، وحدة الذات والموضوع فى الكوجيتو ، وحدة الأنا والآخر فى التجربة المشتركة ، وحدة الأجزاء المتناثرة فى الكل الواحد** .. الخ . خلاصة القول **ان الايضاح القائم على التمييز حركة اصلاحية فى التاريخ ،** وذلك لأن مهمة الفينومينولوجية مهمة اصلاحية ، ان لم تبشر بعالم جديد ، فعلى الأقل تحل أزمة العلوم الانسانية ، بل ويذكر هوسرل دائما لفظ « **اصلاح** réforme » ويستعمل مفاهيم الصراع والمعركة والنفى والاحتجاج والاعتراض والجدل والمحاجة والتحفظات والمراجعات .

رابعا – أزمة الشعور الأوروبى :

ليست الفينومينولوجيا نظرية فى الذاتية subjectivité فحسب كرد فعل على أزمة العلوم الانسانية التى اتخذت مرة العلوم الطبيعية ومرة ثانية العلوم الصورية كنموذج لها ، بل هى أيضا نظرية فى **العلاقات بين الذوات** intersubjectivité وهناك نوعان من العلاقات بين الذات : الأول هو **التجربة المشتركة** التى يتم من خلالها الوصول الى الموضوعية فى العلوم الانسانية وذلك باشتراك الذات مع الآخر فى نفس التجربة الشعورية وضمان عدم الخطأ ، خاصة وأن التجربة تحتوى على ماهية مستقلة عن الطرفين وتتميز بموضوعية صوريه من خلال مناطق الشعور ، فضلا عن أن كلا الطرفين يبدأ بالتجربة الحية اى من الوقائع نفسها ، وبذلك يكون الضامن للموضوعية : أولا **التجربة المشتركة** ، ثانيا **وجود الماهيات المستقلة** ، ثالثا **البدء بعالم الوقائع** ، ولذلك تحولت الفينومينولوجيا الى **حلقات** بحث seminaire حتى تخرج من « **مدينة العلماء** » كما أوصى هوسرل بذلك . والنوع الآخر من العلاقات بين الذوات هو **التجربة** المشتركة للحضارة **كلها** أو **هو الشعور الجماعى ، او الشعور الحضارى** ، أو ان شئنا الرجوع الى تعبير دلتاى « الشعور التاريخى » . فاذا **كانت الذاتية اتجاها راسيا يوضع فيه الشعور بين عالمين ، عالم الصورة وعالم المادة ، فالشعور الجماعى اتجاه أفقى يوضع فيه الشعور بين حركتى التاريخ ، الخلف والأمام** ، وبالتالى تظهر الفينومينولوجيا على أنها فلسفة فى التاريخ يضع فيها الشعور الأوروبى فى كل مرحلة جانبا من الفينومينولوجيا حتى تأتى آخر مرحلة فيه لتكملها وتضعها مرة واحدة والى الأبد . ولا يقصد بالشعور الجماعى ما يقصده الاجتماعيون باسم « **الشعور الجمعى** collective الذى هو أقرب الى الشىء والواقعة . **الشعور الجماعى هو شعور مثالى كالشعور الفردى تماما تعيش الحضارة فيه كما يعيش الشعور الفردى تجربة حية** . والحقيقة أنه يصعب التفرقة بين الشعورين الفردى والجماعى فلكل منهما نفس البناء ، فالجانب العقلى أو الصورى الذى سماه هوسرل noèse فى الشعور الفردى يقابل الاتجاه العقلى vational **فى الشعور الأوروبى** ابتداء من ديكارت ، والجانب **المادى** الذى سماه هوسرل noème فى الشعور الفردى يقابل الاتجاه التجريبى فى الشعور الأوروبى ابتداء من ديكارت أيضا ، والجانب الحى فى الشعور الذى سماه هوسرل leben-swelt **يقابل** فى الشعور الأوروبى فلسفة الحياة عند دلتاى **ودريش** Driesch وبرجسون وشيلر وغيرهم ممن رفضوا هذا التعارض التقليدى بين الصورى والمادى ، المثالى والواقعى ، العقلى والتجريبى . أى أنه يصعب التفرقة بين **الفينومينولوجيا من حيث هى علم او نظرية** Eidos وبين **الفينومينولوجيا من حيث هى مقصد**

للتاريخ او غاية له Télos ، وقد وضح هذا الارتباط بين الشعورين فى « **تاملات ديكارتية** » سنة ١٩٢٩ وهى الدراسة التى عرض فيها هوسرل الفينومينولوجيا كنظرية فى الذات أو فى الشعور الفردى وكنظرية فى العلاقات بين الذوات بمعنييها : الخبرة المشتركة فى المعرفة ، والخبرة الجماعية فى الحضارة ابتداء من ديكارت الذى يبدأ الشعور الأوروبى عنـده ٠

١ ـ **مصادر الشعور الأوروبى** : لا يتحدث هوسرل كثيرا عن مصادر الشعور الأوروبى اذ أنه يعتبر الحضارة الأوروبية خلقا أصيلا على غير منوال ، وأنها ، دون غيرها من الحضارات القديمة ، قد أخذت على عاتقها مهمة البحث عن الحقيقة النظرية ، وتحقيق مشروع الانسانية العلمى الأول الذى طالما راود فلاسفتها ، أعنى اقامة علم شامل مرادف للحقيقة ومطابق للواقع على السواء ٠ فاذا ذكرت المصادر أعتبرت مجرد مقدمات للحضارة الأوروبية وتمهيدات لها دون أن يكون لها استقلال خاص بها ٠ كل شىء فى النهاية يصب فى الحضارة الأوروبية التى افتتحها ديكارت ، فاوروبا هى ممثلة الانسانية! أما حضارات الشرق القديم فهى حضارات أسطورية خلقية دينية لم تستطع عرض المسائل عرضا نظريا وكان جل همها المنفعة العاملة فى الحياة العملية !

لا يذكر هوسرل من مصادر الشعور الاوربى الثلاثة المتواضع عليها لدى الباحثين اعنى : **المصدر اليونانى الرومانى** ، **المصدر اليهودى المسيحى** ، **البيئة الأوروبية نفسها** ، الا المصدر اليونانى الرومانى ويهمل اهمالا يكاد يكون تاما للمصدرين الآخرين ، بل لا يذكر من المصدر اليونانى الرومانى الا **الفترة اليونانية** التى يعجب بها هوسرل أيما اعجاب ويجعلها الصورة المبكرة للحضارة الأوروبية صحيح أن الحضارة الرومانية تابعة فى كثير من جوانبها للحضارةاليونانية الا ان اهتمامالحضارة الرومانية وباعثها الأول كان هو البحث عن « **القانون** » فى حين ان اهتمام الحضارة اليونانية كان هو البحث عن « **الفكرة** » ٠

ولا يتناول هوسرل من الحضارة اليونانية الا الفلسفة ، ويلغى من حسابه الأدب والاساطير والنحت والعمارة وذلك لأن الفلسفة اليونانية ، فى رأيه ، هى التى حاولت البحث عن الفينومينولوجيا بقدر استطاعتها وعلى مستوى تفكيرها وتقدمها الحضارى فى مسار الانسانية ، ففيها ظهرت فلسفة الحياة عند **سقراط** ، وهى الفلسفة التى كشفت الفينومينولوجيا عن اصالتها فى التجربة الحية ، وفيها ظهرت الصورة المحضة والمثال المطلق عند **افلاطون** ، وهى ما أقرته الفينومينولوجيا فى وضعها لعلم الماهيات ، وفيها ظهرت أخيرا فلسفة الطبيعة عند **ارسطو** والتى حاولت الفينومينولوجيا أيضا اعادة بنائها بعد تعليق الحكم على المادة ، والبحث عن الأشياء ذاتها فى الشعور ٠

ولكن هوسرل يعتبر **سقراط مجرد مصلح للحياة العملية** ضد شك السوفسطائيين ، ولم يستطع وضع المسائل وضعا نظريا خالصا ، وظلت اهتماماته متجهة نحو المشاكل الخلقية٠ ومع ذلك استطاع سقراط **استعمال منهج الايضاح القائم على العقل** ، واتخذ الوضوح والبداهة مقياسا لصحة الأفكار ، وقد تحول منهج التوليد لديه الى جدل عند أفلاطون ، كما تحول منهج الايضاح الى حدس للماهيات ٠ لقد استطاع سقراط المحافظة على **موضوعية القيم** ، هذه الموضوعية التى حاول هوسرل اقامتها فى العلوم العقلية ، لقد أعطى سقراط **نموذجا للذاتية** وأعلن أن الذات ليست موضوعا وهو الدرس الذى استفادته العلوم الانسانية من أزمتها فى العصر الحاضر٠ وبالتالى يظل سقراط ، بالرغم من نقص البحث النظرى لديه، مصدرا للذاتية الأوروبية ، وأستاذا لفلاسفتها مثل كيركجارد الذى كان يعتبر نفسه تابعا لسقراط ٠

وقد استطاع **افلاطون** لأول مرة فى تاريخ الانسانية وضع اول أسس لنظرية خالصة فى العلم وهى « **نظرية المثل** » والتمييز بين العقلى والحسى ، بين الصورى والمادى ، أو بين النظر والعمل ، بل ان مثال المثل يقترب كثيرا من النظريات الرياضية الحديثة لا سيما نظرية الكثرة ونظرية المجموعات ٠ لقد ظلت الأفلاطونية مثلا يحتذى فى الحضارة الأوربية لتأكيد استقلال الأفكار والماهيات والموضوعات المثالية وللتخفيف من حدة الاتجاه التجريبى ٠ وتحدث الأزمة فى العلم عندما يترك المثال الأفلاطونى القديم وتؤخذ العلوم الطبيعية نموذجا لكل علم ٠ وهكذا تظل الأفلاطونية هى الدرع الواقى من كل اتجاه شكى أو نسبى ، والضامن لكل عقلانية ٠ لقد أصبحت فى العصر الحديث نظرية قبلية فى تصور العلم القائم على حدس الماهيات ، بل ان ذاتية العصر الحاضر لم تستطع بلوغ درجة العقلانية القديمة التى بلغت ذروتها **فى نقطة ارشميدس وفى نظرية فيثاغورس** ٠ وان بحث أفلاطون عن « **النفس ذات الأجنحة** » كان فى الحقيقة بحثا عن الذات الترنسندنتالية ٠ وان ما يحدث فى العصر الحديث من وقوع فى المذهب التجريبى والشك والنسبية ومحاولة المذهب العقلى اعادة التوازن للشعور الأوربى لهو تكرار لما حدث قديما من تحول للفلسفة على يد السوفسطائيين الى شك ونسبية **ومحاولة افلاطون اعادة التوازن الى الشعور اليونانى** ٠ ولكن افتراض أفلاطون **وجود المثل فى الخارج** جعله يخطىء معنى الواقعية واصبح ذريعة للاتجاه الاسمى فى انكاره لوجود المعانى المستقلة ، اى ان افلاطون بالرغم من التقدم الحاسم الذى حققه فى الفلسفة اليونانية **لم يستطع ان يعطينا مناهج ضرورية للعلم** لأن فلسفته ظلت اسيرة للنظريات الخلقية والتفسيرات الاسطورية ، ولم تزد الفلسفة لديه عن كونا مجرد دهشة دون أن تصبح نظرية فى الحقيقة ٠

أما**علم النفس القديم فقد** فسره هوسرل على أنه حديث باطنى للنفس يتجه نحو الفكرة وبالتالى فهو بعيد كل البعد عن علم النفس التجريبى ، ولذلك كان سقراط على حق عندما رفع شعاره « **اعرف نفسك بنفسك** » وعندما وصفته كاهنة معبد دلفى بانه « أحكم البشر » ٠ كانت **التجربة فى**

علم النفس القديم **مجرد اعتقاد** Doxa أى أنها قصد يمكن ملؤه . **أما علم الاجتمـــاع** فلم يتعد بعض النظريات الخلقية فى اقامة المدنية الفاضلة ولم يعرف دور الآخر فى التجربة المشتركة .

أما **ارسطو** فهو أول من وضع نظرية كاملة فى المنطق والأخلاق والسياسة ، وهو أكمل نسق فلســـفى عرف فى العصر القديم ، ولكن فضله الأساسى يرجع الى أنه وضـــع أسس المنطق الصورى خاصة منطق القضايا ، وهو أول تفكير منطقى عرفه التاريخ . ولأول مرة توضع مشكلة الصورة فى المنطق التى تقابل المقولة فى علم الطبيعة ، وكان هذا الطابع الصورى هو المرشد للمنطق الحديث ، ومع ذلك فقـــد ظل المنطق الصورى ناقصا ، فلم يتعد كونه **ارهاصات من التفكير الذاتى لاقامة علم مثالى** ، فضلا عن أنه لم يتعد كونه **منطقا للاتساق وعدم التناقض** دون أن يصبح منطقا للحقيقـــة . **كما نقصته نظرية فى الحدس** ، وكذلك **لم يستطع أن يصبح رياضة شاملة** . وان تحويل المنطق الى رياضة لهو من صنع العصر الحديث الذى استطاع تحرير المنطق من بيئته المدرسية وتداخل أشكال القضايا . **لقد ظل المنطق القديم استنباطيا** ، يمكن بواسطته استخراج قضـــية من أخرى ، فى حين أن المنطق الحديث استطاع الوصول الى اللانهائى نفسه . ولكن يذكر للمنطق القديم أنه قدم **تحليلات لغوية** يمكن استغلالها فى دراسة أفعـــال الشعور وقد استغلت الفينومينولوجيـــا بالفعل تقسيمات المنطق القديم مثل : الجنس والنوع ، الصورة والمادة ، غير أنه **لم يستطع أن يتحول الى انطولوجيا صورية** كما هو الحال فى الفينومينولوجيا ، خاصة وان الأنطولوجيـــا القديمة كانت ترى قمتها فى اللاهوت لا فى الرياضة الشاملة كما هو الحال فى العصر الحديث . هذا بالاضافة الى أن المنطق القديم **لم يستطع التخلص من الاتجاه النفسى** فى المنطق أو فى الأخلاق .

ثم **انتهت الحضارة اليونانية وهى لم تحقق بعد مشروعها فى اقامة نظرية للعلم** ، وكان أقصى ما وصـــلت اليه هو **هندسة اقليدس** التى تدل على مستوى رفيع من العقلانية ، ثم انهارت الحضارة اليونانية كلية بتركها هذا المشروع واتجاهها نحو المسائل الخلقية على يد « **الأبيقوريين والرواقيين** » وانتهى التنظير العقلى ، وبدأت مذاهب الشـــك والمـــذاهب المادية والاتجـــاهات العملية فى المدارس الخلقيـــة ، وظل **الجدل السوفسطائى سلبيا** ينكر قيمة الذهن ، ويؤكد وجود العدم « لا يوجد شىء وان وجد شىء فلا يمكن معرفته » ، فالشـك السوفسطائى القديم وقوع فى النسبية أو فى العدمية أو فى **وحدانية النفس** solipsisme وبذلك تم القضاء على الموضوعية التى تتحقق فى الذهن أو من خلال التجربة المشتركة . وكان آخر بريق هو نظرية « **اللوجوس** » عند الرواقيين التى حاولت وضع موضوعية مثالية كتلك التى حاولها العصر الحديث فى الرياضة .

أما فيما يتعلق **بالمصدر اليهودى المسيحى** فان هوسرل لا يذكر منـــه الا بعض الفلاســـفة المدرسين (**اوغســطين توما الأكوينى ، دنزسكوت ، نيقولا الكوزى**) وذلك لأنه يعتبر **روح العصر الوسيط روحا نافية عادمة لأنها** خضعت للمنطق الأرسطى المدرسى دون ان تضع أسس « الرياضة الشاملة » كتلك التى وضعها العصر الحديث ، ولكنه يذكر **لأوغسطين** اكتشافه للذاتية ، ويستشهد بعبارته الاشراقية in te interiori homine habitat veritas « فى باطنك أيها الانسان ، تكمن الحقيقة » . فى آخر « تأملات ديكارتية » كما يذكر **لتوما الأكوينى** قوله « **بالقصد العقلى** » الذى ظهر عند برنتانو كبناء للشـــعور ، كما يذكر نظرية « **احوال المعانى** Les modes des significations » عند **دنزسكوت** ويعتبرها احدى روافد المنطق المعـــاصر وهى النظرية التى درسها **هيدجر** فى رسالته الأولى تحت اشراف هوسرل . وان ما تصوره العصر الوسيط على أنه بحث عن الله وعن ملكوت السماوات ان هو فى الحقيقـة الا بحث عن مشروع الانسانية الأوربية لوضع أسس علم شامل .

أما البيئة الأوربية نفسها فلا يذكر منها هوسرل شيئا وكان الشعور الأوربى شعور مثالى صرف ، أو شـــعور الهى تنكشف فيه الحقائق ، مع أنه يمكن تفسيره بالبيئة الأوربية نفسها ، فالكوجيتو الديكارتى رفض للعصر الوسيط ولكل حقيقة سابقة على البحث ، والمذهب التجريبى رفض للعقلية الأسطورية الميتافيزيقية المتبقية من رواسب العصر الوسيط ، والمذهب العقلى رفض للتشبيه أو التجسيم الذى طبع العقلية الأوربية ، ورفض لكل حقيقة مسبقة طالما دخل الزيف منهـا باسمها ؛ مع أن هوسرل نفسه على وعى تام بأن الحضارة الأوروبيـة من خلق الاوروبيين انفســـهم وذلك بقـوله « حضارتنا » « فلســفتنا » ، « منطقنا » ، شعورنا ، وليست من صنع الله .

٢ ـ نقطة البدء فى الشعور الأوربى : الكوجيتوالديكارتى :

يعتبر هوسرل **الكوجيتو الديكارتى نقطة البدء فى الشـــعور الأوربى** ، أى أن **ديـكارت بهذا المعنى هو المؤســـس الأول للفينومينولوجيا** ، وهو الذى **اكتشف عالم الذاتية** ، ولذلك ربط هوسرل نفسه به فى « تأملات ديكارتية » واعتبر ديكارت هو الذى بدأ المشروع وأنه ، هوسرل ، هو الذى حققـــه بالفعل ، وأن **الشعور الأوربى قد ابتدأ مع ديـكارت وانتهى عند هوسرل وبذلك تكون الحضارة الأوروبية** قد حققت مشروع حياتها وهو اقامة الفينومينولوجيا التى تعتبر الصورة النهائية للفلسفة الترنسندنتالية وتحقيقا للمثالية الألمانية .

ولكن ديكارت ـ فى رأى هوسرل ـ وقع فى **أخطاء مميتة** : أولا ، عرف ديكارت الأنا المفكرة cogito لكنه **لم يعرف مضمون التفكير** cogitatum ، ولذلك ظلت الذاتيـــة لديه فارغة من أى مضمون حتى انتهى الى الصورية المحضة عنـد كانط الذى أصبحت المعرفة على يديه مجرد قوالب فارغة ، ومن ناحية أخرى **قضى ديكارت على موضوعية الأشياء حينمـــا اعتبر العالم مكونا من مفهومين رياضيين : الحركة والامتداد** .

ثانيا ، ميز ديكارت بين النفس والبدن وبذلك قد وضع أسس ثنائية العصر الحديث فجعل النفس موطن الفكر والمثال ، والبدن موطن الواقع والمادى ، جعل النفس خالدة تنمو نمو الخلود الأزلى ، والبدن فانيا ، مجرد آلة متحركة . ولقد كان من السهل بعد ذلك أن يخرج التيار العقلى عند سبينوزا ومالبرانش وليبنتز من النصف الأول ، وأن يخرج التيار التجريبى عند لوك وهيوم من النصف الثانى . هذه هى الثنائية ، مأساة العصر الحديث ، التى صورت الشعور الأوربى فى بدنه وكانه فم مفتوح ، فك الى أعلى يمثل الاتجاه العقلى وفك الى اسفل يمثل الاتجاه التجريبى ، ثالثا ، ينقص الكوجيتو الديكارتى البعد الترنسندنتالى ، اذ أنه لايعدو مجرد مبدأ Axiome يقينى يستنبط منه العالم ، أى أنه ظل على مستوى علم النفس وبالتالى فهو لا يخلو من نسبية ، وبذلك لم يكن فى الامكان القضاء على الشك قضاء تاما سواء فيما يتعلق بوجود العالم أو بوجود الموضوعية التى جعلها ديكارت مرهونة بالصدق الالهى ، لذلك جاءت الفينومينولوجيا لتاكيد الطابع الشمولى للأنا ، ولبيان أن الوضوح لا شأن له بالموضوع الواقعى ، ولاثبات القصد المتبادل كبناء للشعور . رابعا ، ينقص الكوجيتو الديكارتى الآخر كطرف مقابل للشعور ، وبالتالى لا وجود للخبرة اشلتركة ولامكانية اقامة علم اجتماع فينومينولوجى ، واقتصر ديكارت على تصور الله كآخر مطلق وكضامن لليقين .

وقد استمر الشعور الأوربى بعد ديكارت يؤكد مأساته فى هذين الخطين المتباعدين ، الاتجاه العقلى الذى هو استمرار للأفلاطونية والاتجاه التجريبى الذى هو استمرار للأرسطية القديمة ، لقد استطاع الاتجاه العقلى أن يصل الى الواحدية الميتافيزيقية monisme métaphysique (سبينوزا) ، ووصل الى قمته فى الرياضة الشاملة أو فى الانطولوجيا العامة (ليبنتز) . وقد ظل هذا الاتجاه العقلى هو المرشد فى البحث عن الحقيقة والحافظ للشعور الأوربى من الاستمرار فى الانحدار نحو الاتجاه التجريبى ، ولكن تحويل الطبيعة الى رياضة على يد جاليليو أدى الى فقدان التجربة الحية ، وأصبحت قالبا دون مضمون ، أى أن الاتجاه العقلى كان مصيره الوقوع فى الصورية ونسيان عالم الحياة الذى حاولت الفينومينولوجيا اعادة بنائه .

أما الاتجاه التجريبى فقد ظهر فى صور عديدة : اتجاه طبيعى ، اتجاه نفسى ، شك ، نسبية ، مادية ؛ بوضعيه ؛ وقد كان ذلك لما حازته علوم الطبيعة من تقدم خاصة على يد نيوتن واكتشافه لقانون الجاذبية . لقد نشأ الاتجاه التجريبى كرد فعل على الاتجاه وعلى نسيان العالم والقضاء على الأشياء ، ولكنه انقلب الى النقيض ، وأصبح العالم فيه عالما ماديا ، وأصبحت التجربة الحية مجرد انطباعات حسية ، وأصبحت النفس ، على ما يقول لوك ، مجرد صفحة بيضاء تنقش عليها الاحساسات ما تشاء . وقد ظهر هذا الانحدار فى صورة خلط نشأ فى العلوم الانسانية خاصة فى علم النفس التجريبى بين التجربة الداخلية والتجربة الخارجية ، وهو ما يسمى بالتوازى بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية الذى يعطى الأولوية للفيزيقى على النفسى ، ويوحد بين الفيزيقى وكل المظاهر النفسية من حس وادراك وتذكر وتخيل وتصور وانفعال ، لذلك كان السبيل الى الخلاص هو علم النفس القائم على الاستبطان وتحليل الخبرات الباطنية ، ثم جاء هيوم وأنكر قانون العلية وبالتالى كل قانون عقلى مستقل عن الحسى فكان خراب الفلسفة وافلاسها ، ولا فرق فى ذلك بين الحسية الانطباعية (هيوم) وبين المثالية الذاتية (بركلى) ، فضلا عن أن كليهما تيار أنا وحدى solipsisme يستحيل فيه اقامة خبرة مشتركة أو اقامة موضوعية عقلية .

وجاء كانط بفلسفته النقدية محاولا اصلاح ما أفسده ديكارت فتصور وضع المادة الحسية فى الصورة الذهنية الفارغة واعتبر أن التصورات بلا حدوس فارغة وأن الحدوس تصورات عمياء ، ولكنه حل ثنائية العصر الحديث على طريقة الشكل والمضمون ، أو بتعبير أرسطو ، على طريقة الحاوى والمحوى ، وظل الشعور مجرد « نسيج عنكبوت » وظيفته اصطياد المادة من العالم الخارجى دون أن يكتشف الشعور الحى والتجربة المعاشة . لم تستطع الفلسفة النقدية بمعارضتها الدجماطيقية والشك اكتشاف بعد ثالث مستقل عن هذين الخطين المتعارضين وظل سؤال كانط الأساسى : كيف يكون الحكم القبلى التاليفى ممكنا ؟ » دون حل جذرى . لقد حاول كانط جعل الميتافيزيقا علما ولكنه اشترط عدم تجاوزها العالم الحسى فى حين أن الفلسفة أصبحت علما محكما وذلك بجعل وظيفتها الأساسية تحليل الشعور والتعرف على ما به من تجارب حية . لقد استطاعت الفينومينولوجيا بذلك توسيع نطاق الحساسية الترنسندنتالية وجعلها شاملة لكل مظاهر الحياة كما استطاعت اعادة الفاعلية المنطق الترنسندنتالى ، وجعلت من الحدس الحسى حدسا نظريا eidetique للماهيات . لم تتعد المثالية النقدية فى نهاية الأمر كونها مجرد جمع لكل اخطاء العصر الحديث وازمة العلوم الانسانية فيه : صورية المذهب العقلى ، مادية المذهب التجريبى ثم الغائهما معا لحساب الأخلاق والدين ، أى أنها تمثل عودا لسقراط ، ولم تزد فى النهاية عن كونها تيارا عمليا خلقيا يعلم الناس أفضل أسلوب فى الحياة ، صحيح أن المنطق ظل علما معياريا قبليا ولكن المثالية النقدية لم تحقق شيئا من مشروع الشعور الأوروبى وهو اقامة الرياضة الشاملة التى أصبحت الفينومينولوجيا بديلا لها .

وتمثل المثالية المطلقة عند هيجل وفشته تقدما حقيقيا فى اقامة مشروع الحضارة الأوروبية لاقامة علم شامل ، فقد استطاعت لأول مرة القضاء على هذه الثنائية الحادة بين الاتجاه العقلى والاتجاه التجريبى وذلك باعادة الوحدة الباطنية بينهما فى التوحيد بين الروح والمادة ، بين العقل والوجود ، بين المثالى والواقعى ، بل انها استعملت لفظ الفينومينولوجيا ووصفت بناء الشعور الفردى وتطوره واستطاعت الدخول فى غائية التاريخ ووصف بناء الشعور الأوروبى وتطوره وعبرت

عن ثنائية العصر الحديث التى تكشف عن مأساته باسم الشعور باليؤس الذى يعبر عن الفصم بين الروح والمادة ٠

ولكن بالرغم من معارضتها معارضة مطلقة لكل اتجاه الا أنها لم تستطع التخلص من رواسب الاتجاه التجريبى ، ولم تستطع تحويل الفلسفة الى علم محكم بل ظلت مجرد وعى الانسانية بذاتها ، وتحقيق العقل لذاته ' وقد تم ذلك **فى جو اسطورى شاعرى** ، كان الفلاسفة فيه خالقين لشعر ولتصورات لا محللين لها ٠ أى أن المثالية المطلقة لم تستطع أن تتحول الى نظرية فى العلم ٠ لقد نسى هيجل منهج الايضاح، لذلك ظل الجدل غامضا يختلط فيه كل شىء بكل شىء ، **وارتبطت الفلسفة بالدين الى الأبد** ، وأصبح الاعتقاد الدينى هو المثل الأعلى لليقين الفلسفى ، ولذلك انتهت الى الاغراق فى الرومانسية سواء فى **مثالية الذات (فشته)** ، أو فى **المثالية المطلقة** (هيجل) أو فى **فلسفة الهوية** (شلنج) ٠

٣ ـ **نقطة النهـــاية فى الشعور الأوروبى ـ الكوجيتو الفينومينولوجى : لقد استطاعت الفينومينولوجيا اخيرا بتصورها للشعور على انه قصد متبادل ضخم الخطين المتباعدين العقل والتجريبى نحو نقطة واحدة واصبحا خطين ملتقيين فى الكوجيتو كما تصوره هوسرل على انه وحدة** للذات والموضوع ٠ **والأنا والآخر ' والعقل والتجربة** ، وبالتالى تحقق مشروع **الحضارة الأوروبية فى اقامة علم شامل وهو** الفينومينولوجيا التى كان **الجميع يبحثــون عنهـا ويحاولون** التعبير عنها فى أشكال **متعددة ٠ لقد كان هذا المشروع هو** الباعث الأول الذى يحرك **الحضارة الأوروبية ، وهو الغائية** الكامنة فى تاريخها ولذلك **كان الشعور الأوروبى تقدميا بالطبع** يسير نحو غاية وينمو **نحو الكمال ' ويتسم بطابع** البحث الدائب والمستميت عن **الحقيقة** (حتى لقد قال لسنج : لو أعطيت لى الحقيقة فى اليد اليمنى والبحث عن الحقيقة فى اليــد اليسرى لاخترت اليــد اليسرى) ٠ أصبحت الفينومينولوجيا هى « الفلسفة الأولى » التى كان يبحث عنها القدماء وكتب هوسرل بالفعل جزأين لها سنة ١٩٢٤/٢٥ ، كما أصبحت مشروعت ليبنتز لاقامة رياضة شاملة ، اذن لقد انتهى دور الحضارة الأوروبية بعد أن وضعت آخر مولود لها ، ولم يعد لها أى دور الا فى تطبيق المنهج الفينومينولوجى فى العــلوم الأوروبية ' وتوجيــه الدراسات الانسانية نحو حلقات البحث الفينومينولوجى وهو ما حاول تلامذة هوسرل المباشرون أو التالون له تحقيقه فى علم النفس والمنطق والفلسفة والأخلاق والاجتماع واللغــة والتاريخ والجمال والقانون والدين ٠

لا تخرج الفينومينولوجيا بهذا المعنى عن كثير من الدعوات المعاصرة المشابهة التى تحاول البحث عن بعد انسانى خاص لعلوم الانسان لا يتمثل فى التصورات العقلية كما كان الحال عند العقليين ابتداء من ديكارت حتى آخر ممثل لهم ، وهو برنشفيج Brunschvicg **' ولا يتمثل فى التجارب الحسيــة كما كان عند التجريبيين ابتداء من بيكون حتى الوضعية بكل صورها** ٠ لقد حاول **برجسون** مثل هوسرل شق طريق ثالث بين المثالية والواقعية ووجده فى **الشعور الداخلى بالزمان** الذى هو فى نفس الوقت شعور بالخلود على هيئة ديمومة تكشف عن حرية الانسان وعن ارادته الباطنة دون اى أساس **عقلى** ، كما حاول **مونيه** E. Mounier **وماكس شيلر**M. Scheler اكتشاف الانســان الذى لا هو بالعقل الخالص ولا بالحس الخالص ولا بالارادة العمياء فاكتشفا معا بعد **الشخص وحللا** معا أبعاد الشخصية الانسانية٠ كذلك رفض **بلوندل**M. Blondel موقف العقليين والتجريبين معا محاولا التعرف على بعد انسانى خاص وجده فى **الفعل الصاعد** ينطلق من الفرد حتى يضم الانسانية جمعاء ' وهو أيضا الطريق للكشف عن الله وظهوره من خلال الانسان، والوجوديون جميعا، من **كيركجارد** حتى **سارتر** ، يرفضون المذاهب العقلية ويجعلون ذلك مقدمة أولى لهم فى **التمييز بين المعرفة والوجود ورفض المعرفة والبدء بالوجود ، كما يرفضون الموضوعية العلمية ويؤكدون تعالى الذات أى تجاوزها للموضوعية وندها عنها ٠ اى ان مهمة الفكر المعاصر هى البحث عن طريق ثالث على مايقول شتراسر** strasser فى دراسته « **الفينومينولوجيا والعلوم الانسانية** » **بين المذهب العقلى والمذهب التجريبى ' والعثور على نقطة التقاء بينهما** أى على كوجيتو جديد **يضم هذا الفهم المفتوح ، وتنتهى هذه المأساة** التى مزقت الشعور **الأوروبى والتى كانت سبب ازمته الكبرى** فى العصر الحاضر ' **وهى عدم القدرة على التعرف على** نوعية الظاهرة الانسانية ، **واستقلالها عن العــلوم الرياضية** والعلوم الطبيعية على السواء ٠ **فالانسان ليس صورة عقلية** وليس مادة تجريبية **ولكنه تجـربة حيــة ' ومن ثم كانت** الفينومينولوجيا دعوة للحياة **التى لا يمكن وضعها فى نطــاق** العقل أو فى نطاق المادة ٠ **لقد اعتبر هوسرل نفسه نبى العصر مثلما كان سقراط وأوغسطين من قبل وديكارت من بعــد ينبه الحضارة الاوروبيةالى الخطر المحدقبها والذىسيؤدى بها الى الهلاك ، وذلك لأن ازمة العلوم الانسانية اخطر بكثير مما نتصور اذ انها تعبر عن ازمة الانسانية الأوروبية نفسها أو ازمة الوجدان الأوروبى الذى فقد عالم الحياة** ، هذه الأزمة التى يعبر عنا هوسرل بعديد من الألفاظ مثل : فقــدان ، خسارة ' قلب ، انهيــار ، سقوط ، فصــم ؛ خلط ، استبدال ؛ ضيق ؛ ضياع ، فقر ' نسيان ، سوء فهم ، كسر ٠٠ الخ ٠ الى آخر ما عبر عنه الوجوديون على طريقتهم فى تحليل الوجــود الفردى من هم وحصر وضيق واختنــاق وسقوط وفصم ٠ وبالتالى **تكون الفينومينولوجيا بهذا المعنى دعـوة مثالية من نوع جديد ' مثالية الشعور ، او تيــارا روحيا اشراقيا من نوع تقليدى مثل سقراط واوغسطين ، او ان شئنا نزعة صوفية يسهل على اى اتجاه اجتماعى عملى ـ كالماركسية ـ رفضها ٠ فهى وان كانت جاءت كرد فعل لأخطاء علمية فى العلوم الانسانية التى تبنت العلوم الطبيعية او العلوم الرياضية كنموذج لها ، الا أنها لم تكن فى نهاية الأمر سوى استكشاف لعالم الشعور ٠**

حسن حنفي

الجدل والعلوم الإنسانية

إمام عبد الفتاح إمام



لن تجد بين الفلاسفة الذين استخدموا كلمة « الجدل » – أو الذين يوصفون عادة بأنهم جدليون – اتفاقا عاما حول المعنى الدقيق الذى استخدموا فيه هذه الكلمة . وربما كان فى استطاعتنا أن نقول – مع سيدنى هوك – ان فئة قليلة من الفلاسفة هم الذين استخدموا هذا المصطلح بنفس المعنى الذى استخدمه فيه أسلافهم : « بل انه لمن النادر أن تجد فيلسوفا يستخدم هذا المصطلح باتساق ، وبمعنى واحد ، فى جميع مؤلفاته » . (انظر مقال هوك عن « الجدل فى المجتمع والتاريخ » فى كتاب « قراءات فى فلسفة العلم » ص ٧٠١ وما بعدها – وقد قام بنشره ه فايجل وماى بروديك – نيويورك عام ١٩٥٣) .

ولقد أحصى « لالاند » فى قاموسه عشرة معان مختلفة لهذا المصطلح عند كبار الفلاسفة وحدهم ، ثم أضاف : « ان هذه الكلمة تقلبت عليها معان تختلف فيما بينها أتم الاختلاف ، حتى أنك لا تستطيع أن تستخدمها استخداما مجديا اللهم الا اذا حددت على وجه الدقة المعنى الذى سوف تستخدمها فيه ٠٠ » (العجم الفنى والفلسفى — المجلد الاول ص ١٦١ وما بعدها طبعة ١٩٢٦ باريس) ٠ ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الباحثين يشبهون التحولات الكثيرة التى طرأت على كلمة « الفلسفة » ذاتها — وفى أن بعضهم الآخر ييأس — فى نفور شديد — من تحديد معنى لها ، وينتهون الى رفضها رفضا قاطعا بوصفها لا تعبر — فى نظرهم — الا عن طريق ملتوية ومصطنعة ، وأفكار تخلو تماما من كل مضمون ٠

والحق أن « كلمة الجدل » استخدمت لتصف ألوانا مختلفة من التصورات والافكار والأنشطة والمواقف المتباينة أشد ما يكون التباين ٠ ومن هنا فاذا ما تساءلنا : ما الجدل ٠٠ ؟ كانت الاجابة مستحيلة — كما يقول هوك ، بغير دراسة للتاريخ الطويل الذى مرت به كلمة الجدل من أفلاطون حتى يومنا هذا : فالشيء الوحيد المؤكد هو أن أفلاطون ، وأرسطو ، وكانت ، وهيجل ، وماركس ، وكيركجور ، وبشلار ٠٠ الخ الخ استخدموا جميعا كلمة الجدل ، وأنهم — جميعا أيضا — استخدموها بمعان مختلفة : وتلك هى القاعدة العامة التى تجدها فى كل حقبة من تاريخ الفلسفة ٠ (هوك فى المرجع السابق) ٠ غير أن هذا الاختلاف الواسع بين الفلاسفة فى استخدامهم لهذا المصطلح يثير تساؤلا يفرض نفسه ، ولا يمكن للباحث أن يسقطه من حسابه والا بدا بحثه ناقصا مبتورا — وهذا التساؤل هو : لماذا اذن استخدم هؤلاء الفلاسفة جميعا هذا المصطلح بالذات ٠٠ ؟ هل هناك سحر أو جاذبية هى التي تدفع الفيلسوف الى استخدام هذا المصطلح ٠٠ واذا كان ذلك صحيحا فما سحر هذه الكلمة وجاذبيتها ٠٠ ؟ ومن ناحية أخرى أليس هذا الاستخدام المتعدد المتنوع نفسه يعنى بالضرورة أن هناك خيطا مشتركا بين هذه المعانى المختلفة ٠٠ ؟ وقد يقال فى معرض الرد على هذه الأسئلة : ليس فى الامر سحر ولا جاذبية ولا شيء من هذا القبيل على الاطلاق ، وكل مافى الأمر أن الفلاسفة استخدموا هذا المصطلح « لغموضه » ٠ فقد أتاح لهم هذا الغموض نفسه فرصة تأويل هذه الكلمة وادخال معان جديدة لم تكن لها من قبل ، وذلك لأن عدم توافر المعنى المحدد الواضح لمصطلح من المصطلحات يجعله نهبا لتأويلات شتى وتفسيرات متعددة ويتيح الفرصة لاضافة الكثير من المعانى الجديدة ٠ لكن هذا الرد فى الواقع غير مقنع لأننا سوف نعود الى التساؤل من جديد : ألا يتأثر المصطلح — أى مصطلح — كثيرا أو قليلا بالمعانى التى تعاقبت عليه طوال تاريخه ، بحيث يكون له فى النهاية — رغم البصمات الكثيرة التى تركت آثارها عليه — علاقة مشتركة بجميع هذه المعانى ٠٠ ؟ اننا نستطيع أن نقول ان الجدل قد ارتبط طوال تاريخه بخاصيتين أساسيتين هما : **الوعى والحوار** بحيث لا يكون له معنى بدونهما (ومن هنا كان الربط بين المادة والجدل يعنى بالضرورة أن ننسب للمادة لونا من ألوان الوعى » وهما خاصيتان يمكن ادماجهما فى خاصية واحدة هى **ديناميكية** الفكر وفاعليته بصفة عامة على نحو ما سنعرف بعد قليل — ومن ناحية أخرى : لماذا نرد هذه الاستخدامات المتعددة للجدل الى « غموض » المصطلح ولا نردها لخصوبته ٠٠ ؟ **ان الفكرة الخصبة قد لا تكون « حقيقة نهائية » لكنها مع ذلك قد تكون أهم مئات المرات لسير الفكر وتطوره من الأفكار** « الحقيقية » **٠ خذ مثلا جدول الضرب** « تجد أنه حقائق لا شك فيها لكنه مع ذلك جامد ميت : فما الذى يمكن أن يؤدى اليه فى المستقبل؟ لا شيء على الاطلاق ! أما الفكرة الأولى التى قام عليها نسق الرياضية عند اقليدس فهى — لأنها ليست حقيقة نهائية — فقد أدت الى ظهور أفكار أخرى تعارضها قامت عليها ألوان جديدة من النسق الرياضية (عند جاوس ، ولوباتشنسكى وريمان ٠٠ الخ الخ) ٠ **وباختصار الفكرة الخصبة** هى تلك التى تؤدى الى فكرة أخرى مؤيدة للأولى **أو معارضة لها** (وهى فى أغلب الاحيان تكون معارضة) فخصوبتها لا تعنى أنها « حقيقة نهائية » بل تعنى أنها توحى بأفكار أخرى كما يقول « جون ديوى » وهو نفسه أحد الفلاسفة الذين تأثروا بشكل مباشر بالجدل الهيجلى — ذلك **لأن الشيء — كما يقول برادلى بحق — يستحيل عليه الحركة اذا اكتملت حقيقته ، فاذا ما أصبح حقيقة نهائية مكتملة كان فى ذلك موته وفناؤه** لكن ألا تعنى هذه النتيجة التى انتهينا اليها أن الفكرة الخصبة هى باختصار شديدة **الفكرة الجدلية** ، أو هى الفكرة التى تحمل فى جوفها أفكارا أخرى تعارضها ، أو هى الفكرة التى **تحمل سلبها فى داخلها** كما يقول هيجل ٠٠ ؟

ولا نود فى هذا المقال أن ندخل فى تفريعات طويلة حول مناقشة العقل الجدلى ، أو تحديد الماهية الدقيقة للجدل ٠٠ الخ ـ فليس هنا مجال مثل هذه المناقشات ـ لكنا نود أن نعرض فى ايجاز لسؤالين هامين : **الأول :** هل يمكن أن تصنف المعانى المختلفة لكلمة الجدل فى خطوط تغطى الاستخدامات المختلفة لهذه الكلمات ٠٠ ؟ **والثانى :** هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين هذه الخطوط العريضة للجدل وبين العلوم الانسانية ؟

تصوران للجدل ٠٠

يمكن أن تندرج المعانى المختلفة التى استخدمت فيها كلمة الجدل فى **تصورين أساسيين** هما (١) تصور الجدل على أنه نمط من **التغير** يحدث فى الوجود بصفة عامة سواء أكان المقصود بالوجود هنا : الطبيعة ، أم الانسان ، أم المجتمع ، أم هذه المجالات جميعا ٠ (٢) ـ التصور الثانى وهو التصور الذى يجعل الجدل **منهجا خاصا** لتحليل مثل هذا التغير ، وكثيرا ما يقال ان هذا المنهج ، أى منهج التحليل الجدلى ـ يقابل بمعنى ما من المعانى التغير الجدلى الذى يسرى فى الوجود ، على أنه يجب أن تكون على وعى بأن التغير المقصود هنا ليس مجرد نقلة فى المكان كما كان يقول أرسطو قديما لكنه انتقال من وضع الى نقيضه ومن حالة الى ضدها ٠

وحين يوحد التصور الأول بين الجدل والتغير ويعتبرهما شيئا واحدا فانه بذلك يعارض بعض الافكار الاخرى عن الطبيعة أو عما فوق الطبيعة ، التى ينظر اليها على أنها ليست جدلية :كالصورة أو المثال ، أو النمط الذى لا يتغير ٠٠ الخ ٠ وقل مثل ذلك فى تصور الجدل على أنه منهج سواء أخذ على أنه منهج للتحليل أو الكشف أولهما معا ـ فهو دائما يتعارض مع بعض المناهج الاخرى التى يقال أنها ليست جدلية كالمنهج الميتافيزيقى والمنهج الحسى المشترك ٠٠ الخ ٠

وهذه الفكرة الأخيرة لها أهمية بالغة لأن التبرير الذى يقدم عادة لاستخدام المنهج الجدلى تعتمد قوته على أنه يؤدى بنا الى الكشف عن حقائق جديدة ، أو الى فهم أعمق لوقائع موجودة ، وتفسير أكثر كفاية للحقائق القديمة ـ لا تتيسر لنا مع أى منهج آخر ٠

ولعله من المصادفات الغريبة أن نجد الفيلسوف الألمانى هيجل قد جمع فى فهمه للجدل هذين التصورين معا ـ وهيجل يمثل قمة الفلسفة والخلاصة التى وصل اليها الفكر البشرى حتى عصره ـ فالجدل عنده هو من ناحية تغير يسرى فى قلب العالم المادى والروحى على السواء ، وهو من ناحية أخرى المنهج الدقيق للمعرفة ـ يقول فى « موسوعة العلوم الفلسفية » : الجدل هو بصفة عامة مبدأ كل حركة وكل ما يتم فى العالم، وهو كذلك روح كل معرفة علمية حقة » (فقرة ٨١ اضافة) ٠

الجدل ٠٠ والعلوم الانسانية

● نصل الآن الى السؤال الثانى : هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين الجدل والعلوم الانسانية ؟ وبأى معنى من المعنيين السابقين يمكن استخدام الجدل فى العلوم الانسانية ٠٠ ؟ الواقع أنه يمكن أن نعثر على المعنيين معا في ميدان هذه العلوم ، اذ يمكن أن يقال من ناحية ان الافكار التى تعالجها العلوم الانسانية قد يساعد فى حل المشكلة المزمنة التى تعانى منها هذه العلوم وأعنى بها مشكلة المنهج ٠ لكن ذلك يحتاج الى شىء من التفصيل : ـ

لابد أن نقول بادىء ذى بدء أننا نعنى بالأفكار الجدلية تلك الافكار التى ترتبط ـ رغم تعارضها ـ ارتباطا وثيقا بحيث تعتمد كل فكرة على الاخرى ولا يكون لها معنى بدونها ، فليس المهم هنا هو ارتباط الافكار فحسب ، لكن الأهم من ذلك ارتباطها بالتضاد ٠ فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الأفكار فى العلوم الانسانية ٠٠ ؟ الحق اننا لو أمعنا النظر فى علم من العلوم الانسانية لوجدنا أن انتشار مثل هذه الافكار لا يحتاج الى دليل : خذ ـ مثلا ـ علم الاجتماع تجد أن الاقطار الاساسية فيه تعتمد على أضدادها: فمفهوم المجتمع نفسه يعنى أنه يتكون من الفرد من الجماعة **وما بينهما من مصالح متعارضة** ، وهو يسعى الى حل هذا التعارض عن طريق سن مجموعة من القوانين ، لكن **القانون** نفسه يعتمد أساسا على **القوة** ، **والبناء** ـ فى أى مجتمع ـ يعتمد بالضرورة على الهدم ويرتبط به ، والنظام يعتمد على الضغط أو القهر ، والتنظيم الاجتماعى يسبقه الصراع ويرتبط به ، واقامة أى نظام اجتماعى يعتمد أساسا على قمع الآخرين ٠٠ الخ (انظر

فى لك : الفهم الفلسفى والعقيدة الدينية · لاريك فرانك ص ١٤) ويقدم لنا هيجل أمثلة أخرى على هه الاقطار الجدلية فيقول : « انه يكفى أن نتذكر كيف تبرهن لنا التجربة العامة على أن الحد الاقصى لحالة من الحالات أو لفعل من الافعال ينقلب فجأة الى ضده ، وهذا اللون من الجدل وجد بطرق شتى فى كثير من الامثال ، فهناك مثل يقول « العدل المطلق ظلم مطلق » وهو يعنى أنك اذا طبقت حقا من الحقوق المجردة الى حده الاقصى فانك ترتكب عملا خاطئا · ونحن جميعا نعرف أن الحد الأقصى للفوضى فى الحياة السياسية ، والحد الاقصى للاستبداد يؤدى عادة كل منهما الى الآخر » (موسوعة ـ فقرة ٨١ اضافة) · واذا ما انتقلنا من الحياة الاجتماعية الى الحياة النفسية وجدنا علم النفس يقدم لنا أمثلة لا حصر لها عن هذه الأفكار الجدلية · فهو كثيرا ما يتحدث عن الشروط الداخلية والشروط الخارجية للسلوك الواحد ومدى ارتباطهما ، وعن عمليتى البناء والهدم ، وعن اللذة والالم وكيف أنهما « يجتمعان معا كما فى حالة التألم من ضرس مريض · فاذا ضغطنا على الضرس بحيث يصبح الالم حادا نشعر فى نفس الوقت بلذة قوية يصحبها انفراج فى الصدر وسهولة فى الحركات التنفسية » ·

الدكتور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ص ٧٦ من الطبعة الثانية)

ولقد أشار هيجل الى هذا المعنى حين قال : « ان الدرجات القصوى للألم والفرح ينقلب احداها الى الأخرى فالقلب المنعم بالفرح يعبر عن فرحة بالدموع ، وغالبا ما يعبر الحزن العميق عن نفسه بابتسامة (الموسوعة ـ فقرة ٨١ اضافة) · ويسوق لنا الدكتور يوسف مراد مثلا رائعا فى كتابه السالف الذكر فيقول : « **العاطفة لا تنشأ منفردة منعزلة بل تكون دائما محاطة بمواكب من العواطف الاخرى ، بعضها مؤيد لها وبعضها الآخر مناهض لها · وتصطدم العاطفة بشتى العقبات التى يخلقها العقل حينا والتى تثيرها الاوضاع الاجتماعية حينا آخر ، فللعاطفة منطق خاص يخالف منطق العقل فيقرر لنا منطق العقل أن الضدين لا يجتمعان ، ولكن هذا القانون لا ينطبق بتاتا على العاطفة ، فان قانون العاطفة الاساسى هو : قانون اجتماع الضدين · وقد أقامت مدرسة التحليل النفسى الدليل على صحة هذا القانون ويطلق عليه ··** Law of ambivalance · **وليس الصراع قائما بين العواطف المختلفة فحسب ، بل هو قائم فى طيات العاطفة الواحدة نفسها ، فكل عاطفة مهما كانت سامية تحمل في ثناياها بذور العاطفة المناقضة لها · فالشفقة تكون دائما ممزوجة بشيء من القسوة ، والتعذيب بشيء من العطف ، والحب بشيء من البغضاء ، وعناصر البغضاء تظهر حينا وتختفى حينا آخر ، وهى تعمل أحيانا عملا دفينا دون أن يشعر بها الشخص ، وقد تكون عناصر البغضاء من دواعى تقوية الحب وتدعيمه** » (مبادىء علم النفس العام ص ١٤٧ ـ ١٤٨ من الطبعة الثانية عام ١٩٥٤)

ولكن قد يقال فى معرض الاعتراض : ان هذا النص مع قيمته التى لا تنكر لا ينسحب الا على حالة واحدة من حالاتنا النفسية هى العاطفة ، وليست العاطفة هى كل ما يدرسه علم النفس · ونحن نجيب بدورنا : لقد سبق أن ذكرنا أمثلة من علم النفس لحالات أخرى ، وفضلا عن ذلك فان للعاطفة مكانة خاصة فى الحياة النفسية حتى أنه ليقال أحيانا ان شخصية الفرد أسسها تتحدد وفقا للعاطفة المسيطرة ، ومن هنا فنحن لانملك ردا على هذا الاعتراض ـ فضلا عما ذكرنا ـ أبلغ من أن نسوق النص الآتى من الكتاب نفسه : « **الاتجاه الذى يتخذه تفكيرنا ، والصبغة** التى تصطبغ بها تأويلاتنا ، والكيفيات التى تشكل حركاتنا وأوضاعنا **ترجع فى نهاية الامر الى العاطفة** السائدة المسيطرة · ولا شك ان الفيلسوف أو العالم نفسه يستمد من العاطفة أسباب تنشيط تأملاته واطرادها اذ أن الاهتمام الذى تثيره الافكار لا يكون قويا إلا بمقدار تأثيرها فى الوجدان **وللحالات الوجدانية تأثير بالغ فى عمليات التذكر** ·· أما تأثير العواطف فى الاعتقاد ، فلا يقل جلاء وشدة عن تأثيرها فى تداعى الأفكار واستيحائها ·· » (ص ١٤٩) وينتهى الدكتور يوسف مراد من هذا كله الى هذه النتيجة : « **خلاصة القول أن الصراع دائم الاحتدام بين** العواطف نفسها من ناحية ، وبين العواطف والعقل من ناحية أخرى » (ص ١٥٠) · والازمات النفسية هى الحالات التى يخضع فيها الانسان **لتجاذب قوى بين دوافع متعارضة** ، ويصبح الانسان عرضة للاضطرابات النفسية والجسمية ان لم يوفق الى حل الأزمة بطريقة سريعة مرضية ، حقيقية كانت أو وهمية · (نفس المرجع السابق ص ١٥١) ،

واذا ما انتقلنا من الحياة النفسية الى الحياة الاخلاقية وجدنا : « أن العقل الاخلاقي يتطلب من الفرد أن يقهر أنانيته ويحيا للخير العام ، وأن يتخلى عن فرديته فى سبيل الصالح العام ، لكن هذه المحاولات تجد حدودها فى الطبيعة الفطرية للارادة البشرية • فالفرد فى محور وجوده الاساسى يقاوم مقاومة عنيدة متطلبات العقل ، انه يريد أن يكون كما هو ، ويرغب فى التعبير عن فرديته الخاصة فى حياته • وتلك هى الخاصية العجيبة للانسان : فعناده الفطرى وعدم اتساق ردود أفعاله • **هى التى تجعل الصراع فى الحياة العملية أمرا لا يمكن تجنبه** » (اريك فرانك « الفهم الفلسفى والحقيقة الدينية ص ١٤ ـ اكسفورد ١٩٥٢) •

ويقول هيجل : « اننا نجد الجدل فى ميدان الاخلاق فى تلك الاقوال المعروفة جيدا : « الغرور يسبق الانهيار » و « سرعان ما تقل السكين الحادة » و « المفروط فى الخداع والحيلة يخدع نفسه » ، (موسوعة فقرة ٨١ اضافة » • وهذه الأمثلة موجودة فى اللغة العربية ـ العامية والفصحى على السواء (« اذا اشتد الكرب هان » و « أضيق الأمر أدناه الى الفرج » و « لا تتم الحيلة الا على الشاطر » و « الشىء اذا زاد عن حده تقلب لضده » الخ الخ) ـ لكن الامر لا يتوقف عند حدود مجموعة من الامثلة هنا وهناك لكنه أهم من ذلك وأعم ، فما نريد ابرازه هنا هو أن الافكار الاخلاقية نفسها أفكار جدلية : فالفضيلة لا يكون لها معنى الا من حيث ارتباطها بالرذيلة ، والخير لا يفهم الا من خلال الشر ، والخطيئة لا تفهم الا من حيث ارتباطها بالله (ولقد كشف كيركجور النقاب عن الفكرة الأخيرة بطريقة لا تدع مجالا للشك) والأمانة لا تفهم بمعزل عن السرقة ؟ وليس السلوك الأخلاقى سلوكا ايجابيا بينما السلوك اللا أخلاقى مجرد سلب للسلوك الاول ، بل ان كلا منهما يمكن أن ينظر اليه على أنه ايجابى وسلبى فى أن معا لأن كلا منهما فعل موجب : فالشخص الامين هو الذى لا يسرق والسارق هو غير الأمين ، وما هو سلب من وجهة **نظر الدائن** ايجاب من وجهة نظر الدين ، والعكس صحيح أيضا ، وقد أوضح هيجل ذلك بطريقة رائعة •

أما عن ميدان « التاريخ » فيرى « كولنجوود » « اننا حين نحدث عن الاقطار الداخلية التى تنبثق منها الأحداث التاريخية ، فاننا **لا نستطيع أن نتفادى استعمال الالفاظ الجدلية كما هى الحال** مثلا حين نعرض للتناقض بين الانظمة الدينية التى تستند الى استقلال الكنيسة والفكرة الاسقفية • فلا بد لنا من أن نسلم بأن العلاقة بين فكرة « كهنوتية » جاءت عن طريق الوراثة من الرسل وفكرة « كهنوتية » لا تقوم على هذا الاساس علاقة جدلية ونجد استنادا الى وجهة النظر هذه أن المدنية الاغريقية هى تحقيق للفكرة الاغريقية عن الانسان ، وأن المدنية الرومانية هى تحقيق للفكرة الرومانية عن الانسان ، وأن العلاقة بين هاتين الفكرتين علاقة جدلية •• الخ الخ » (فكرة التاريخ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ من الترجمة العربية)

المنهج الجدلى •• والعلوم الانسانية

سبق أن ذكرنا فى تحليلنا لفكرة الجدل بصفة عامة أن هناك تصورا يجعل الجدل منهجا خاصا لتحليل التغير ، وأنه يقال أحيانا أن هذا المنهج يتفق مع التغير الجدلى الذى يسرى فى الوجود ، ولعل أوضح مثال على ذلك هو التحليل الماركسى لتطور المجتمع ، فها هنا نجد أن التغير الجدلى الذى يخضع المجتمع فى سيره يتفق تماما مع التحليل الجدلى لهذا السير ، أعنى أن القوانين التى يخضع لها تطور المجتمع البشرى (وحدة الأضداد ، ونفى النفى ، وتغير الكم الى كيف) هى نفسها قوانين المنهج الجدلى عندهم ، ومن هنا كان فهم التطور الاجتماعى لا يعنى أكثر من الكشف عن هذه القوانين التى تحكم هذا التطور حين ينتقل المجتمع من مرحلة الى أخرى : ففى استطاعتنا أن نرى التناقض كامن فى أقدم أشكال النظم الاجتماعية وهو نظام المشايعة البدائية ، فهو موجود بين مصالح الافراد الذين تتكون منهم القبيلة الواحدة ، ثم هو موجود بين القبيلة والقبائل المعادية لها ، وهو موجود أخيرا بين المجتمع القبلى بصفة عامة وقوى الطبيعة المعاكسة • كما أن الملكية خضعت لسلسلة طويلة من نفى النفى فقد بدأت بالملكية العامة ، غير أن هذه الملكية العامة التى كانت شائعة فى العصور البدائية أصبحت فى المراحل العليا من التطور الزراعى عائقا للانتاج ولهذا الغيت أو سلبت ، وتحولت بعد سلسلة طويلة أو قصيرة من الحلقات الوسطى الى ملكية خاصة حين مارس الانسان الزراعة • واستقرت القبائل الرحل واقتسم أفرادها الارض ، وهكذا عرف الانسان التملك ، ونشبت فيه الرغبة

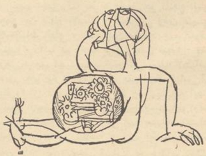
في توسيع رقعة الارض التي يملكها . ولكن حين تطورت الزراعة من جديد الى مرحلة أعلى ، أصبحت الملكية الخاصة عائقا وظهرت الحاجة الى الغائها أو سلبها وكان لا بد من أن تعود الملكية العامة من جديد لا في صورتها القديمة بل في اطار آخر جديد بحيث لا تصبح عائقا للانتاج أو انما متحررة من جميع القيود بحيث تتمكن من استغلال المكتشفات الحديثة (راجع كتابنا عن : المنهج الجدلي عند هيجل ص ٢٠ ـ ٤ دار المعارف) ومن المهم أن نلاحظ هنا أن النفي لايعني الفناء ولكنه يعني السلب والمحافظة في أن معا فالعناصر الجوهرية في الظواهر القديمة لا تفنى، وانما يحتفظ بها في صورة جديدة في مراحل التطور الاعلى ، فالانسان البدائي ـ مثلا ـ في المرحلة الاولى من التطور الاجتماعي صنع لنفسه أدوات مصنوعة من الحجارة ، فلما تطور المجتمع ألغيت هذه الأدوات وحل محلها أدوات معدنية فكانت الثانية سلبا للأولى ، لكنها مع ذلك احتفظت بالعنصر الاساسي في الادوات القديمة كقدرتها على القطع وشكلها ـ كما هي الحال في الفأس الحجرية والفأس الحديدية ، وما يقال على المجتمع القديم يقال أيضا على المجتمع الحديث فصناعة الآلات كانت تقدما هائلا في تطور أدوات الانتاج ، فآلة النسيج ـ مثلا ـ كانت نفيا للنول اليدوي الا أنه نفي جدلي ، بمعنى أنها حافظت على مبدأ العمل في النول اليدوي القديم ، وهذا ما يحدث في التقدم التكنولوجي بصفة عامة : فالتصميمات الجديدة للآلات هي نفي للآلات القديمة مع المحافظة على ما هو قيم في التجربة الانتاجية السابقة . وهذا هو الطابع العام للتطور الاجتماعي ، فهو لا يسير في خط مستقيم ولكن في خط « لولبي » ان صح التعبير فكل مرحلة يبدو أنها تعود الى الوراء لكنها في الحقيقة تصعد الى أعلى حاملة معها العناصر الاساسية في المرحلة السابقة وكل مرحلة من المراحل الذي يسير فيها التطور الاجتماعي تبرز تناقضاتها الخاصة ، أو مشاكلها التي لا تستطيع حلها فتتراكم بحيث يصبح انتقالها الى مرحلة أعلى أمرا لا مندوحة عنه . وهكذا تطور المجتمع البشري من المجتمع القبلي الى مجتمع الرق في عهد الرومان ، ومن مجتمع الرق الى النظام الاقطاعي في العصور الوسطى الذي كان يقوم على رقيق الأرض ، ثم تطور اقطاع العصور الوسطى الى الرأسمالية الحديثة التي وصلت في تطورها الى نقطة لم تعد فيها قادرة على حل المشكلات التي خلقتها كالبطالة المزمنة ، والفقر ، والهوة التي تفصل بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال الخ . ومن هنا فهي لا بد أن تخلي مكانها لنظم تكفل العمالة والا من الاقتصادي للجميع أي لنظام يعتمد على الملكية الجماعية وتخطيط الانتاج لخير الجميع لا للربح الخاص .

هذا مثل من أمثلة الالتقاء بين الشعورين السابقين للجدل ، لكنه يقدم لنا « نظرية » عن التطور الاجتماعي أكثر مما يقدم منهجا للبحث والدراسة . ومن هنا نعود الى التساؤل : هل يمكن أن يكون للمنهج الجدلي ـ كمنهج للدراسة ـ دور في مجال العلوم الانسانية .. ؟ الاجابة تتحدد وفقا لنظراتنا لموضوع هذه العلوم أعني : الانسان . فاذا اعتبرناه جزءا من الطبيعة كان معنى ذلك أنه يخضع لحتمية صارمة ـ تشبه حتمية الظواهر الطبيعية ـ لا يكشف عن قوانينها الا استخدام المنهج التجريبي . أما اذا كان يتميز بعنصر فريد لا نظير له في ظواهر الطبيعة كان المنهج التجريبي وحده غير كاف لدراسته . أي أن المشكلة هنا تبرز مشكلة الحتمية والحرية عند هنا تبرز مشكلة الحتمية والحرية عند الانسان،ولهذا فان الطبيعيين يستبعدون أي منهج آخر غير المنهج التجريبي في مجال العلوم الانسانية ، بل ويذهبون الى القول بأنه اما أن يخضع الانسان لحتمية صارمة واما أن يكون حرا فيطرد في نفس الوقت من حظيرة العلم . غير أن الفهم الحقيقي لمشكلة الحتمية والحرية هذه ينبغي أن يكون فهما جدليا في صميمه ، **ذلك لأن تحليل وقائع السلوك البشري تكشف لنا بصورة دائمة عن الاسباب والبواعث التي صدر عنها هذا السلوك ، لكن** شعورنا بالحرية من ناحية أخرى لا يمكن أن يكون **أقل حقيقة من هذه الاسباب والبواعث .** ويمكن أن نقول بعبارة أخرى ان هذه الاسباب والبواعث مقدمات جوهرية ـ لكنها ليست ضرورية ـ للفعل وهي لا تصبح ضرورية الا بعد حدوثه . ومن هنا كان الجانبان ضروريان لفهم الانسان ، بل ان كل جانب منهما ضروري لفهم الجانب الآخر . والواقع أنه **يستحيل علي أن أمارس حريتي بدون حتمية** وذلك لأنني لا أستطيع أن أسلك الى الغاية التي حددتها لنفسي الا بفضل معرفتي السابقة بالقوانين الخارجية والقوانين الداخلية التي تسيطر على حياتي الباطنية .



وعلى ذلك فاننا نستطيع أن نقول بصفة عامة انه من المستحيل أن نجد ماهية الانسان الحقيقية فى المادة وحدها (أو فى الجانب الطبيعى الذى يخضع للحتمية) ، ولا فى الفكر وحده (أو فى الجانب الداخلى الحر) » : ولكن الواقعة الاساسية التى ينبغى أن يبدأ منها كل فهم حقيقى للانسان هى أن الانسان ليس فكرا فحسب ، ولا هو طبيعة فقط لكنه : **الصراع الجدلى بين هذين الجانبين** » (اربك فرانك فى المراجع السابق ص ٨) · وهنا نجد المنهج الجدلى يطل برأسه فى ميدان العلوم الانسانية : فهل يجوز استخدام مثل هذا المنهج فى ميدان هذه العلوم ·· ؟ وهل يمكن أن يساهم فى حل مشكلة المنهج التى تعانى منها هذه العلوم ·· ؟ اننا اذا ما صدقنا مايذهب اليه هيجل من ان الموضوع – لا الباحث – هو الذى يحدد المنهج الذى يسير عليه البحث ، واذا كان الموضوع – وهو الانسان – عبارة عن صراع جدلى بين هذين الجانبين ، أو هو المتناقضة التى لايمكن حلها بين هذين الجانبين كما يقول فرانك فى كتابه السالف – فهل يكو المنهج الجدلى أقرب المناهج الى هذا الموضوع ·· ؟ لكن ما المقصود بالمنهج الجدلى هنا ، وكيف يمكن الاستفادة منه فى مجال العلوم الانسانية ·· ؟

المنهج الجدلى كما يعرفه هيجل هو **المنهج الذى يجمع بين منهج الاستقراء التجريبى وبين منهج الاستنباط العقلى** ، لكنه ليس مجرد جمع أجوف بينهما ، وانما هو نفسه مركب جدلى منهما · فقد عرض هيجل لتصنيف المناهج التى يعتقد أن الناس لديهم عنها فكرة خاطئة : « فقد اعتاد الناس أن ينظروا الى المنهج التجريبى (وهو يسميه أيضا بالمنهج التحليلى) وكذلك الى المنهج الاستنباطى (وهو يسميه بالمنهج التاليفى) على أنهما يعتمدان اعتمادا تاما على رغباتهم الخاصة ، وأن اختيار أحدهما دون الآخر أمر يتوقف أساسا على ميولهم ، ولكن ذلك وهم خاطىء : لأن اختيار أحدهما دون الآخر وسيلة للبحث يعتمد أساسا على موضوعات البحث نفسها · فهى وحدها التى تحدد المنهج الذى تسير عليه ·· ومن هنا فقد وقع علم النفس التجريبى فى خطأ كامل حين قام بتحليل السلوك البشرى ورده الى مظاهره المختلفة ، ثم أبقى على هذه المظاهر معزولة بعضها عن بعض · ومن هنا بدا الموضوع الذى يدرسه علم النفس ويخضعه للتحليل كما لو كان نوعا من البصل تنزع قشرته واحدة بعد الاخرى » (الموسوعة – فقرة ٢٢٧ اضافة) · ومع ذلك فان هيجل يرى أن هذين المنهجين لازمان وقد حققا نجاحا فى مجاليهما الا أنهما لا يصلحان لدراسة الانسان ، والمنهج الصحيح عنده هو المنهج الجدلى ، وهو منهج تحليلى وتأليفى فى آن معا (أى أنه منهج استقرائى وعقلى فى آن واحد) ، ويضيف هيجل : **ان ذلك لا يعنى أن هذا المنهج هو مجرد جمع لهذين المنهجين المتناهيين ، وانما هو يمزج بينهما ويدمجهما فى ذاته ، بحيث ترى التحليل والتاليف فى كل خطوة من خطوات سيره** » (**موسوعة فقرة ٢٣٨** اضافة) – فهو حين يتقدم من الكلى المجرد عن طريق التخصيص شيئا فشيئا الى المعنى فهو تأليفى ، وهو لأنه يبدأ من المباشر ويتقدم من خلال المتوسط الى الكلى الذى يحوى المباشر السابق فى جوفه فهو لذلك تحليلى · وبعبارة أخرى : المنهج الجدلى منهج **تحليلى حين يعتمد على تحلل الظاهرة الموجودة أمامه ويصعد منها الى الفكر (خطوة الاستقراء) وهو منهج تاليفى حين يهبط من الفكر المجرد الى الواقع العينى (خطوة الاستنباط العقلى) فهو حوار دائم بين الفكر المجرد والعينية المشخصة وهو تعبير صادق عما بينهما من صراع دائم** · والمنهج الجدلى بهذا الشكل يقدم لنا لونا جديدا من الحوار هو الحوار القائم بين ما هو عينى وماهو



مجرد ، ثم هو من ناحية أخرى يعارض الفكرة القديمة التى كانت تذهب الى أن الفكر حين يدرك الموضوع فى عينيته وأنه لا يلبث أن يصوغ منه فكرة كلية مجردة تسقط الجزئيات ، ولا تبقى الا الا على خصائصه الكلية الاساسية وحدها • فها نحن أولاء نرى أن تهم الانسان فى عينيته فهما خالصا ليس الا وهما ، وقل مثل ذلك فى التصور المجرد تجريدا كليا على حد سواء ، فالمنهج الجدلى يكشف لنا عن القول بأن هناك تصورات مجردة تجريدا كليا عن الانسان بحيث لا تستدعى أى وقائع عينيه هو قول خاطىء تماما بل انه ليخلو تماما من المعنى ، ذلك لأن هذه الوقائع العينية الضرورية لكل تفكير ليست موضوعا من موضوعات الفكر ، ولكن لا بد لكل تفكير أن يستند اليها فى سبيل تجاوزها والارتفاع نحو الكليات المجردة صحيح ان الفكر فى نظر الجدليين يبدع المجردات باستمرار ، لكنه لا يتخذ منها بعد صياغتها مستقرا دائما وثابتا له ، وانما يعود القهقرى ويبحث عن تحقق عينى جديد يقوم مقامها ، ومن هنا كانت **ماهية الفكر الجدلى الحركة المستمرة من الاشياء المجردة ، أو المعانى العامة الى المعنى ، ومن المعنى الى المجرد •**

وقد يجوز لنا الآن أن نتساءل : هل يمكن استخدام مثل هذا المنهج فى ميدان العلوم الانسانية يعنى أن تستخدم هذه العلوم المنهج التجريبى فى كل مجال يتيسر لها فيه استخدامه ، ثم أن تكون على وعى فى نفس الوقت بأن الامر لم ينته عند هذا الحد وانما هناك خطوى أخرى هى الخطوة التاليفية بلغة هيجل ـ تستخدم فيها الاستنباط العقلى الذى يضيف الى نتائج المناهج التجريبية الخبرات الذاتية الفردية ، وخبرات القرون الماضية كلها •• ؟ وسوف نترك « كولنجورد » يجيب عن هذا السؤال بتقديم مثال لامكان استخدام هذا المنهج فى علم من العلوم الانسانية ـ وهو التاريخ ـ يقول : « **ان الخطأ الأساسى الذى وقع فيه « فشته » فى دراسته للتاريخ هو اعتقاده أن التاريخ يمكن أن يكتب استنادا الى استدلال عقلى بحت ، دون الاعتماد على البرهنة التجريبية • ونجد من ناحية أخرى أن الذين تعرضوا لنقد هيجل ظلما وقعوا فى الخطأ المضاد لهذا ، وهو اعتقادهم بأن المعرفة التاريخية تعتمد على المنهج التجريبى البحت وقد استطاع هيجل نفسه (تطبيق المنهج الجدلى) أن يتفادى هذين الخطأين معا ••** » (فكرة التاريخ ص ٢١٧ من الترجمة العربية) •

وبديهى بعد هذا الذى تقدم أن نلتقى بهذا السؤال : هل هناك خطوات محددة يقدمها المنهج الجدلى بحيث يستطيع العالم أن يسير على هديها فى دراسته لموضوع بحثه •• ؟ ونجيب : أولا : ان ان هذا المنهج ليس منهجا **علميا لكنه منهج فلسفى ،** وثانيا : لا يمكن أن توضع خطوات ثابتة ومحددة لهذا المنهج والا لتحول هو نفسه الى منهج ميتافيزيقى أحادى الجانب ، ذلك لأنه من صميم الجدل أن يظل متفتحا وأن يتضمن الغاء الخطوات التى يضعها طوال سيره : فاذا ما وضعت خطوات فى مرحلة معينه ، فلا بد أن تكون هى نفسها فى مرحلة تالية موضوعا تنفيه خبرة جديدة ••وهكذا بحيث **لا يبقى لدينا فى النهاية سوى الحركة الجدلية نفسها** لأن الجدل هو فى جوهره ـ كما قال هيجل ـ حركة وعلى ذلك فلا الخطوات التى وضعها هيجل فى منهجه الجدلى ، ولا « القوانين » التى اقتبسها الماركسيون من هذا المنهج وأطلقوا عليها اسم « الجدل الماركسى» يمكن أن تعتبر خطوات منهجية محددة للدراسة والبحث ـ ولسنا نقصد باستخدام المنهج الجدلى فى العلوم الانسانية هذا المعنى : لكن المقصود هو **استخدام الحركة الجادلية (أوالفهم الجدلى ، أو الروح الجدلية) التى تستفيد من المنهج والمنهج العقلى فى آن معا ـ فى فهم الانشطة البشرية المعقدة •**

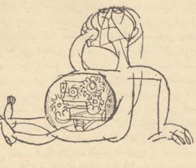
ولكى نوضح الفكرةالتى نعنيها هناتقول :اننى اذا ما أخضعت الانسان للملاحظة والتجربة فاننى بذلك أفهمه فهما علميا ، واذا ما درست الانسان دراسة عقلية قبلية أعنى بعيدة عن كل تجربة ، فانا بذلك

أفهمه فهما ميتافيزيقيا ، لكنى حين أدرس الانسان كصراع بين جانبين (الطبيعى والعقلى » من ناحيـة واضعا فى اعتبارى نتائج الدراستين الســـابقتين من ناحية أخرى ـ فاننى بذلك أفهمه فهما جدليا (ومن هنا كان الجدل العلمى المعاصر حوارا بين ما هو قبلى وما هو بعدى) • ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الخطوة الاخيرة ـ بالغا ما بلغت النتائج التى أصل اليها عن طريقها ـ لن تكون هى نهــاية المطاف ، بل سوف تنفيها الدراسات العلميـة والفلسفية المقبلة ، ومنهما معا ـ من الخطوة القديمة والدراسات الجديدة ـ يتكون مركب جدلى جديد تنفيه دراسات المستقبل •• وهكذا باستمرار •

ومما تجدر ملاحظته **أن خطوة النفى أو السلب هذه سوف تفسح المجال أمام حرية الارادةالبشرية للظهور وممارسة نشاطها الحر ، وسوف تجعلنـا باستمرار على استعداد لفهم هذا النشاط وتفسيره** وسوف يكون التقدم على هذا الاساس هو تقدم فى الوعى بوجود الحرية كما قال هيجل • وواضـح أن الجدل بهذا المعنى ليس الا تعبيرا عن ديناميـة الفكر الذى يتوخى بصورة دائمة الا يتوقف أبدا فى تقدمه نحو فهم الانسان فهما أكثر كفـاية وهو بهذا المعنى يختلف عن الجدل القديم لأنـه لا يهدف الى الدفاع عن نظرية من النظريات ، بل هو على العكس **تهمة أرض المعركة أكثر من المعركة ذاتها ، وهو يهتم بحركة السير أكثر من اهتمامه بعدد الممالك التى يغزوها** ، واذا كان جدل زينون الايلى قد جاهد فى هدم آراء الخصوم فان الجـدل هنا يتخطى عمله نفسه لا لكى يهدمه بل لكى يجعل هذا العمل أكثر غنى بالعناصر الحقيقة المتضمنةفى النظريات المعارضة ولكى يثرى هو ذاته ويتحرر من القيود التى فرضتها عليه معرفته الاولى •ومن هنا كانت نقطة فرضتها عليه معرفته الأولى •ومن هنا كانت نقطة انطلاقة باستمرار الدراســات الجديدة التى يجد فيها ما يصدمه ، لأنها تتناقض مع المعرفة التى حصلهـا حتى الآن من ناحيـة ويجب مع ذلك ادماجها فى هذه المعرفة من ناحية أخرى •

ويمكن أن نقول فى النهاية ان ادخال الحـركة الجدلية فى فهم العلوم الانسانية سوف يفيدنا ـ على الأقل ـ فى أربع نقاط هامة : ـ

أولا : ـ ان هذه الحركة الجدلية سوف تكشف لنا **عن حوار دائم بين الذات والموضوع ، وهو الحوار**



الذى يطرح انصاف الحقائق ويبين لنا بالتالى مدى القصور فى الموقف الذى اتخـذه كل من الطبيعين واللاطبيعيين فى فهمهم للانسان • ففى مجال العلوم الانسانية فليس ثمة ذاتية خالصة ، ولا موضوعية مطلقة ، وانما تتشكل الذات وفقا للموضوع ، ويتشكل الموضوع وفقا للذات ، فلا واحد منهمـا بمستقبل عن الآخر ، ولا هو واقعة تامة ومنتهية لكنهما معا يتشكلان نتيجة لتفاعلهما وهما لهـــذا ضرورة مستمرة ، وتطورهمـــا مرتبط أيضا بنمو المعرفة البشرية • وواضح أن السبب هو أن الذات والموضوع فى مجال العلوم الانسانية هما شىء واحد هو : الانسان ، واذا كان **الانسان مشروعـا** واذا كان هذا المشروع لا يكتمل الا بفنائه ، برزت ضرورة الفهم الجدلى للانسان ، ذلك الفهم الذى يتطور باستمرار فى اتجاه حركته •

هذا يسرى على تطبيق المنهج الجدلى على كلمعرفة لا على العلوم الانسانية بالذات •

ثانيا : سوف يترتب على ذلك نتيجة هامة هى ان المعلومات والمعارف التى تجمعهاالعلوم الانسانية يجب ألا يفهم منها أنها تشكل صرحا نهائيا يقوم على أسس راسخة كما هى الحال فى العلوم الطبيعية لكنه **صرح يعاد انشاؤه دون انقطاع ،** إنه بنـاء متجدد دائم التطور ، فليس ثمة حقائق موضوعيـة ونهائية لأن نظراتنا تتجدد الافكار فى كل جيل

ثالثا : ـ ان هذه النظرة تفتح لنا الطريق إمام احتمالات المستقبل وما يحمله فى طياته من وقائع جديدة • وحالات لم تعرف من قبل ، وبالتالى فان النتائج التى وصلنا اليها الآن لا بد أن تتعدل فى المستقبل • ومن هنا نتسع المجال أمام حـــرية

الارادة البشرية ويظل الفكر متفتحا ومتهيئا لتقبل أفكار جديدة تتعارض مع الأفكار التى نعرفهـا ، ومعنى ذلك كله **استحاله التنبؤ بالمستقبل وقصر المعرفة على الحاضر وحده** · ولهذا فقد كان هيجل رائعا حين وقف فى تحليله للتاريخ عند العصر الذى عاش فيه دون أن يتجاوزه لكى يتنبأ بالمستقبل (على الرغم من أن بعض شراحه فهموا من ذلك أنه يمجد الدولة البروسية ، وهو خطأ من أفدح الأخطاء التى وقعوا فيها) ـ **لأن التنبؤ بالمستقبل أمر لا يمكن قبوله فى ميدان العلوم الانسانيـة التى تلعب فيها الارادة البشرية دورا لا يستطيـع البحث الدقيق اغفاله·ومن هنا قال هيجل ـ بحق ـ ان التاريخ ينتهى فى الحاضر لا فى المســـــتقبل** كولنجوود المرجع السابق ص ٢٢٠ وما بعدهما)

رابعا : ـ ان هذه النظرة سوف تمكننا من تطبيق المنهج التجريبى والافادة من نتائجه ، كما أنهـا تمكننا فى الوقت ذاته من الاستفادة من المذاهب الفلسفية والخبرات الانسانية الاخرى ، فالباحث هنا ينفتح على نظريات متعارضة مطلقا ولا يلبث أن يلجأ اليها واحدة بعد الاخرى بحيث ينشأ **لون من ألوان الحوار بينه وبين المذاهب المختلفة ينتهى بتكوين صوره أكثر نفجا** وأكثر عينية واكتمـالا عن الانسان · ومن هنا فقد أخطأ « سيدنى هوك » ـ فى اعتقادى ـ حين اعتبر المنهج الجدلى معارضا للمنهج العلمى التجريبى ، فقد رأينا أن هذا الأخير هو نفسه خطوة مكونة للمنهج الجدلى · فالمؤرخ ـ كما يقول كولنجوود مثلا ـ لا بد له أن يبـــدأ بالمنهج التجريبى فى دراسته للوثائق والمصـــادر التاريخية المختلفة ، لكنه يخطىء ان وقف عند هذه الخطوة ، فعليه بعد ذلك أن ينظر الى هذه الوقائع من داخلها ، وسوف يجد أنها من الناحية الداخلية أفكار يرتبط بعضها ببعض بعلاقة جدلية (نفس المرجع السابق ص ٢١٧ ـ ٢١٨) ـ ومعنى ذلك أن اجنهج الجدلى لا يسعى الى أن يحل محل المنهج التجريبى وانما هو يريد أن يشمله ويتخطاه الى نظرة أوسع وأرحب · « ولهذا فاننا نستطيع أن نقول عن الجدل انه مواجهة القضايا والآراء والافكـــار ومناقشتها ، والتساؤل عن معناها الدقيـــق ، والبحث عن الأدلة والاعتبارات التى تدعمها ومايمكن أن يقال ضدها ، والنظر فى البدائل الممكنة ، وما هو أكثر احتمالا من غيره فى هذه البدائل ·· » (ف · كاوفمان » : هيجل : تفسير جديد ، مع نصوص وشروح » ص ١٧٣ ، نيويورك عـــام ١٩٦٥) ·

امام عبد الفتاح امام



آ . كانت

لعله من الجدير بنـا فى مطلع هـذا المقال أن نعلق بكلمات سريعة على مكونات العنوان الذى احترناه له · فقد قلنا **دراسة المجتمع** ، ولم نقل علم الاجتماع ، لأن حقيقة المشكلات المنهجية التى سنعرض لهـا فى حديثنا لا تقتصر ـ فى بعض نواحيها ـ على علم الاجتماع · بل هى قد مست، ولا زالت تمس بعض الجوانب المنهجية فى علوم اجتماعية أخرى : كالاقتصاد ، والانثروبولوجيا، وعلم النفس وغيرها من العلوم التى تشترك فى دراسة الانسان والمجتمع بالمعنى الواسع ·

أما **الامبيريقية** فهى دلالة على اتجـــاه ـ قديم جديد فى نفس الوقت ـ فى دراسة هذا المجتمع الانسانى · وهى كتابة عربية لكلمة empirical التى ترددنا فى ترجمتها بتجريبى لأن الامبيريقية وهى الاحتكام الى الواقع أوسع مدلولا من التجربة التى هى ـ على نحو ما سنرى فيما بعد ـ مجرد أداة من بين أدوات عـــدة يصطنعهـا الاتجـــاه الامبيريقى · كمـا عزفنا عن ترجمتها بالعلمى ،

إذا أراد علم الاجتماع أن يشق طريقه كعلم امبيريقي ، فلا يكفي أن يختار أية ظواهر ويقوم بملاحظتها ووصفها وتصنيفها ، بل إنه يحتاج الى نسق فكري ، يحدد الشيء الخاص المتميز في الوقائع السوسيولوجية .

دراسة المجتمع بين الامبيريقية والتنظير

د. محمد محمود الجوهري

لأن صفة العلمي واسعة ، أشمل من الامبيريقية، ويمكن أن تنسحب على الامبيريقية وعلى غيرها . بينما الامبيريقية اتجاه ملموس ومعين بالتحديد. ولا داعي لاستعراض محاولات ترجمات أخرى بدت في نظرنا جميعها غير موفقة ، لأنها غير دقيقة في تعبيرها عما نحن بصدده فأثبتناها بحروف عربية . وهو أمر ليس وقفا علينا فقط، فقد استعارت الكلمة كما هي لغات أخرى ، كالالمانية مثلا . (كذلك استخدمها حامد عمار في كتابه « المنهج العلمي في دراسة المجتمع » ، القاهرة ، ١٩٦٠ على طول الكتاب ، وان كان قد

كتبها الامبريكية) • وهى الآن متداولة فى كل كتابات الاجتماعيين المصريين الشبان •

أما كلمة **التنظير** فليس مقصورا بهـا بطبيعة الحال اطلاق العنان للفكر التأملى بغـير حدود ، وانما مقصود بها ـ كذلك ـ اتجاه بعينه يهدف الى تأكيـد دور النـــظرية فى توجيه البـــحث الاجتماعى ، والمزاوجة بين الامبيريقية والنظرية ، أو بمعنى آخر أن يتم البحث الامبيريقى طبقا لاطار نظرى محدد سلفـا ، ومرتكزا فى بعض مراحله على عمليات عقلية نظرية •

قضايا الاتجاه الامبيريقى وأدواته :

لعل أفضل ســـبيل للتعرف على القضـــايا الاساسية للاتجاه الامبيريقى ، وأدواته فى البحث ، أن نستعرض بايجاز تاريخ استخدام هذا الاتجاه فى الدراسات الاجتماعية ، وما صحب ذلك من تطورات وتذبذبات فى توكيد أهميـــة كل أداة منها • ثم نعمد فى الشطر الثانى من المقـال الى استعراض الاسس النظرية التى لا يمكن أن يقوم بدونها علم اجتماع امبيريقى • ونحن فى كل هذا حريصـــون كل الحرص على الابتعاد عن الحماس الزائد لأى من الاتجـــاهين على حساب الآخر ، فالاندفاع فى تأكيـــد أهميـــة الامبيريقية ـ والامبيريقية وحدها ـ شأنه تماما شأن المبـالغة فى الدعوة الى التنظير فى علم الاجتماع : مجانبة خاطئة لحقيقة البحث الاجتماعى العلمى كما ينبغى أن يكون • فنحن بذلك نشـارك حامد عمار فى تخطيئه للاتجاه القـائل باعتبار المنهج الامبيريقى المنهـج العلمى الوحيد فى الدراسات الاجتماعية والانسانية • على أننـــا ـ من ناحية أخرى ـ نختلف معه فى اعتبـــاره المنـاهج التاريخية ، والانثروبولوجية ، ومناهج التفكير المنطقى مناهج مستقلة أو مختلفة ـ ذات كيـــان متميز ـ عن المنهج الامبيريقى • ذلك أننا اذا فهمنا الامبيريقية على أنهـــا الاحـتكام الى الواقع ، فاننا فى اطار بحوثنا الامبيريقية ـ وكما سنرى فيما بعد ـ نلجأ الى منـــاهج كمية تمـــاما كما نستعين بالمناهج الكيفية • فالامبيريقية بمعناها الواسع تأخذ فى اعتبارها الوثائق التاريخية ، والتراجم الذاتية ، والسجلات الحكومية والخاصة على السواء ٠٠الخ كما تحـاول ضبط الملاحظة • وهى فى النهـاية لا يمكن أن تقترب من هذا الواقـع الا فى ضوء مفـــاهيم نظرية معينة تحدد لها المقصود بالفعل الاجتماعى ، والدور الاجتماعى ، والجماعة٠٠الخ٠ هذه هى الصورة العـامة التى نحاول أن نتقصى جوانبها المختلفة فيما يلى •

الفلسفة الوضعية :

اصطبغ مفهوم علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر بمفهومه الذى كان شائعا فى القارة الاوروبية أساسا ، وتصور «أوجيست كونت» له بالذات• وكان علم الاجتماع عنده بمثابة حجر الزاوية فى فلسفته الوضعية٠٠ كان شاهدا على فكر متحرر وتقـــدمى يســـعى الى التخلص من كل تأملات ميتافيزيقية أو لاهوتية • ويســتهدف الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية للوصول الى نتائج مماثلة أو مقاربة لما توصلت اليه العلوم الطبيعية فى فهم القوانين التى تنظم حياة الجماعات والافراد •

حقيقة أن «كونت» قد طالب بأن يصطنع علم الاجتماع فى دراسته العلمية للظواهر الاجتماعية مناهج الملاحظة ، والتجربة ، والمقـارنة ، ولكنه لم يلتزم هو نفسه بتطبيق ما دعا اليه • فظلت كتـــاباته دائرة فى نفس الفلك القديم • لقد أوضح بالقـــول ما يجب أن يكون عليه المنهـــج العلمى فى دراسة المجتمع ، ولكنه لم يقدم لنا نماذج تبرز تمثله هـــذا المنهج الجديد • وهكذا فقـــدت هذه الآراء الجـــديدة المتناثرة فى ثنايا كتاباته كل تأثير ، ولم يلتفت اليها أحد •

حتى جاء عالم الاجتماع الفرنسى الأشهر «اميل دوركيم» فحاول جمع شتات ماجاء عرضا فى ثنايا كتابات كونت ، مثل : «انه لا يمكن أسسا أن تتم ملاحظة سليمة الا اذا وضع البـاحث نفسه خارج الموضـــوع» ، وأنه : « لا تكون لأى حقيقة اجتماعية أهمية حقيقية الا اذا ربطت مبـــاشرة بحقيقة اجتماعية أخرى » أو أنه : « يمكن فى علم الاجتماع اعتبار الحالات المرضية معادلة للتجربة»• (العبارات المقتبسة من كتاب كونت : دروس فى الفلســـفة الوضعية ، الطبعة الرابعة ، باريس ١٨٧٧ ، المجلد الرابع ، صفحات ٣٢٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ على التوالى •)

ولعلنا نذكر هنا أنه قـد صك مصطلح علم الاجتماع كبديل لمصطلح « الفيزياء الاجتماعية » الذى كان قـد قدمه فى البداية للدلالة على علم دراسة المجتمع ؛ وذلك بعـــد أن نشر العـــالم البلجيكى «أدولف كتليه» فى عـام ١٨٣٥ كتابه بنفس العنـوان معتمدا فيه اعتمادا أساسيا على البيـانات الرياضية والاحصائية المختلفة • وقد وصفه كونت بأنه : «مجرد احصـاء بسيط ملىء بالحسابات الخادعة المعتمدة على نظرية الاحتمالات المضللة» • ورفض هذه النظريـة ـ التى لايستطيع البحث الاجتماعى الحديث أن يتخلى عنها البتة ـ رفضا قاطعا • واستمر فيما عدا هذا فى هجومه على كل من التفكير الغيبى والامبيريقية المفرطة •

الاحصاء أداة للقياس الكمى :

فى تلك الأثناء كان الاحصاء معروفا عند علماء الاقتصاد ، ومعترفا به كذلك • وقد ظل محافظا على وظيفة أساسية من وظائفه كأداة للادارة السياسية • الجديد هنا أنه بدأ بعد وقت غير طويل يصبح وسيلة للبحث الامبيريقى فى اطار هذا الفرع من فروع التخصص• وكانت حسابات الاحتمالات قد وجدت مجالا واسعا للتطبيق فى شتى فروع الدراسة كالفلك ، والتأمين ٠٠٠الخ• ثم جاء كل من لابلاس وفورييه وطوراها، وحرباها فى الاحصاءات السكانية • ثم كان لجهود «كتلية» – التى أشرنا الى طرف منها – أكبر الأثر فى تأكيد أهمية القياس الاحصائى فى البحوث الاجتماعية • وهكذا ارتبط تاريخ البحث الاجتماعى الامبيريقى أمدا طويلا بتطور الاحصاء وتقدم استخداماته •

ولن يتسع المقام هنا لاستعراض هذه الحقيقة التاريخية الكبيرة ، المهم أن استخدام الاحصاء قد ارتبط منذ أواخر القرن الثامن عشر بجمع المادة الاساسية للبحوث الاجتماعية من الميدان ، واستخدام طرق الاستبيان (أو كشف الاسئلة) والاستبار (أو المقابلة) وغيرها فى البحوث • وبرزت بصفة خاصة فى الدراسات التى أجريت على أوضاع العمال ومشكلاتهم ودراسات مشكلة الفقر فى انجلترا أصلا • ثم بلغت ذروتها فى ذلك الوقت فى الجهود الرائدة التى بذلها فريدريك لوبلاى (ومنها دراسته الضخمة عن العمال الاوروبيين التى صدرت عام ١٨٥٥) والتى دفعت البحث الامبيريقى دفعات قوية الى الامام •

وقد امتد تأثير لوبلاى الى خارج فرنسا عن طريق الجمعية التى كونها والمجلة التى كان يصدرها • فوصل تأثيره الى انجلترا والى ألمانيا كذلك • وان كان الاقبال عليه فى ألمانيا لم يكن راجعا بالدرجة الاولى الى طرافته المنهجية ، وانما الى اتجاهاته الاصلاحية • وقد استطاع المنهج الاحصائى أن يتطور فى ألمانيا بخطى واسعة بعد أن أصبح استخدام الاحصاء فى الدراسات الاقتصادية أمرا بديهيا • ومن ثم نما مفهوم الاحصاء الاجتماعى بشكل بارز • وانفض النزاع الذى كان دائرا حول ماهية الاحصاء وأهميته فى البحث الاجتماعى بعد أن كتب «روملين» فى سنة ١٨٩٤ يقول : « انه لايمكن تحديد المفهوم الحديث للمجتمع تحديدا دقيقا ، وتحليله علميا الا عن طريق تطبيق المنهج الاحصائى ، وزيادة انتشاره وتعميقه » • بل انه ظهرت فى تلك الفترة المبكرة دعوة من أكثر من مصدر تنادى بتحويل علم الاجتماع الى قياس اجتماعى • وكان أساس هذه الدعوة أن : «من لا يستطيع قياس ظواهر المجتمع لن يكون قادرا على التحكم فيها » •

الفكرة اذن وراء هذه الاحكام وهذه الدقة العالية هى الرغبة فى التحكم فى الظواهر الاجتماعية ، أو التدخل فى توجيه سير تغيرها • لذلك ليس من قبيل المصادفة أن ترتبط هذه البحوث سواء فى القارة الاوروبية أو فى أمريكا بالاهداف الخيرية والنوايا الاصلاحية •

أسلوب المسح الاجتماعى

وقد سخر الباحثون طريقة هامة فى البحث لخدمة هذه الأغراض ، كان لها فضل يذكر فى دفع البحث الامبيريقى الى الامام ، ونعنى بها المسح الاجتماعى • والمسح الاجتماعى عبارة عن عمل تعاونى يستخدم مناهج علمية فى دراسة مشكلات وأوضاع اجتماعية معاصرة فى نطاق جغرافى محدود • ولكنه يعمد فى نفس الوقت الى توصيل الحقائق ، والنتائج والتوصيات التى انتهى اليها الى المجتمع المحلى كله بقدر الامكان • وهو يستهدف بهذه الطريقة التوصل الى أساس فعال للعمل المشترك الواعى • فالمسح الاجتماعى الامريكى كان يستهدف واعيا اذن غايات اصلاحية تربوية• وقد غطت المسوح الأولى مجالات واسعة كل السعة : فكانت تمثل بصفة عامة دراسات مجتمعات محلية بأكملها ، بدأت فى أول الامر بأحياء صغيرة من بعض المدن ، ثم شملت مدنا كبيرة عن آخرها ، بل وحاولت أن تغطى أقاليم وبلادا بأكملها • ولكنها سرعان ما اتجهت الى التركيز على جوانب معينة كانت تعتبر ذات أهمية خاصة فى نظر أصحابها ، مثل : الامور الصحية، وشئون الاسكان ، والتربية ، وبعض ظروف العمل ، والترويح وقضاء أوقات الفراغ ، وجناح الأحداث ٠٠٠الخ ولكن العملية كانت فى جميع الاحوال واحدة : تسجيل متعدد الجوانب ، حيث يضطلع القائمون بالمسح الاجتماعى بملاحظة ظاهرة اجتماعية معينةمن واقع الحقائق الملموسة، ووصفها ، وتحليلها • ولكن ظل محور الارتكاز دائما : أن تكون البيانات قابلة للمقارنة بقدر الامكان ، موضوعة فى صورة كمية قابلة للقياس، وعلى هيئة وحدات ممثلة للمنطقة المدروسة ككل• أما البيانات نفسها فكانت تجمع بوسائل شتى منها : البيانات الاحصائية المتوفرة ، والاعمال الادبية ، وقصاصات الصحف، وكشوف الاسئلة، والاستبارات (المقابلات) ، والاحصاء بالعينة ، والمناقشات مع الجماعات ، والملاحظة المباشرة والملاحظة المشاركة ، والوثائق الشخصية ،

والتراجم الذاتية ، والخطابات ‥ الى آخر ذلك من وسائل يمكن أن تكون ذات عائد للبحث • ونلاحظ هنا أن اشتراك رجال الخدمة الاجتماعية قد جعل من الطبيعى أن يرتكز جامعو البيانات أساسا على طريقة «دراسة الحالة» •

دور جامعتى شيكاغو ونيويورك :

وجدير بنا هنا أن نشير الى دور جامعة شيكاغو فى تشجيع هذا الاسلوب الجديد فى البحث • فاذا « بالمجلة الامريكية لعلم الاجتماع » ـ وهى المجلة الرسمية للجمعية الامريكية لعلم الاجتماع ـ تبدأ منذ عامها الرابع (سنة ١٨٩٩) تنشر بانتظام تقارير عن الدراسات الاجتماعية الحضرية التى أجريت فى شيكاغو ، حيث تحولت المدينة الكبيرة الى «معمل اجتماعى» ـ على حد تعبير عالم الاجتماع الامريكى بارك • وقد ساهم بارك وتلاميذه وزملاؤه من رجال الاجتماع فى تنمية وتطوير هذا الخط الجديد بدراسات جديدة وأصيلة • وأصبحوا يرسمون أسلوب العمل ويحددون الخط الذى تسير فيه بحوث الاجتماع الامريكى والبحوث الاجتماعية الامريكية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، وهى الفترة التى أصبح فيها علم الاجتماع يرتبط لأول مرة بالبحوث الاجتماعية •

والى جانب جامعة شيكاغو كان لجامعة نيويورك فضل يذكر فى المزج بين علم الاجتماع النظرى والبحث الاجتماعى بمناهجه الكمية على وجه الخصوص • ويرجع فضل ذلك الى العالم فرانكلين جدنجز وزملائه •

وهكذا قادت جامعتا شيكاغو ونيويورك عملية التحول التى اعتورت علم الاجتماع التقليدى ، وقدمت لهذه العملية كل ماتحتاج اليه من وسائل معنية • وكان الاجتماع الامريكى قبل ذلك الحين ـ على خلاف الحال فى القارة الاوروبية ـ يخضع لتأثير «الاجتماع الاستنتاجى» الذى كان يقول به الانجليزى هربرت سبنسر •

على أن العنصر الأهم فى تأثير سبنسر على علم الاجتماع الامريكى أنه جعل الاجتماعيين الامريكيين ـ خلافا لما حذر منه أبو الاجتماع أوجيست كونت ـ لا ينفرون من علم النفس • بل ان دراساتهم اتخذت طابعا نفسيا اجتماعيا واضحا • وكان «جيدنجز» ـ أحد رواد المدرسة النفسية فى علم الاجتماع ـ قد نبه الى أهمية التحليلات الكمية لسلوك الجماعات • وكان أن استطاع تلاميذه فيما بعد فرض المناهج الكمية على البحوث الاجتماعية الامريكية نهائيا • نخص بالذكر من بين هؤلاء التلاميذ « ويليام أوجبرن » الذى عرض فى أكثر من دراسة لأهمية استخدام الاحصاء ، وايضاح حدوده كذلك ؛ وستيوارت تشابين الذى كان له فضل فى تحويل طريقه المسح الاجتماعى الى البحث الاجتماعى «التجريبى» ؛ وستيوارت رايس الذى طبق المناهج الكمية فى علم السياسة ، ونشر عدة كتب دراسية لتقريب هذه المناهج ونشرها بين المشتغلين بالبحث الاجتماعى •

تطوير المناهج الكيفية

ولم تهمل مدرسة شيكاغو هذه المناهج الكمية • ولكن البحوث الاجتماعية التى أجريت فى نطاقها اعتمدت بدرجة أكبر على المناهج غير الكمية (الكيفية) • فنجد ويليام توماس ـ الذى قدم الى علم الاجتماع من ميدان الاثنولوجيا ـ يركز اهتمامه على العلاقة بين الفرد والموقف الاجتماعى ‥ بين الشخصية والثقافة • وتمثل دراسته ـ بالاشتراك مع العالم البولندى الامريكى «فلوريان زنانيكى» ـ عن تكيف الفلاح البولندى فى المجتمع الجديد فى الولايات المتحدة نموذجا للدراسة التى استفادت بنتائج دراسات مونوجرافية من أنواع مختلفة • وقد بين توماس أن الدراسات الكمية ـ برغم ما فيها من فائدة ـ تقصر وحدها عن مساعدتنا على فهم الاتجاهات والقيم الاجتماعية • بل يجب لهذا الغرض الاستعانة بالوثائق بجميع أنواعها : كتقارير الحياة (أو الترجمات الذاتية) ، والخطابات ، واليوميات ، وتقارير الاطباء ، والوعاظ ، والمدرسين ، والتحقيقات الصحفية ‥‥الخ والتى يتضح منها : تعريف الموقف فى كل حالة ، والسيطرة عليه ، وكيف يتحقق التكيف أو يفشل ، وكيف تحدث التغيرات فى الاتجاهات ، وأساليب السلوك • وبفضل هذه الدراسة الرائدة وغيرها تحول : الشارع ، ومناطق السكنى ، وأماكن العمل واللهو ، وكذلك الادارات الحكومية ، ومراكز الشرطة ، وادارات تحرير الصحف (المحلية بالذات) ، وصالات الرقص والنوادى الى ميدان عمل علم الاجتماع • وحدث ربط بين « الدراسات الميدانية » المعروفة من الاثنولوجيا ومنهج « دراسة الحالة » المعروف فى الخدمة الاجتماعية ، وأسلوب « الملاحظة المشاركة » •

قياس المسافة الاجتماعية :

ومن الانجازات البارزة فى مجال تطوير المناهج الكيفية المقياس الذى وضعه « اموری بوجاردوس» ـ لأول مرة ـ لترجمة الاختلافات

الكيفية في الآراء ، والاتجاهات ، والعلاقات الاجتماعية الى صورة قابلة للقياس الكمى · (وذلك فى كتابة بعنوان : البحث الاجتماعى » ، لوس أنجلوس ، ١٩٢٦) · وتوصل من خلال ذلك الى تطوير الطريقة الشهيرة التى اقترنت باسمه وهى : «قياس المسافة الاجتماعية» · ومن شأن هذا المقياس ـ فى رأى بارك ـ أن يمكننا من قياس المسافات الاجتماعية التى تصب فيها كل العلاقات الانسانية فى النهاية · ورغم كل ماكان يعيب طريقة بوجاردوس من قصور وبساطة زائدة ؛ فانا نلحظ شدة الاقبال عليه فىعشرينات هذا القرن ، من أجل استخدامه فى تحديد الاتجاهات وأساليب سلوك الجماعات تحديدا أكثر موضوعية مما كان ممكنا من قبل ·

مساهمة علم النفس فى تطوير القياس الاجتماعى:

لا يمكن أن نقعد هنا عن ذكر الدفعات المنهجية نحو تهذيب أدوات القياس الكمى التى استمدها علم الاجتماع من علم النفس فى أمريكا بصفة خاصة · وقد تمثلت تلك الاسهامات فيما قدمته النزعة السلوكية فى الدراسات الانسانية الامريكية لعلم الاجتماع ، وما أفاد به هذا العلم من تقدم علم النفس التجريبى · ونخص بالذكر: اساليب قياس الاتجاهات الاجتماعية ، ودراسة الجماعات ، والقياس الاجتماعى بصفة خاصة أو ما يعرف باسم « السوسيومترى » ، والملاحظة المنضبطة ، والتحليل العاملى ، وهو كله مما أصبح من أدوات البحث الاجتماعى الحديث ·

الافادة من الاحصاء على نحو جديد :

وأخيرا شهدت عشرينات هذا القرن الافادة من الاحصاء لا كمجرد وسيلة لوصف الظواهر الكبيرة وصفا دقيقا ، وانما كذلك كأداة تحليلية· فاذا بنا نسجل حدوث ثورة فى استخدام منهج العينة فى البحث الاجتماعى · وتعددت مجالات الافادة من هذا المنهج ، واتسعت بفضل اعتماد كثير من الهيئات الحكومية عليها سواء فى أمريكا أو فى القارة الاوروبية· ولعل أشهر هذه المجالات التى أستعين فيها بمنهج العينة دراسات السوق وغيرها من الاغراض التجارية ، وقياس الرأى العام · ولم يعد هناك من بين رجال الاجتماع من يحاول الطعن فى أهمية الاساليب الاحصائية فى البحوث الاجتماعية ·

الاستبيان والاستبار :

أصبحت وسيلتا الاستبيان (كشف الأسئلة) والاستبار (المقابلة) ـ وقد كانتا معروفتين منذ أمد بعيد فى ميدان الخدمات الاجتماعية والمسح الاجتماعى ودراسات السوق ـ أهم طرق الدراسة فى البحوث الاجتماعية · وواكب التوسع فى استخدامهما نشاط فى تحسينهما من أجل زيادة دقتهما ·

وأصبحت **المناقشات المنهجية** منذ ذلك التاريخ تشغل حيزا متزايدا فى المجلات والكتب الاجتماعية المتخصصة · واذا كان الانتقال من المسح الاجتماعى الى البحث الاجتماعى الحقيقى بعد الحرب العالمية الاولى قد تميز بالتوسع فى استخدام الاساليب غير الكمية على يد مدرسة شيكاغو ، فقد بدأت المناهج ذات الطابع الكمى البارز منذ أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات تفرض نفسها · وأخذت النزعة الوضعية الجديدة تقوى أقدامها فى حقل البحوث الاجتماعية (كما تتمثل عند «لندبرج» على وجه الخصوص) · وظهرت بعض الدراسات الرائدة التى أبدت حذقا كبيرا فى الانتفاع بهذه المناهج الكمية فى دراسة موضوعات محددة تحديدا دقيقا · وتجلى الاهتمام الكبير بالمسائل والمشكلات المنهجية فى أن الكتب الدراسية وكتب المدخل الخاصة بالبحث الاجتماعى كانت تستطيع فى بداية الأمر أن تستوعب الحديث عن مناهج البحث الاجتماعى كلها ، ثم اذا بهذه الكتابات تنمو وتتسع بحيث أصبحت تستعصى على المعالجة بين دفتى كتاب واحد ، ولم يعد بوسع باحث واحد بمفرده أن يتابع كل ماينشر فى هذا الميدان ، وأن يلم بكل جديد فيه · وكان من شأن هذا كله أن تكون الانطباع بأن البحث الاجتماعى الحديث قد غرق فى دراسة أمور منهجه · ثم كان لانشاء بعض الاجهزة والمجلات وغيرها من الادوات المتخصصة أعظم الأثر فى خلق نوع من التنسيق والتوجيه الذى يعين السفينة على مواصلة طريقها الى الامام بنجاح ·

التنظير فى الدراسات الاجتماعية

كان من فضل الاتجاه القوى الى الاشياء نفسها بعد الحرب العالمية الاولى أن توفرت لنا كميات لا حصر لها ـ ولا امكانية لاستيعابها ـ من النتائج والتفاصيل ، التى يصعب اجراء مقارنات بينها · وقد أدى هذا بالبحث الاجتماعى الامبيريقى الى أن يسخر من علم الاجتماع النظرى التقليدى باعتباره دراسة تأملية ، بل ويحط من شأنه · ولكنا نلحظ برغم ذلك ـ ومنذ أكثر من عشرين عاما ـ حدوث تقارب جديد بين البحث والنظرية ·

حقيقة أننا اليوم نفهم علم الاجتماع والبحث

الاجتماعي على أنه علم امبيريقي وبحث امبيريقي أساسا ؛ ولكن هذا البحث الامبيريقي بمفهومه الجديد لا ينكر ــ وهو غير مستطيع ذلك ــ وجود طرق أخرى من طبيعة غير امبيريقية لدراسة ما يعن لهذا العلم من مشكلات • ونعرض لأهم هذه العناصر بايجاز فى الفقرات التالية •

المفاهيم والمقولات الاجتماعية :

اذا عرفنا العلم بأنه التناول المنهجى (أى التنظيمي التصنيفي) والتفسيري لبعض جوانب الواقع ، وأن هذا التناول لا يمكن أن يتقدم بغير الخبرة ؛ فاننا نقر بذلك بضرورة وجود بعض المفاهيم العلمية التى لا يمكن ادراكها امبيريقيا • ومن شأن هذه المفاهيم أن تضمن ماسماه «كانط»: «المسلك المأمون للعلم» أى أسس التصنيف والمقولات التى لا يمكن أن تكون موضوعا للخبرة، لأنه يجب التسليم بها قبل الاحتكام الى أى خبرة• بمعنى آخر : **اذا أراد علم الاجتماع أن يشق طريقه كعلم امبيريقي ، فلا يكفى أن يختار أية ظواهر ويقوم بملاحظتها ، ووصفها ، وتصنيفها، بل انه يحتاج الى نسق فكرى ، يحدد الشيء الخاص المتميز فى الوقائع السوسيولوجية •** ومن الطبيعى أن يقوم تحديد هذا النسق على تعاون خصب متنوع بين التأمل البحث ، والاستنتاج العقلى ، والمحاولات الامبيريقية • اذ لا يمكن أن نفترض أن مثل هذه المفاهيم أو المقولات التى ستستخدم أساسا للتصنيف جاهزة بدءا فى صورة مرتبة ومنظمة • على أنه من أمارات ازدياد نضوج علم من العلوم ، ألا يحتاج الباحث فى كل حالة الى صياغة هذه المفاهيم ، بل تكون موجودة على درجة ــ قد تقل أو تزيد ــ من التنظيم والاحكام ، بحيث يمكن فى أغلب الاحوال الاستعانة بها مباشرة • ولعلنا نضرب المثل على هذه المفاهيم المستقرة اليوم : بمفهوم الفعل الاجتماعى ، والتنظيم من خلال معايير التوقع ، والدور الاجتماعى ، والجماعة •• وكثير غيرها من المفاهيم التى أفاد منها علم الاجتماع العام • هذه ولا شك ليست بالعلم الامبيريقي ، ولكنها معرفة تحليلية عقلية • **وتو أن المفروض فى مفاهيمها الاساسية ــ اذا ما أرادت أن تكون ذات فعالية ــ أن تدلل على صحتها فى الخبرة ، دون أن تكون هناك مع ذلك حاجة الى اشتقاقها من هذه الخبرة •** فمفهوم « المعيار الاجتماعى » لا يمكن بحال من الاحوال أن يشتق من مفاهيم أخرى • ففيه يتمثل الى حد ما « الجانب الاصيل» فى الظاهرة الاجتماعية ، الذى يمكن



١ • كونت

الاسهاب فى «وصفه» ــ كنموذج تفاعلى ، أو علاقات انسانية ــ دون ما حاجة الى تأسيسه على هذا النموذج أو هذه العلاقات • فالاجتماعى كالعضوى ــ فى علم الحياة ــ غير قابل للاشتقاق من شيء آخر ، حتى وان فرضنا عليه التفتيت النظرى • وهكذا يتوفر لدى علم الاجتماع العام حصيلة من «**المفاهيم الاساسية**» أو المقولات التى لا يمكن بدونها التوصل الى أى أحكام محددة عن أحداث اجتماعية جزئية • ذلك أن هذه المفاهيم تحدد لنا الشروط الواجب تحققها حتى يمكننا التحقق من أن الظواهر المطروحة ظواهر اجتماعية أصلا •

ومن الجدير بالذكر أن الاجتماعيين قد استطاعوا الاتفاق الى حد بعيد على جملة من هذه المفاهيم الاساسية • وقد تكون هذا الاتفاق من خلال المناقشات الطويلة التى امتدت من كارل ماركس واميل دوركيم الى فلفريدو باريتو ، وماكس فيبر ، وجورج زيمل ، حتى تالكوت بارسونز ، وجورج جورفيتش وروبرت ميرتون• وهذه قلة من أسماء كثيرة أسهمت بنصيب موفور فى اخصاب هذه المناقشات • فتهيأ بذلك لعلم الاجتماع عدد كبير من المفاهيم الاساسية التى

يمكن توصيلها للأجيال الجديدة من الدارسين ، والتى أصبح بوسع الباحث الفرد التسليم بها بدءا كأساس نظرى يستطيع بفضله تصنيف المادة المكتسبة من الخبرة • ويفضل بعض الباحثين أن يطلقوا على هذا الفرع من فروع الدراسة السوسيولوجية « **علم الاجتماع العام** » **أو** « **علم المفاهيم السوسيولوجية** » •

وتقابل هذه المفاهيم فى عالم الطبيعة ـ عند كانط ـ مقولات المكان ، والزمان ، والواقع ، والمادة ، والعليه وغير ذلك • بينما نذكر من أمثلتها فى ميدان علم الاجتماع ، مفاهيم : الفعل الاجتماعى ، والتصورات الجمعية ، ومعايير التوقع ، والشخص الثقافى الاجتماعى ، والدور ، والجماعة •• الخ • **فنحن لا نستطيع أن نرتب عليها وحدها أية معرفة خاصة محددة ، وانما هى تمثل فحسب وصفا تحليليا لأبعاد الوجود الاجتماعى ، الذى يراد التعرف عليه • أى امكانيات وجود الاشياء فى عالم المجتمع •**

ولا تبدأ عملية المعرفة الحقة الا عندما تنتقل هذه المفاهيم ـ مرتبطة بفروض محددة ـ الى حيز الواقع ، فتسمح لنا بتصنيف وتنظيم مادته على أسس موحدة ، بحيث يتكون عندنا فى النهاية ما نطلق عليه اسم النظرية السوسيولوجية (نظرية علم الاجتماع) • ومعنى هذا بكل وضوح أنه مهما بلغ اغراق العلم فى الامبريقية ، فانه ينطوى على بعض العناصر التحليلية النظرية • بل هى ضرورية له قبل أن يتمكن من وضع أى فرض جديد يريد اختباره فى الواقع •

مستويات التعميم فى النظرية الاجتماعية :

لابد أن يحدث ـ فى خطوة تالية ـ أن تنفصل النظريات السوسيولوجية الحقيقية عن علم المفاهيم هذا ، وذلك بمجرد ارتقائها الى مستوى الأنساق الفكرية التى تتمتع بقدر من الشمول والعمومية • ويمكننا القول ـ على وجه الاجمال ـ بأنه لم تتوفر لدى علم الاجتماع حتى الآن سوى أسس نظرية ذات مدى محدود نسبيا • وتتضح هذه الحقيقة بالذات من المفهوم الذى وضعه روبرت ميرتون عن « **النظريات المتوسطة المدى** » • وهى نظريات تمثل خطوة **أنضج** من النظريات الموقوتة أو الموضوعة لفرض معين ad-hcc التى توضع باستمرار لتيسير التفاهم حول بعض الانتظامات التى اتضحت امبيريقيا • ولكن هذه النظريات تمثل درجة أدنى من النظريات المركبة أو الشاملة ، والعلاقات النظرية المتكاملة •

ونكون قد اجتزنا خطوة أولى على طريق المعرفة اذا ما استطعنا تحويل هذه النظريات المحدودة الفرض الى نظريات متوسطة المدى • ونرتقى درجة أعلى اذا ما أمكن التاليف بين عدد من هذه النظريات المتوسطة المدى فى أنساق نظرية أشمل • ويمكن أن نضرب المثل على هذا النوع الاخير من التعميم النظرى فيما نحن بصدد التوصل اليه اليوم من نظرية سوسيولوجية عامة فى التنظيم ، التى تفسر لنا العلاقة بين الجماعات الرسمية وغير الرسمية داخل المؤسسة الصناعية ، وكذلك بعض الظواهر الشبيهة فى اطار علم الاجتماع الحربى ، ونظرية البيروقراطية ، وأخيرا بعض مشكلات علم الاجتماع السياسى الخاصة بالاجهزة النيابية الرسمية ، وكذلك الجماعات التى تتكون تلقائيا ، والتى تمثل وسائل أكثر سيولة للتاثير مثل جماعات الردهات (تمثل أصحاب المصالح فى المجتمعات الرأسمالية الذين يؤثرون على آراء أعضاء البرلمان) ، والجماعات ذات النفوذ بأنواعها المختلفة والوسائل غير الرسمية الاخرى للرقابة السياسية والاجتماعية •

على أننا يجب أن نعى بكل وضوح أن مثل هذه التعميمات الواسعة فى النظرية السوسيولوجية لا زالت نادرة • فنحن نتحرك فى الغالبية العظمى من الحالات فى نطاق التعميمات المحدودة الغرض التى نتوصل الى تحديدها فى صدد ظواهر محدودة متفرقة ، دون أن نكلف أنفسنا عناء الربط بينها وبين تعميمات أخرى مشابهة • على أنه يحدث فى بعض الاحيان ألا يرقى البحث الى مرتبة هذه النظريات المحدودة الغرض ، بل يظل محصورا فى مرحلة وصف بعض الانتظامات العامة ، دون محاولة تقديم تفسير نظرى ـ ولو جزئى ـ لهذه الانتظامات • ولا نعدم الامثلة التى يمكن أن تساق للتدليل على ذلك ، فهى كثيرة بغير حاجة الى تحديد ، ويكفى أن نجيل النظر فى ميدان « **الاحصاء الاجتماعى** » ، ففيه كثير من الشواهد على هذا •

وهكذا تتوفر لدينا السلسلة التالية ذات المستويات الاربع ، التى رتبناها تبعا لمدى نمو درجة تجريد المفاهيم المتحصلة منها ، وهى :

- **ملاحظة الانتظامات العامة الامبريقية**
- **وضع نظريات محدودة الفرض**
- **نظريات متوسطة المدى**
- **نظريات ذات درجة عالية من التركيب والشمول**

غير أننا نجد فى جميع الاحوال أن المفاهيم تستخدم على النحو الذى يحددها به علم الاجتماع العام ، بحيث أنه يبدو للمراقب من على السطح

أن الاتفاق النظرى قد بلغ حدا بعيدا ، أبعد مما هو فى الواقع فعلا • الا أن استخدام نفس المفاهيم الاساسية على المستويات الاربع المذكورة لا يدل بحال من الاحوال على درجة التكامل النظرى التى أمكن التوصل اليها فعلا • **اذ لا نستطيع اتقول بوجود مثل هذه الدرجة من الاتفاق الا بعد اتضاح مظاهر تقارب بعيد تسمح لنا بادماج الملاحظات التى أجريت فى أماكن مختلفة للانتظامات العامة الامبيريقية فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية ـ مرورا بمستويين النظريات المحدودة الغرض والنظريات المتوسطة المدى ـ فى نظرية واحدة مركبة وشاملة •**

نموذج واقعى لتقدم التعميم النظرى :

ومن الأمثلة الممتازة على هذا ما قدمه لنا العالم الامريكى جورج هومانز homans فى مؤلفه عن الجماعة الانسانية (الصادر عام ١٩٥١) فقد صاغ هومانز فى هذا الكتاب بعض الانتظامات العامة التى لوحظت على احدى جماعات العمل فى شركة وسترن اليكتريك ، واحدى جماعات المراهقين ، واحدى الأسر التى تعيش فى جزيرة تيكوبيا Tikopia وأحد المجتمعات المحلية الصغيرة فى اقليم نيو انجلند ، صاغها فى نظريات جزئية • ثم ألف بينها فى نظرية عن نشره بالاشتراك مع هنرى ريكين Rieeken (عام الجماعة الانسانية • ثم قام فيما بعد ـ فى مقال ١٩٥٤) ، واستنادا الى مزيد من البحوث ـ بتدعيم هذه النظرية وتوثيقها ، كما أدخل عليها بعض التعديلات الجزئية • وقد قاده هذا فى النهاية (فى كتابه بعنوان : السلوك الاجتماعى • أشكاله الأولية ـ نيويورك ، ١٩٦١) الى تحديد نظرة أشمل للسلوك الاجتماعى كله •

ويدلنا هذا المثال بمنتهى الوضوح على أسلوب التقدم فى ضوء المخطط الذى رسمناه من قبل • على أننا اذا أخذنا فى الاعتبار ـ الى جانب هذا ـ أن هناك مئات من مثل هذه النظريات فى مختلف ميادين علم الاجتماع ، لأمكننا أن نتصور مدى الصعوبة التى يمكن أن تكون عليها عمليات التقدم فى سبيل وضع النظريات العامة ، ومدى حاجتنا دائما أبدا الى الضوابط الامبيريقية لتأكيد وتأمين هذه العمليات فى مختلف مراحلها •

على أننا نؤكد هنا أن هذه التطورات النظرية تعمل فى خدمة المعرفة ذاتها ، بينما نجد أن تطورات المفاهيم الاساسية أو المقولات التى أشرنا اليها من قبل لا تخدم عملية المعرفة ذاتها ، و انما هى تؤدى وظيفة تصنيفية ، اذ توجه المعرفة ـ على أبعاد موحدة ـ المنصبة على الموضوع الاجتماعى • فمشكلات مثل مشكلة تبادل المنظورات بين الأنا والعمر ، أو مشكلة تناظر العلاقات لا تقودنا الى معارف محددة ، وانما هى تمدنا بالاطار المرجعى الذى يستحيل بدونه وجود علم اجتماع • ولا يسعنا قبل أن يتوفر لدينا نسق فكرى خاص ـ متميز وعديم النظير ـ أن ندعى لعلم الاجتماع حقا فى الوجود الخاص المستقل • وهو النسق الذى يقوم فى النهاية على اثبات طابع متميز للبعد الاجتماعى ، وهو ما سبق اميل دوركيم الى تحديده فى مؤلفه « **قواعد المنهج فى علم الاجتماع** » •

• عمليات فكرية أساسية فى البحث الاجتماعى :

• التجربة الفكرية

• والنموذج الفكرى

علاوة على هذه المسائل يتعين علينا أن نتوقع فى علم الاجتماع الامبيريقى التعامل على أسس أخرى غير امبيريقية • مع مراعاة أن هذه الاسس ستقودنا بعد لف ودوران ـ قد يطول أو يقصر ـ الى تحقق امبيريقى فى النهاية • ولن يتسع المقام لأن نأتى على كل العمليات الفكرية ذات الاهمية الاساسية فى البحث الاجتماعى ، فلا مناص من تخصيص الكلام عن موضوع محدود ، حتى يمكن أن نستكمل الالمام بالخط الرئيسى لحديث اليوم عن المنهج فى علم الاجتماع الحديث •

« **التجربة الفكرية** » عملية ذات طبيعة عقلية استنتاجية ترافق البحث العلمى باستمرار • وتستمد هذه العملية وظيفتها الخاصة المتميزة فى البحث من حيث أنها تسمح بتحليل مفهوم معين من نواحيه المختلفة ، أى اجراء « **تجارب فكرية** » عليه • ويتم عن هذا الطريق باستمرار التوصل الى اكتشافات هامة ، تتحول فيما بعد الى خيوط موجهة لعملية البحث الفعلية • وهذه هى نفسها الاسس التى تقوم عليها « **النماذج الفكرية** » المعروفة فى العلوم الاجتماعية (وخاصة فى الاقتصاد السياسى ، وحديثا ـ وبشكل متزايد ـ فى علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى ، وبعض فروع المعرفة مثل تحليل الجماعات الصغيرة) • ولا يستطيع أحد أن ينكر جدوى هذا الاسلوب فى ضوء النتائج التى يمكن التوصل اليها عن هذا الطريق • ويعتبر استخدام النماذج من العناصر الاساسية للمنهج غير الامبيريقى فى البحث الاجتماعى • الا أن المقام يوجب علينا شيئا من الحذر ازاء بعض المبالغات

التى نصادفها والتى بدأت تنتشر فى علم الاجتماع ؛ بعد انتشارها فى الاقتصاد ٠ فطالما أنه يظل واضحا أن وضع النموذج هو مجرد وسيلة معينة لقياس كل الأبعاد والجوانب الممكنة نظريا لمفهوم معين ، فلا اعتراض ولا مؤاخذة ٠ ولكن ما أن يعتقد الباحث – متجاوزا ذلك – أن تحليل هذه النماذج يحل محل النظريات الحقيقية ، بل ويستطيع ان يغنى عنها غناء كاملا ، فاننا نرفع صوتنا بالاعتراض القوى، وذلك لاعتبارات متعددة فى نفس الوقت ٠ اذ أن أكثر التفسيرات سذاجة لعملية وضع النماذج يقترب بهذه العملية الى ما يعرف « **بالمفاهيم الجوهرية** » فى الفينومينولوجيا ، حتى أننا نجد من يطلق عليها اسم «**أفلاطونية النماذج**» ٠ غير أن هذا لا يمثل سوى أحد جوانب المشكلة ٠ أهم من ذلك وأخطر شأنا تلك المحاولات التى تعتبر النماذج الموضوعة بهذه الطريقة «بديلا» للتحقق الامبيريقى ، كما هو شائع فى الظروف العادية لوضع النظرية ٠ كما يجب ألا يعمينا المظهر المبالغ فى الدقة الذى تطالعنا به هذه النماذج أحيانا عن حقيقة هامة ، وهو أنه لم يمكن التوصل اليها الا لأن جميع الظروف الاخرى قد عولجت بطريقة تجريدية تعسفية أيضا ٠

وهكذا نرى أن النماذج تكون مفيدة طالما أن تحديدنا لعناصرها كان تحديدا «اجرائيا» فقط ، وأننا نستهدف من ورائها التوصل الى وضع فروض مهمتنا أن نتحقق منها من خلال المعلومات الواقعية ٠ فاذا أيد الواقع الغرض المتضمن فى النموذج ، ارتقى هذا النموذج الى مرتبة النظرية ٠ أما فى حالة اثبات انحرافه عن الواقع ، فان ذلك يعنى رفض نظرية معينة ، أو تأييد أخرى ٠

النموذج والنظرية :

وهكذا يتضح أننا لا نستطيع اعتبار النماذج ولا التجارب الفكرية بديلا عن « **التجارب الواقعية** » ٠ اذ لابد لنا من الاحتكام لهذا الواقع دائما وفى كل حالة ٠ ومع ذلك فان هذا الجهد التحليلى العقلى البحت يحتل أهمية أساسية فى مرحلة الاعداد للبحث ، اذ يتيح لنا أن نحدد نظريا تماما كل المتغيرات الممكنة التى يمكن أن تكون ذات وزن فى حالة معينة ، حتى نتوصل فيما بعد الى تحديد أى هذه الاحتمالات العقلية أكثر اتفاقا وظروف الواقع ٠ فاذا ظهرت بعض الارتباطات العقلية التى تتعارض والتجربة ، فلا يصح أن يكون ذلك سببا فى الاستخفاف بالامبيريقية ٠ بل على العكس من ذلك يكون داعيا الى الرجوع الى كلا العنصرين – العقلى والامبيريقى – للتحقق مما اذا كان كلاهما منطلقا من أسس خاطئة ٠ بذلك يتضح مدى الاختلاف العميق بين وضع النموذج ووضع النظرية ، بحيث أنه بات من السهل علينا نسبيا تحديد وظيفة كل منهما فى عملية البحث ، بما لا يسمح بحدوث اختلاط فى المستقبل ٠ ولكننا نلتقى مع ذلك – دائما أبدا – بمثل هذا الخلط ، الذى يبرر ولا شك تفصيلنا فى عرض هذه القضية ٠

***

نكتفى فى مقال اليوم بهذا القدر من المشكلات العديدة التى ترتبط بمفهوم « **علم الاجتماع الامبيريقى** » ، وحسبنا أن لفتنا النظر الى جملة من أبرز هذه المشكلات التى استحوذت على اهتمام علماء الاجتماع ابتداء من دوركيم حتى ميرتون ٠ ولعل هذه الاشارة منا أن تكون فاتحة اهتمام أوسع بمشكلات المنهج فى علم الاجتماع الحديث ٠

فقد تطور علم الاجتماع الامبيريقى بمعناه المحدود على مدى السنين السبعين الاخيرة التى انقضت على ظهور مؤلف دوركيم : « قواعد المنهج ٠٠ » (الصادر عام ١٨٩٥) ٠ ولم يكن هذا التطور وليد فكرة أو تصور نظرى مسبق، ولكنه كان تطورا من واقع البحث الفعلى ٠ لذلك لم نعد نستطيع اليوم الالمام بالاسهامات الاساسية فى منهج علم الاجتماع الامبيريقى فى بطون الكتب التى تحمل فى عنوانها كلمة «منهج» ، وانما يحقق المنهج تقدمه الفعلى الحقيقى أساسا فى اطار البحوث نفسها ٠ فالخاصية المميزة لمنهج الدراسة العلمية الامبيريقية أنه لا يمكن أن يدرس الا من خلال الممارسة الفعلية ، ولا يمكن فيه أن يحل الغرض النظرى محل التحقيق الواقعى ٠ وأفضل سبيل لنا للتعرف على المنهج هو الغوص فى الانجازات الكبرى التى استطاع البحث العلمى تحقيقها ٠

وأملنا أن نستطيع فى مقالات تالية اكساب المنهج الاجتماعى الامبيريقى مزيدا من الوضوح والتحديد من خلال استعراض البحوث الكبرى لأئمة الاجتماع كدراسات دوركيم عن تقسيم العمل ، والانتحار ، والأسرة ٠٠٠الخ ودراسات ماكس فيبر عن «**الاقتصاد والمجتمع**» ، ومجموعة مقالات فى الاجتماع الدينى ٠٠٠الخ انتهاء بأبرز الانجازات المعاصرة فى البحوث الاجتماعية ٠

ولعله يمكن من خلال ذلك – وبعد تطويع هذه المناهج لظروفنا المحلية الخاصة – أن نتوصل فى مدى قريب الى تحقيق الارتقاء والاحكام المطلوبين لبحوثنا الاجتماعية المصرية ٠

محمد محمود الجوهرى

من الحقائق التى اخذت تفرض نفسها يوما بعد يوم أن العلوم الاجتماعية ترتبط فى نشأتها ونموها واتجاهاتها ارتباطا وثيقا بالنظم السياسية القائمة فى البلاد المختلفة وبالمصالح الاجتماعية والاقتصادية التى تمثلها هذه النظم، أى ترتبط بالايديولوجية بعبارة مختصرة . واذا كان فلاسفة العلوم الاجتماعية قد تحدثوا منذ زمن بعيد عن المخاطر التى تحيط بالعلوم

الاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماعى الماركسى

السيد يسين

الاجتماعية ، لكونها ستضطر اضطرارا في بعض الأحيان الى ان تصطدم بنظم الحكم القائمة او بالدولة بمعنى ادق ، فان الاشتراكية العلمية ركزت على هذه النقطة تركيزا شديدا ، على اساس ان العلوم الاجتماعية بطبيعتها لابد ان تكون منحازة ، وان مقولة الموضوعية فى البحوث العلمية الاجتماعية ليست سوى خرافة تروج لها الأوساط العلمية فى البلاد الرأسمالية . ولذلك هاجمت الاشتراكية العلمية بعنف شديد ما اطلق عليه اسم «علم الاجتماع البورجوازى» الذى يزعم الموضوعية المطلقة فى حين انه مصطبغ اصطباغا شديدا بالايديولوجية السائدة فى المجتمعات الراسمالية .

وقد ادى ذلك ـ تاريخيا ـ بالفكر الماركسى الدوجماطيقى الى ان ينكر امكانية قيام علم اجتماع بجانب المادية التاريخية التى اعتبرت هى نفسها علم الاجتماع الماركسى . والحقيقة أن وجهة النظر السابقة تصطدم اصطداما مباشرا مع القصور المثالى لنفر كبير من فلاسفة



العلوم الاجتماعيه البورجوازيين وعلمائهـــا ، بالعلوم الاجتماعية ولشروط البحث الواقعى فى ميادينها المختلفة . فهذه العلوم - فى نظرهم - يمكن أن تجرى بحوثها متحررة من اســار الايديولوجية تماما ، وخاصة أن الباحث العلمى سيتذرع « بالموضوعية » وهو بصدد اجــراء بحوثه ، وهذا فى حد ذاته هو الضمان الحقيقى لاستقلال البحث العلمى عن اى مؤثرات خارجية .

وقد عبر الفيلسوف الألمانى الكبير ارنست كاسيرر عن وجهة النظر هذه بمنتهى الوضوح فى ختام كتابه « مقال عن الانسان » . اذ قرر « ان العلاقة بين الذاتية والموضوعية ، بين الفردية والعمومية شأنها فى الفن ليس كشأنها فى العلم انه لحق أن الكشف العلمى العظيم يحمل ايضا طابع العقل المفرد لصاحبه ، اذ اننا نجد فيه - ليس فقط عرضا موضوعيا جديدا للأشياء - بل ايضا اتجاها ذهنيا متفردا ، وربما نجد طابعا شخصيا في الأسلوب . ولكن كل هذا ليس له الا تأثير سيكلوجى فقط ، لا يؤثر على المنهج ، ففى المضمون الموضوعى للعلم ، تنسى هــذه المظاهر الفردية وتمحى ، لأن احــد الأغراض الحقيقية للفكر العلمى هو الاقلال من كل العناصر الشخصية والموضوعية » .

ومن المعروف أيضا أن عالم الاجتمــاع الشهير ماكس فيبر كان يعتقد فى امكان القيام بدراسات سوسيولوجية منفصلة عن القيــم الايديولوجية ، وان على علم الاجتماع اذا كان يريد ان يكون علميا حقيقة أن يقوم على عــدم التحيز الايديولوجى فى التحليلات التى يقدمها . وقد اعتنق علم الاجتماع الألمانى فى الفترة من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٠ هذه المبادىء بحماس شديد ، بالرغم من وجود بعض المعارضين .

وخلاصة ما سبق كله ، وجود اتجــاهين متعارضين ومتطرفين . الأول منهما ينطلق من البلاد الاشتراكية ، ويرى ان العلوم الاجتماعية ايديولوجية بحكم طبيعتها من ناحية ، وان المادية التاريخية تغنى عن قيام علم الاجتماع - بالمعنى البورجوازى ، وانها هى نفسها علم الاجتمــاع الماركسى . والثانى يسود فى البلاد الراسمالية ، ويزعم أن العلوم الاجتماعية يمكن ان تنشأ وتقوم وتجرى ابحاثها متحررة من اسار الايديولوجية ما دامت « الموضوعية » ستكون طابعها .

غير أن السنوات الأخيرة شهدت تغييرات جوهرية فى كلا الاتجاهين . فالاتجاه الأول ، وان

ظل حتى الآن مصرا على تاكيد الطابع الايديولوجى للعلوم الاجتماعية فى البلاد الراسمالية ، الا انه – وخصوصا بعد انتهاء عهد ستالين – اعترف بامكان قيام علم اجتماع ماركسى امبيريقى بجوار المادية التاريخية .

وتخلى الاتجاه الثانى عن مزاعمه المطلقة السابقة ، التى كانت تؤكد بغير تحفظ الموضوعية البحتة للعلوم الاجتماعية ، وبدأ يعترف بتأثر هذه العلوم بالايديولوجية بدرجة صغيرة او كبيرة حسب الظروف . وقد أسهمت فى هذا التغيير بصورة بارزة كتابات رايت ميلز ، وجونار ميردال ، وداهر ندورف .

ونريد فى هذا المقال الوجيز ان نركز على التغيرات التى لحقت بالاتجاه الأول ، ونعنى نشأة علم الاجتماع الماركسى امبيريقى ، لما له من أهمية قصوى من النواحى النظرية والتطبيقية على السواء .

غير انه لابد لنا من ان تعرض اولا للموقف الماركسى التقليدى من علم الاجتماع قبل أن نتحدث عن التغيرات التى لحقت به .

أولا

الموقف الماركسى التقليدى من علم الاجتماع

لعل خير ما يصور الموقف الماركسى التقليدى من علم الاجتماع هو كتاب الفيلسوف الماركسى المعروف بوخارين الذى نشره عام ١٩٢١ الموسوم : « نظرية المادية التاريخية : كتاب شعبى فى علم الاجتماع الماركسى » .

(وقد أعيد نشره فى باريس عام ١٩٦٧) .

وقد حرص بوخارين على ان يبرز بكل وضوح ومنذ السطور الأولى لمقدمة كتابه الطابع الطبقى للعلوم الاجتماعية . فهو يهاجم موقف العلماء البورجوازيين فى حديثهم عن العالم وكأنه شيء غامض تحوطه الأسرار ، في حين أن اى علم يجد مصدره فى حاجات المجتمع ، او فى حاجات الطبقات الاجتماعية التى تكونه . وليس يكفى فى نظره معرفة طبيعة الأشياء التى تحوطنا ، بل لابد من أن نتبنى افكارا واضحة عن المجتمع . وتبدو اهمية ذلك بالنسبة للطبقة العاملة التى لابد لها أن تتزود – وهى تخوض صراعها الطويل ضد الاستغلال – بمعرفة واعية ومتعمقة بالقوانين التى تحكم سير المجتمع . فلا بد لها ان تتنبأ بالوسائل التى ستنتهجها باقى الطبقات الاجتماعية المعادية لها ويتطلب ذلك بالضرورة معرفة الأسباب التى تحكم السلوك العملى لمختلف الطبقات الاجتماعية فى ظل الظروف المختلفة والمتغيرة .

وتبدو فائدة الاعتماد على المعرفة العلمية الاجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة فى جميع الأحوال سواء وهى لم تحصل على السلطة بعد، أو بعد حصولها على السلطة فعلا .

فاذا كانت الطبقة العاملة لم تحصل على السلطة بعد ، فمعنى ذلك أنها ستكون مستغلة بواسطة راس المال ، ومضطرة – خلال صراعها فى سبيل التحرر – الى أن تعتمد على صور السلوك العملى المختلفة للطبقات الاجتماعية الأخرى . ومن ثم تبدو أهمية معرفة المحددات التى تحكم سلوك مختلف الطبقات ، والعلوم الاجتماعية وحدها هى التى يمكن أن تمدها بهذه المعرفة .

وبعد ما تستولى الطبقة العاملة على السلطة ، فانها ستجد نفسها مضطرة للصراع ضد الدول الرأسمالية ، وضد الثورة المضادة فى نفس البلد الذى قامت فيه الثورة ، ولذلك فسرعان ما تجد نفسها ملزمة بحل عديد من المشكلات البالغة الصعوبة ، التى تتعلق بتنظيم الانتاج والتوزيع وتثور بهذا الصدد عدة اسئلة: كيف يمكن وضع خطة اقتصاديه ؟ كيف يمكن الاستفاده من جهود المثقفين ؟ كيف يمكن كسب الفلاحين والبورجوازية الصغيرة وضمهم الى صفوف الثورة الاشتراكية ؟ كيف يمكن اعداد وتأهيل قادة اداريين مدربين من الذين خرجوا من صفوف الطبقة العاملة ؟ كيف يمكن التعامل مع الفئات العريضة فى المجتمع الغير الواعية بوضعها الطبقى ؟

كل هذه الأسئلة وعديد غيرها ، تتطلب الاجابة عليها معرفة عميقة بالمجتمع ، وبالطبقات التى يتكون منها ، وبخصائصها . وبمحددات سلوكها فى ظل الظروف المختلفة. وتتطلب الاجابة ايضا معرفة بالحياة الاقتصادية وبالمفاهيم الاجتماعية التى تتبناها مختلف الجماعات الاجتماعية .

وبعبارة مختصرة ، فانه تدعو الحاجة الى الاستخدام التطبيقى للعلوم الاجتماعية بيد أن المهمة التطبيقية المتعلقة باعادة البناء الاجتماعى لا يمكن تحقيقها بنجاح الا بتطبيق سياسة علمية للطبقة العاملة ، اى سياسة مؤسسة على نظرية

علمية ، توضع فى خدمة طبقة البروليتاريا ، وهى النظرية التى صاغها ووضع دعائمها كارل ماركس.

وهكذا — وعلى ضوء العرض السابق — استطاع بوخارين ببراعه أن يربط بين العلوم الاجتماعية وبين الطبقات الاجتماعية ربطا محكما وثيقا . فهناك علوم اجتماعية للبورجوازية تساعدها فى السيطرة على باقى الطبقات، وتحاول الحفاظ على كل الاوضاع القائمة التى تحبذ استغلال الانسان للانسان . ولكن هناك أيضا علوما اجتماعية للطبقة العاملة تساعدها فى تحرير الانسان وفرض المثل والقيم التى تدعو لها الاشتراكية العلمية .

ويهاجم بوخارين بشدة مزاعم الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين الذين ذهبوا الى انهم أقاموا « علما بحتا » يتميز بالموضوعيه المطلقة . وهم على هذا الاساس يزعمون ألا شأن لهم بصراع المصالح فى المجتمع ، ولا بالسعى الى الربح ، ولا بكل ما يتعلق بأمور الحياة الدنيويه. وهم بذلك يصورون عالم الاجتماع وكأنه اله هبط فى جبل عال، وشرع يلاحظ — بغير انفعال — الحياة الاجتماعية بكل ما تضطرم به من صراعات!

وليست هناك حاجة لبذل مزيد من الجهد لتفنيد هده النظرة المثالية . فالعلم يجد مصدره فى صميم الحياه العمليه . ولدلك يبدو واضحا ضروره الاعتراف بالطابع الطبقى للعلوم الاجتماعية . وليس من الصعوبة فى شىء أن نفهم أن لكل طبقة اجتماعيه رؤيتها الخاصه للعالم . ومن ثم لابد أن يكون العلم الاجتماعى للبورجوازية مختلفا اختلافا جدريا عن العلم الاجتماعى للطبقة العاملة .

ويستخلص بوخارين من كل المناقشات التى يعرضها نتيجه اساسيه مفادها ان العلم الاجتماعى البروليتارى « اسمى » من العلم الاجتماعى البورجوازى . غير انه يحرص على أن يدعم هذه النتيجة بحيثيات موضوعية : اهمها ان الذين يعيشون فى ظل نظام اجتماعى محدد يؤمنون به ، لا يستطيعون تجاوز الحدود الضيقة لهذا النظام لكى يستشرفوا المستقبل ، أو لكى يتنبأوا بامكانية التطور الاجتماعى نحو نظام اجتماعى مغاير يقوم على انقاض النظام القديم .

وهل كان السيد الاقطاعى — فى ظل النظام الاقطاعى — يتصور علاقات اجتماعية فى ظل نظام آخر تختفى فيه سيطرة السادة على الأقنان ؟

وهل يستطيع البورجوازى — فى ظل النظام الراسمالى — أن يتخيل علاقات اجتماعية لاتقوم على أساس السعى لتحقيق أكبر أرباح ممكنة ، او هل يستطيع ان يضع يده على مواطن الضعف والخلل فى النظام الراسمالى التى تجعل تغيره واحلاله بنظام اجتماعى اكثر تقدمية امرا محتوما ؟

غير ان وضع الطبقة العاملة يختلف اختلافا جذريا عن وضع غيرها من الطبقات . فهى ليست متمسكة بالنظام الراسمالى وتريد الحفاظ عليه بكل ما تملك من قوى ، مما كان من شانه أن يحجب عنها الرؤية الواضحة ، بل انها تريد ان تحطم هذا النظام الراسمالى لكى تقيم على اساسه نظاما جديدا تسود فيه الطبقة العامله. ومن هنا فالطبقة العاملة فى اعتمادها على العلم الاجتماعى البروليتارى تكون قد تزودت بامكانيات ضخمة تسمح لها بالفهم الموضوعى ، والتنبؤ الدقيق بامكانيات التطور الاجتماعى .

العلم الاجتماعى البروليتارى :

واذا كان الامر كدلك فيبقى سؤال هام : ما هو هذا العلم الاجتماعى البروليتارى ؟

يجيب بوخارين بوضوح أن هذا العلم هو نظريه الماديه التاريخيه التى هى نفسها يمكن أن تكون علم الاجتماع الماركسى .

ويرد بوخارين على بعض الرفاق الذين ذهبوا الى انه لا يمكن اعتبار المادية التاريخية بمثابة علم اجتماع ماركسى . وقد اقاموا اعتراضهم على أساس اسباب ثلاثة :

• ليس هناك سوى منهج واحد للمعرفة التاريخية ، ولا يمكن اقامة الدليل على صحة اى مجموعة من الحقائق المعاصرة الا اذا اصبحت حقائق تاريخية تخضع للتمحيص .

• ان فكرة « علم الاجتماع » غامضة وغير محددة . فبعض العلماء يقصدون بعلم الاجتماع علم الثقافة البدائية واصول الصور الاولى للحياة الانسانية (كالأسرة مثلا) ، والبعض الآخر يعنون به مجموع النظرات والتأملات البالغة الغموض حول مختلف الظواهر الاجتماعية على وجه الاجمال .

• والبعض الثالث يقيمونه على أساس التشبيه التعسفى للمجتمع بالكائن الحى (اشاره الى المدرسة العضويه او البيولوجى فى علم الاجتماع) . غير ان بوخارين حرص على تفنيد هذه الاعتراضات جميعا ، فهى زائفة كلها في نظره . فاذا كان هناك خلط سائد فى المعسكر البورجوازى فليس هناك ما يدعو الى خلق خلط جديد فى المعسكر الاشتراكى ويتساءل :

اى مكان ينبغىأن تشغله نظرية المادية التاريخية؟ ان مكانها ليس قطعا فى مجال الاقتصاد السياسى، ولا فى مجال التاريخ ، ولكن موضعها الصحيح فى علم المجتمع العام وفى قوانين تطوره ، اى فى علم الاجتماع بعبارة اخرى . وكون نظرته المادية التاريخية تكون منهجا للتاريخ لا يقلل من اهميتها بحسبانها نظرية سوسيولوجية .

والحقيقة ان هذه النظرة الخاصة لعلم الاجتماع ، التى تتمثل فى معارضة علم الاجتماع البررجوازى بحسبانه يخدم اساسا مصالح الطبقات الراسماليه المستغله ، واعتبار الماديه التاريخية هى بذاتها علم الاجتماع الماركسى ، هى التى اتيح لها ان تسود الفكر الماركسى الرسمى ردحا طويلا فى الزمان . وقد ادى هذا الموقف الى الاكتفاء — فى دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة — بالتحليلات النظرية الدوجماطيقية التى تستند الى المقولات الأساسية فى المادية التاريخيـــــة ، مما أدى الى عقـــم التفكير السوسيولوجى الماركسى . ومن الغـــريب ان أنصار هذا الاتجاه ودعاته تغافلوا عن الأساس الواقعى الذى صيغت على أساسه نظرية الماديه التاريخيـــــة . فمن المعروف أن كارل ماركس وفردريك انجلز — اللذين ينسب اليهما فضـــل صياغة هذه النظرية في صورتها النهائية — لم يقنعا بمجرد التفكير النظرى ، بل نزلا الى ارض الواقع لكى يكتشفوا أبعاده المختلفة باستخدام وسائل البحث الإجتماعية الأساسية كالملاحظة المباشرة وغيرها . بل لقـــــد قام كارل ماركس — ابعد من هذا — باعـــداد استـــمارة بحث questionnaire من النوع الذى يشـــيع اســـــتخدامه الآن فى البحوث الميدانيـــــة السوسيولولوجية لتكون اداة بحث فى موضوع « بحث ظروف الطبقة العاملة » . فى ٢٠ أبريل سنة ١٨٨٠ وقد نشرت هـــذا الاســـتمارة فى « المجلة الاشتراكية » التى كانت تصدر فى فرنسا كما طبع منها ٢٥,٠٠٠ الف نسخة وزعت على العمال فى كل أرجاء فرنسا . وقد صـــدرت الاستمارة بمقدمة طلب فيها من عمـــال الريف والمدن ان يملأوا هذه الاستمارة ، لأنهم فقط الذين يستطيعون أن يصفوا « بمعـــرفة كاملة الشرور التى يعانون منها » . ووجه النـــداء أيضا الى الاشتراكيين من كافة الاتجاهات الذين يرغبون فى الاصلاح الاجتماعى ، باعتبـــار ان عليهم ايضا أن يحصلوا على معـــرفة **مضبوطه وواقعيه** positive بالظروف التى تعيش فيها الطبقه العاملة . وأعلنت هذه المقدمة ايضا ان الاجابات ســـوف تصنف لكى تكون اساسا لسلسلة من المقالات التى ستنشر فى « المجلة الاشتراكية » ، على أن تجمع بعد ذلك فى كتاب.

وتنقسم استـــمارة البحث التى اعـــدها ماركس الى اربعة أقسام رئيسية تحتوى على ١٠١ سؤالا .

ومن استعراض هـــذه الاستمارة ، يمكن القول انها تتضمن العطلة بالغة الدقة والتنوع . يمكن على أساسها بالفعلمعرفة وتقدير الظروف التى تحيا فى ظلها الطبقـــة العاملة . (نص الاستمارة منشـــور فى كتاب بوتومور وروبل ، راجع قائمة المراجع) . واذا كانت نتائج البحث لم يتح لها أبدا أن تعلن لظروف متعدده ، الا أن هذا البحث بذاته — بالاضافة الى بحوث متعددة أخرى — يعد شاهدا على منهج كارل ماركس فى صياغة تحليلاته ونظرياته ، والتفاته الى ضرورة النزول الى الواقع لوصفه وجمع البيانات الواقعية عنه ، تمهيدا لفهمه وتحليله .

ومن المؤسف أن هذه التقاليد العريقة فى الفكر الماركسى ، قد تجاهلهـــا الفكر الماركسى الرسمى ، ووضع بذلك سدا منيعا أمام تطور الفكر السوسيولوجى الماركسى ، لم يتح له أن ينهار الا بعد انتهاء الحقبة الستالينية ، وسيادة موجات التحرر فى مختلف الميادين ، مما انعكس أثره على أوضاع العلوم الاجتماعية فى الاتحـــاد السوفيتى وغيره من البلاد الاشتراكية .

ثانيـــا

نشأة علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى

تتابعت منذ عام ١٩٥٩ البحوث الاجتماعية الأمبيريكية (ونعنى بها البحوث الميدانية التى تنزل الى الواقع نفسه لوصفه وجمع البيانات المتنوعة عنه) ، فى البلاد الاشتراكية وبوجـــه خاص فى الاتحاد السوفيتى وبولندا والمجر .

وزاد الاهتمام بعلم الاجتماع بوجه خاص . ومن بين الشواهد التى تضرب بدلالة على نمو هذا العلم اشترك اكثر من ٦٠٠ عالم اجتماع روسى فى مؤتمر عقد فى لينينجراد فى فبراير سنة ١٩٦٦ .

ولكن لا يمكن القول أن هذه التغييرات تعد فى حد ذاتها مراجعة جوهرية للأسس النظرية للماركسية. حقا لقد ازدادت البحوث الاجتماعية الميدانية ، ولكن كل هذا يتم حتى الآن فى حدود الاطار التقليدى للتحليل الماركسى .

غير ان اهم تطور حدث هو ظهور علم اجتماع مستقل بجوار المادية التاريخية . ولقد سبق لنا أن عرضنا للموقف التقليدى الماركسى الذى لم يكن يتصور قيام علم اجتماع بجوار المادية التاريخية ، ما دامت المادية التاريخية نفسها كانت هى ـ وفق هذا النظر ـ علم الاجتماع الماركسى .

ولعل هذا ما دفع بالباحثين في مختلف البلاد ان يهتموا اهتماما بالغا بهذه التغيرات فى النظر لعلم الاجتماع ، ويرد هذا الاهتمام الى عدة أمور . فقد اعتبر نمو هذا العلم دلالة على تغييرات مصاحبة في الاتجاهات الايديولوجية . ولما كانت هذه الاتجاهات أحد محددات ضروب السلوك السياسى ، فان علم الاجتماع الماركسى الأمبيريكى يثير اهتمام الباحثين الذين يهتمون بمتابعة السياسة والايديولوجية فى البلاد الاشتراكية . وترد هذه الأهمية ثانيا الى ان الماركسية اكدت تأكيدا شديدا ـ كما بينا ـ على الدور الايديولوجى الذى يلعبه علم الاجتماع . والآثار المترتبة على ذلك من سيادة النظرات الذاتية التى لا تعطى منظورا موضوعيا وحقيقيا للواقع الاجتماعى فى المجتمعات الانسانية ، وكل ذلك على اساس ان المادية التاريخية تكفى بذاتها وتغنى عن علم الاجتماع . ومعنى ظهور بحوث ميدانية اجتماعية والاعتراف باهميتها ان هناك اتجاها نحو التخلى ـ لدرجة صغيرة او كبيرة ـ عن هذا الموقف ، وهذا ما يعطى لهذا التغيير اهمية كبرى .

كل ذلك بالاضافة الى ان عددا من المفكرين الماركسيين يرون أن اهمية هذه البحوث الميدانية تكمن فى معرفة الى اى مدى ستصدق أفكار وتحليلات ماركس التى بنيت اساسا فى ضوء تحليل المجتمعات الرأسمالية . على المجتمعات الاشتراكية المعاصرة التى تم فيها تأميم وسائل الانتاج ، وسادت فيها علاقات انتاجية جديدة . ويثور التساؤل ايضا بهذا الصدد : هل يمكن اعطاء تفسير جديد لنصوص ماركس يسمح لها بالتكيف مع هذه الظروف الجديدة ؟

واخيرا ، يمثل هذا الاتجاه نحو البحوث الميدانية التى تجرى الآن على نطاق واسع فى البلاد الاشتراكية الأمل فى جمع المادة العلمية اللازمة ، لصياغة نظرية للمجتمع الاشتراكى ، وهى بذلك تقدم لأول مرة فى التاريخ امكان بناء مثل هذه النظرية ، ليس على أساس استنتاجات نظرية ، بل على اساس نتائج عممت من واقع الحقائق التجريبية .

أسباب نشأة علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى :

قد يبدو من المناسب أن نطرح السؤال الهام التالى : ما هى العوامل التى ساعدت على نمو وتطور علم اجتماع ماركسى امبيريقى ؟

بغير دخول فى تفاصيل عديدة لا يسعها هذا المقال ، يمكن القول ان هذه الأسباب ترد الى ثلاثة رئيسية :

• وجود تراث وتقاليد لعلم الاجتماع الامبيريكى في البلاد الاشتراكية ذاتها . ولقد اشرنا الى مناهج البحث التى اتبعها كارل ماركس وانجلز فى بحوثهما ، غير أنه بالاضافة الى ذلك كانت توجد فى الاتحاد السوفيتى وفى بولندا على وجه الخصوص تراث عريق وتقاليد علمية خاصة بالبحوث الاجتماعية الميدانية .

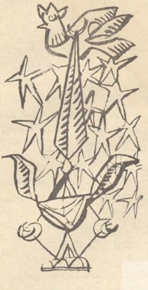
• طموح علماء الاجتماع الماركسيين وتطلعهم لربط مجالات عملهم بالحركة السوسيولوجية العالمية .

• التحولات الاجتماعية والسياسية ، وكذلك الاحتياجات التطبيقية للاقتصاد ولسياسة التخطيط فى البلاد الاشتراكية .

غير أن هذا التطور الحاسم أثار بطبيعة الحال أسئلة عديدة حول العلاقة بين علم الاجتماع الماركسى الأمبيريكى ، الذى بدأ ينمو بسرعة وبين المادية التاريخية .

علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى والمادية التاريخية

انقسم المفكرون الماركسيون فى الاجابة على هذا السؤال الى ثلاث فئات :



رات الفئـــة الاولى ان المادية التاريخية كما صاغها ماركس وانجلز ولينين ، هى نظرية سوسيولوجية عامة ، وان هذه النظرية قد ثبتت صحتها وحققت بطريقة قطعيـــة . ولكن من الضرورى ــ ومن أجل التطبيق ــ القيام ببحوث اجتماعية واقعية . وهذه البحوث يمكن اعتبارها المادية التاريخية نفسها فى مجال « الفعـــل » أو « التطبيق » .

وهذا الراى اعتنقه الجيل القديم من العلماء السوفيت الذين وان آمنوا بفائدة البحـوث الاجتماعية ، الا انهم استبعدوا امكانية صياغة نظرية سوسيولوجيه لا تندرج داخل اطـــار الصيغة الكلاسيكية للمادية التاريخية .

• أما الفئة الثانية فقد كانت اكثر جراة ، اذ ذهبت الى امكان ان تؤدى البحوث الميدانية الى ادخال تغييرات على الصيغ العامة للمـادية التاريخية بصورة الكلاسيكية .

ويرى انصار هذا الرأى امكان صـــياغة « نظريات متوسطة » تنطبق قبل اى شىء على الظاهرات والعمليات التى لم تظهر من قبل فى المجتمعات التى سبق لماركس وانجلز ولينين ان اخضعوها لتحليلاتهم .

ويؤسس هذا الراى على أن المجتمعـــات المعاصرة ــ ويشمل هذا المصطلح ليس فقط المجتمعات الاشتراكية ، ولكن ايضا المجتمعات الرأسمالية وما بعد الرأسمالية وما بعـــد الاستعمار ــ لم تكن معروفة للمفكرين الكلاسيكيين الذين لم يعرفوا لا الآثار المترتبة على العــلم والتكنيـــك الحـــديث ، ولا آثار التخطيط الاقتصادى .. الخ . وعلى ذلك فعلم الاجتماع الماركسى ينبغى أن ينشىء نظريات جديدة تنطبق على مجالات الوقائع الجديدة ، مستفيدا فى ذلك بالموجهات العامة للنظريات الكلاسيكية .

• واخيرا نجد الفئة الثالثة التى اعتنقت أكثر الآراء تطرفا . اذ ذهب دعاتها الى ان المادية التاريخية فى صياغتها الكلاسيكية كانت نظرية المجتمع الراسمالى فى المرحلة السابقة للثـورة العلمية والتكنولوجية . وهى تقدم لعلم الاجتماع المبادىء المعرفية والمنهجية البالغة العمومية .

ولكن على علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى أن يصوغ نظرية المجتمع المعاصر .

وعلى ذلك فالبحوث الميدانية لا تكون فقط مصدرا يضمن وصف الوقائع التى تثبت صحة النظرية ، ولكنها تمثل الأساس الذى ينبنى عليه التخطيط والتطبيق الاقتصادى والاجتماعى . وهى تقدم أيضا المادة اللازمة لصياغة التعميمات، وبناء نظرية المجتمع المعاصر ، بوسائل انتاجه الجديد ، ومبادئه الجديدة فى التدريج الاجتماعى، ودوره الجديد فى ثقافة الجموع ..

هذه هى الفئات الثلاث من الآراء التى حاولت حل مشكلة العلاقة بين علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى والمادية التاريخية .

غير أن قائمة المشكلات لم تنته بعد ، اذ عاد التساؤل يثور من جديد : اذا كان الأمر كذلك فما هى الفروق المميزة اذن بين علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى وعلم الاجتمـاع الأمبيريقى غير الماركسى ؟

السمات المميزة لعلم الاجتماع الماركسى الامبيريقى

هناك عديد من علماء الاجتماع فى البـــلاد الاشتراكية لم يحاولوا الاجابة على هذا السؤال، على أساس أن ذلك لا يدخل فى اختصـاصهم ، وانما هو من اختصاص المهتمين بموضـــوع الايديولوجية بمعناها العام .

غير أننا نستطيع أن نعتمد فى الاجابة على هذا السؤال على عالم الاجتماع السوفيتى او سيبوف الذى عرف علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى بانه :

« العلم الذى يهتم بقوانين نشأة ونمو وتغير التكوينات الاجتماعية والاقتصادية » . ويرى ان هذه القوانين تفصح عن نفسها فى وجود الظواهر والعمليات والوقائع الاجتماعية المحسوسة المادية والروحية .

ويرى أن السمات الأساسية لهذا العلم أربع وهى :

١ – اتحاد وثيق مع الحياة ، والوحدة التى لا انفصام لها بين البحوث السوسيولوجية النظرية والواقعية ، وبين المنهج والنظرية .

٢ – يحدد نشاطه ارادة توجيه الحياة الاجتماعية ، وهذه السمة تؤدى الى السمة الثالثة .

٣ – تنمية المبادىء العلمية للتخطيط والتغيرات الاجتماعية .

٤ – وآخر ما يميز علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى هو نزعته الانسانية .

ويرى عدد من علماء الاجتماع الماركسيين أن هذه السمات المميزة لعلم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى قد ادت الى ان يكون له ايضا سمات منهجية مميزة . فهو وان كان حقيقة يستخدم مختلف ادوات البحث السوسيولوجى ، مثل الملاحظة ، والمقابلة ، والمسح ، ومقاييس الاتجاهات ، وهى مطابقة تماما للأدوات المستخدمة فى علم الاجتماع غير الماركسى ، الا ان الاختلافات تظهر فى أربعة أمور اساسية :

- فى الموجهات المنهجية العامة .
- فى طريقة استخدام هذه الأدوات .
- فى طريقة جمع البيانات .
- وأخيرا فى تفسير البيانات .

وعلى هدى هذه الموجهات يدرس علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى الظواهر الاجتماعية، حريصا على اكتشاف العلاقات التى تحكم التكامل بينها ، واضعا اياها فى مسارها التاريخى .

ويضيق المقام هنا عن الدراسة التفصيلية للفروق المنهجية بين علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى وغيره مع اهميتها الكبيرة .

وقد يكون من المناسب أن تعرض للاتجاهات الأساسية فى البحوث الاجتماعية الميدانية فى احد البلاد الاشتراكية كالاتحاد السوفيتى ، لكى تبرز بوضوح كيف تتحول المنطلقات النظرية الى واقع عملى مترجم فى سلسلة مترابطة من البحوث والدراسات .

الاتجاهات الأساسية للبحوث الاجتماعية الميدانية فى الاتحاد السوفيتى :

يمكن حصر البحوث الاجتماعية الميدانية المختلفة فى الميادين الآتية :

١ – دراسات التغير فى البناء الاجتماعى للمجتمع :

- ويدرس هنا التغيرات فى الطبقة العمالية والفلاحيه .
- العمل الذهنى والعمل اليدوى .
- الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة.
- الاستخدام الرشيد للقوى العاملة .

٢ – المشكلات الاجتماعية للعمل :

- تغير شكل العمل ومضمونه .
- تغير الاتجاهات ازاء العمل .
- اختيار المهنة .
- جاذبية بعض المهن للشبان .
- المستوى الثقافى والفنى للعمال فى المشاريع الصناعية .
- التقدم التكنيكى وأثره على مضمون العمل وشكله .
- اهمية العوامل الاجتماعية – النفسية فى رفع الانتاجية وفى تنظيم الانتاج .

٣ – المشكلات الاجتماعية للحياة اليومية وللخدمات العامة :

- تغير بناء الأسرة ووظائفها .
- اثر اشتغال النساء على مراكزهن فى المجتمع والأسرة .
- الأسس الأدبية morales للحياة اليومية ولحياة الأسرة .
- التغيرات الاجتماعية والثقافية لدى النساء .

• وقت العمل والوقت الحر ووقت الترفيه .

• طرق الحياة والتحضر .

• طرق غرس قيم الجماعية في نفوس الأفراد .

• تطوير الخدمات العامة لتلافى اهدار الوقت خارج ساعات العمل .

• تخطيط المدن والقرى لتتلاءم مع مبادىء الحياة الشيوعية .

• طرق جعل الثقافة والعلم تلعب الدور البارز فى حياة الانسان .

• طرق شغل أوقات الفراغ .

٤ ـ دراسة مشكلات التوجيه الاجتماعى :

ويهتم بهذه الدراسة معهد الدولة والقانون ، الذى يعنى بدراسة فاعلية النصوص القانونية فى التوجيه الاجتماعى .

٥ ـ دراسة للمشكلات الاجتماعية المصاحبة لمحو الفروق بين المدينة والقرية :

• وتهدف هذه البحوث الى دراسة التنظيم الأمثل للانتاج الزراعى .

• تطوير حياة الريفيين وثقافتهم ليقتربوا من أهل الحضر .

• الأسس الاجتماعية للاسكان .

• دراسة بعض المسائل السكانية المتعلقة بالهجرة من الريف الى المدينة .

٦ ـ المشكلات الاجتماعية المتعلقة بالحياة الذهنية والثقافية :

• بحوث متعلقة تخلق الشخصية الايجابية اجتماعيا والمبدعة .

• دراسة لفعالية وسائل واساليب العمل الايديولوجى .

• الجوانب الاجتماعية ـ النفسية لتطور وسائل الاعلام (السينما ـ الراديو ـ التليفزيون) .

• دراسة للعلاقة بين التعليم والأخلاق والتطور الجمالى واللياقة البدنية فى تشكيل الانسان الجديد .

٧ ـ المشكلات الاجتماعية ، والاجتماعية النفسية للأشخاص :

• دراسة للفروق الفردية بين الاشخاص ، تستخدم نتائجها فى التخطيط الاجتماعى ، وكذلك فى أفضل استخدام للاشخاص فى فروع الانتاج .

٨ ـ مناهج البحث : المنهج وأدوات البحث :

ان البحوث الاجتماعية الميدانية تقوم على اساس استخدام مناهج وأدوات بحث تصلح لجمع البيانات الاساسية عن مختلف ضروب النشاط الانسانى : فى العمل ، والحياة السياسية ، والحياة الأسرية .. الخ . ويستخدم لذلك :

• تحليل البيانات الاحصائية من واقع السجلات الرسمية او الفردية .

• اجراء مسوح .

• استخدام الملاحظة .

• اجراء المقابلات المختلفة .

• تسجيل وتحليل الخبرات الاجتماعية .

• القيام بدراسة حالات فردية cose-studies

وهذا التنوع فى الادوات تقتضى بحث تكييفها على ضوء اسس منهجية علمية لكى تتناسب مع كل مشكلة .

وتنبغى الاشارة اخيرا الى التركيز الشديد على دراسة الموضوعات الآتية :

• اساليب التحليل الكمى للظواهر الاجتماعية .

• تنميط الظواهر الاجتماعية على الآلات الحاسبة والالكترونية .

• اقامة انماط رياضية تمثل سلوك الظواهر الاجتماعية .

• تنمية مناهج ذات طابع سيبرنيطيقى ورياضى لمشكلة التوجيه الأمثل للعمليات الاجتماعية .

• انشاء اسس علمية لنظام آلى يعتمد على الآلات الحاسبة لجمع ومعالجة البيانات الاجتماعية .

• اهتمام خاص ومركز بتنمية الأساليب الاحصائية والرياضية التى يمكن بموجبها أن يتحول علم الاجتماع الى علم بحث .

نظرة نقدية لعلم الاجتماع الماركسى الامبيريقى :

قد يكون من باب التعجل ـ وملامح الصورة الكاملة لعلم الاجتماع الماركسى الأمبيريكى لم تكتمل بعد أن ننظر له نظرة نقدية شاملة ، وخصوصا ونحن لا نمتلك كافة البيانات التى تسمح لنا بذلك نتيجة لندرة المراجع ، وعدم انتظام الدوريات العلمية الاشتراكية ، غير ان

هذا لا يمنع من أن نقدم عددا من الملاحظات النقدية العامة ، التى هى فى الواقع اقرب الى ان تكون تساؤلات تبحث عن اجوبة .

١ — أول ما نلاحظه ان التغير الجوهرى الذى حدث فى ميدان علم الاجتماع الماركسى هو ذلك الاندفاع الشديد نحو اجراء البحوث الاجتماعية الميدانية بعد فترة عقم طويلة ، قنع فيها الفلاسفة والمنظرين الماركسيين باجترار الصيغ التقليدية الماركسية المحفوظة ، ظانين بذلك انهم يستطيعون بواسطتها تفسير اى مجموعة من الحقائق الاجتماعية تحت اى ظرف من الظروف التاريخية ، وكأن الماركسية قد امتلكت الحقيقة مرة واحدة والى الأبد ! .

وقد تكفلت الحقائق الاجتماعية المعاصرة باثبات بطلان هذا المنهج . فالواقع دائما اغنى من النظرية ، بل ان الواقع هو نفسه المحك الرئيسى نصحة اى نظرية اجتماعية .

غير ان مجرد تزايد البحوث الاجتماعية الميدانية ، وان كان له اهميته ، الا أن الأهم من ذلك معرفة مدى ما ستسفر عنه عملية جمع البيانات الاجتماعية المتنوعة وتحليلها من انعكاسات على البناء النظرى للمادية التاريخية فالبحوث الميدانية الاجتماعية وان كانت حتى لآن تجرى فى اطارها ، الا أن ذلك ليس ضمانة ابديا . فمن المتصور ان تثور البيانات على النظرية ، تماما — وفق تشبيه فرنسى موفق عن جمود القوانين — مثلما تثور الوقائع على التقنين! ومعنى ذلك أنه قد تكشف البيانات الميدانية عن قصور بعض جوانب النظرية عن التفسير ، وتبدو الحاجة حينئذ ملحة لتعديلها ، ان لم يصل الامر الى البحث عن اسس اخرى للتفسير .

وهناك شواهد عديدة على ما تذهب اليه . والمثل الحى لذلك هو موضوع الطبقات الاجتماعية . فمن المعروف ان التعريف الماركسى الكلاسيكى للطبقة يربطها بملكية ادوات الانتاج وبموضعها من نسق الانتاج الكلى . ولكن ثار السؤال الهام التالى : هل تختفى الطبقات الاجتماعية تماما فى مجتمع اشتراكى تم فيه فعلا تأميم وسائل الانتاج واختفى التمايز الطبقى ، واصبح المجتمع — كالمجتمع السوفيتى المعاصر — مكونا من اشخاص لا من طبقات ؟

يبدو أنه بتحليل المجتمعات الاشتراكية المعاصرة ، من السهل ملاحظة انه وان اختفت الطبقات بصورتها التقليدية ، الا انه بدا يحل محلها فئات اجتماعية couches sociales متمايزة ، قد تنهض على أساس مهنى او على اسس اخرى . ومن هنا تدعو الحاجة الى اعادة النظر فى نظرية الطبقات الاجتماعية التقليدية لكى تستطيع ان تفسر الحقائق الجديدة فى المجتمعات الاشتراكية .

٢ — يذهب علماء الاجتماع الماركسيين — كما أشرنا — الى أنه من بين السمات الرئيسية لعلم الاجتماع الماركسى الامبيريقى أن له سمات منهجية خاصة تميزه . بعبارة أخرى ، هذا العلم وان كان يستخدم — فى الظاهر — نفس مناهج وادوات البحث المستخدمة فى علم الاجتماع غير الماركسى ، الا انه يتميز عنها من نواح متعددة اهمها : فى الموجهات المنهجية العامة، وفى طريقة استخدام ادوات البحث ، وفى طريقة جمع البيانات ، واخيرا فى تفسيرها .

والحقيقة أن عددا كبيرا من الباحثين يرفضون وجهة النظر هذه ، ويعتبرونها من قبيل المزاعم الفارغة . فالمنهج العالمى في نظرهم واحد فى كل مكان . الملاحظة هى الملاحظة سواء تمت فى المجتمع الروسى أو فى المجتمع الامريكى ، والمقابلة هى المقابلة ، واستمارة البحث هى استمارة البحث فما الفرق اذن ؟

تذكرنا هذه المناقشة بعبارة حكيمة سبق لعالم الاجتماع الامريكى المعروف رايت ميلز أن ساقها فى كتابه النقدى القيم « الخيال السوسيولوجى » . فقد ذهب ميلز الى انه «يبدو **أن هناك خلافا بين من يلاحظون بغير تفكير ، وبين من يفكرون بغير ملاحظة ، ولكن الأخطر من ذلك معرفة أى أنواع الملاحظة تجرى وأى أنواع التفكير تمارس»** .

ويشير ميلز هنا ببراعة الى الاتجاه التجريبى الذى أغرق فيه علماء الاجتماع الامريكيون أنفسهم بغير الاستناد الى أطر نظرية سابقة لتوجيههم ، ومن ناحية أخرى يشير الى هؤلاء الذين يقنعون بالتحليلات النظرية التى لا تسندها شواهد واقعية .

غير ان الأهم من ذلك اشارته الى انه ليس هناك تفكير هكذا على الاطلاق . كما انه ليست هناك **ملاحظة** هكذا على وجه الاجمال .
فالمهم تحديد نوع الملاحظة وابراز نوعية الحقائق التى تخضع لها . ويبدو صدق هذه الاشارة

من استعراض المنهج السائد فى علم الاجتماع الامريكى لدراسة الطبقات الاجتماعية ، او ما يطلقون عليه – لاخفاء الصراع الطبقى فى المجتمع – التدريج الاجتماعى social stratification يعتمد علماء الاجتماع الامريكيون فى هذا الصدد على توجيه الاسئلة لمجموعة من الناس (عينة البحث المختارة) لكى يرتبوا انفسهم على سلم طبقى معد سلفا . فيسأل الشخص مثلا : هل تعتبر نفسك تنتمى الى الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا ؟ ومن مجموع الاجابات يحاولون تقديم صورة علمية – فى زعمهم – لحقيقة التدريج الاجتماعى فى المجتمع المحلى الذى يخضعونه للدراسة . ولعل دراسة « وارنر » الشهيرة « يانكى سيتى » أبرز مثال على ذلك .

غير أن هذا المنهج الذاتى – ان صح التعبير – معيب من عدة جوانب ، لانه لا يمكن عن طريقه الحصول على صورة موضوعيه لوضع الطبقات الاجتماعية فى المجتمع . وهنا يبرز منهج آخر يعتمد على نظرية الطبقات الاجتماعية كما قدمتها الاشتراكية العلمية . ووفق هذا المنهج لا بد من تحديد الوضع الذى تشغله كل طبقة اجتماعية فى نسق الانتاج الكلى ولا تستطيع أن تغنى عن ذلك تصورات الأفراد الذاتية عن أوضاعهم الطبقية . ان هذه التصورات قد تفيد اذا كنا نبحث « الوعى الطبقى » ، وهو أمر لم تتجاهله أيضا الاشتراكية العلمية ، غير أن مجرد الوقوف عنده لا يكفى لتحديد الوضع الطبقى فى المجتمع .

وعلى ذلك نستطيع ان نتصور ان مناهج البحث وادواته في عالم الاجتماع الماركسى الاميريكى يمكن ان تتميز بذاتية واضحة تميزها عن شبيهاتها ولا ينبغى ان تغيب عن اذهاننا الانتقادات العنيفة التى وجهها علماء اجتماعيون امريكيون كبار للاجراءات البحثية فى عالم الاجتماع الامريكي ومن اهم هؤلاء سوردكنى ورايت ميلز . وتقف فى الصدارة انتقادات رايت ميلز لانه اسسها على ان كثيرا من مناهج البحث وادواته تستخدم استخداما خاصا فى علم الاجتماع الامريكى لاخفاء حقيقة الصراع الاجتماعى فى المجتمع الامريكى . ويكفى أن نشير بهذا الصدد الى دراسته النقدية العميقة : « الحياة الاجتماعية لمجتمع محلى حديث » . فهى تقدم درسا بليغا فى النقد العلمى لمناهج البحث . هذه بعض الملاحظات السريعة التى راينا تسجيلها بصدد علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى ، وهى ملاحظات لا تغنى عن دراسة اوفى واشمل .

خاتمة : بهذا نصل الى خاتمة دراستنا الوجيزة للاتجاهات الحديثة فى عالم الاجتماع الماركسى . والحقيقة ان هناك جوانب متعددة كانت تستحق أن نقف عندها طويلا لعرضها ودراستها وتاملها . ولعل من أهمها تحديد القيمة الحقيقية للنظرية السوسيولوجية الماركسية على ضوء دراسة جوانبها الثرية المتنوعة دراسة متعمقة ، لكى نضع الحدود بين ما هو مقبول منها الآن على ضوء الدراسات والبحوث الحديثة – وما يتعين رفضه .

ومن امثلة هذه الدراسات النقدية المتعمقة التى لا تصدر عن رفض مسبق لعلم الاجتماع الماركسى دراسة عالم الاجتماع الامريكى الألمانى الأصل رالف داهر ندورف الموسومة : « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى » (لندن، ١٩٥٠) ، والتى أخضع فيها نظرية ماركس عن الصراع الطبقى للنقد المتعمق .

كما أنه ينبغى علينا ان نبرز ما اضافه فكر ماركس السوسيولوجى الى تراث علم الاجتماع وتاثيره البالغ على عديد من علماء الاجتماع فى مختلف البلاد . وقد تكفل بوتومور وروبل في كتابهما : « كارل ماركس ، كتابات مختارات فى علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية » . لندن: ١٩٦١ ، بعرض هذا الموضوع بطريقة عميقة حقا .

غير ان كل هذا لا يغنى عن دراسة الوضع الراهن للبحوث الاجتماعية الميدانية التى تجرى فى البلاد الاشتراكية ، وتعقب ما تثيره من مشكلات نظرية ومنهجية ، كل هذا مع دراسة وتحليل ما بدا يظهر من دراسات نقدية عميقة يكتبها علماء الاجتماع الاشتراكيون لما يطلقون عليه علم الاجتماع البورجوازى .

والواقع اننا وضعنا كل هذه الجوانب الهامة فى الاعتبار فى دراسة شاملة لعلم الاجتماع الماركسى نقوم بها ، ونرجو لها ان ترى النور فى القريب ، لتبرز جانبا من اكبر جوانب التحول فى الفكر الاشتراكى العالمى فى الوقت الراهن . وهو فكر يزداد التسليم باصالته يوما بعد يوم، ويشتد الايمان بقدرته على تقديم المفاتيح الأساسية لفهم مختلف الظواهر التى يحفل بها عالمنا المعاصر .

السيد يسن

العلوم الانسانية بعد أن ذاب الجليد

حوار مع : جيرزى قياتر

أجراه : أمير اسكندر



« لا تصبح الاشتراكية علمية بمجرد الانتقال من المثالية الى المادية ، بل بالانتقال من التأمل النظرى الى النقد ، ومن الحلم الطوبائى الى المنهج التجريبى » .

هكذا كان يقول المفكر الفرنسى الكبير « **روجيه جارودى** » **فى كتابه « ماركسية القرن العشرين »** والواقع أن هذا القول الذى قد يبدو بديهيا ، لأول وهلة ، يلخص فى ايجاز شديد ، وبتعبير محدد ، المحاولات الجاهدة التى بذلت ـ وتبذل ـ لتخطى مرحلة التصلب والجمود التى أصابت الفكر الاشتراكى العلمى ، وعاقته عن النمو والتطور

والانفتاح على التجارب والنتائج الكثيرة الهامة التى قدمها الفكر الانسانى خارج اطار الماركسية التقليدية ، لا فى مجال التطبيقات الاشتراكية المتعددة فحسب ، وانما فى ميدان الجهود النظرية أيضا ، وفى قطاع هام منها ، هو قطاع **العلوم الانسانية** •

ويكفى أن يقال أنه فى مرحلة من مراحل تطور الفكر الماركسى ، كان هناك كتاب واحد « **فى** عشرين صفحة » يفترض فيها ــ على حد تعبير جارودى ــ « **أن تضم خلاصة الحكمة الفلسفية** » وطالما أن ذلك الكتاب الذى وضحه ستالين كان يستطيع الاجابة على كل الاسئلة التى تطرحها الحياة فى كافة المجالات التى تدرسها العلوم الانسانية فلقد كان من السهولة بمكان ، أن يقال عن هذه العلوم الانسانية انها « علوم بورجوازية » أو أنها ليست علوما على الاطلاق • فالمادية التاريخية مثلا كانت تتضمن سائر النتائج التى يمكن أن يصل اليها « **علم الاجتماع** » ، والواقعية الاشتراكية كانت تقدم الاجابات الشافية على كل الاسئلة التى يثيرها « علم الجمال » ! • وهكذا الحال فى سائر العلوم الانسانية كعلم النفس أو علم الاخلاق ، بل لقد امتد هذا التصور ليشمل بخطئه بعض العلوم الطبيعية والتكنولوجية مثل **السيبرنطيقا** » ، و « **الأوتوميشن** » التى قيل فى البداية أنها علوم بورجوازية •

ولقد تغير الوضع الآن الى حد كبير ، وتعدلت النظرة الى هذه العلوم ، أو بتعبير أدق ، صححت النظرة اليها ، وأصبح واضحا ما كان يخفيه الجمود المذهبى ، وهو أن الفكر الماركسى يغتنى ، وتزداد خصوبته بنتائج هذه العلوم جميعا • وأن هذه العلوم أيضا يمكنها أن تستقيم ، وترسخ أعمدتها على قاعدة صلبة من المبادىء والقوانين العلمية التى تقدمها الماركسية • ولا يعنى هذا ، بطبيعة الحال ، أن الاشكالات الفكرية قد حلت جميعا ، وأن التناقضات التى تصاحب الظواهر الفكرية ــ خصوصا فى مراحل التحول الحادة ــ قد اختفت • ففضلا عن أن هذا الامر يناقض طبائع الاشياء نفسها ، **فان مشكلة العلوم الانسانية ــ حتى فى العالم الغربى ــ ما زالت تعانى كثيرا من أزمات النمو ، وتصطدم بكثير من الصعوبات المنهجية ، فى محاولاتها الجاهدة كي تصبح « علوما مستقرة » مثل العلوم الطبيعية سواء بسواء** •

من هو فياتر ؟

ولقد أتيح لى أن التقى بواحد من أبرز وأهم المشتغلين بهذه العلوم الانسانية فى بولندة ، وربما فى العالم الاشتراكى الاوروبى كله ، وهو الدكتور « **جيرزى فياتر** » أستاذ العلوم الاجتماعية فى جامعة وارسو ، ورئيس قسم الدراسات الاجتماعية فى أكاديمية العلوم البولندية • والدكتور «فياتر» يوشك أن يخطو خطوته الاولى فى العقد الخامس من عمره • ولقد تنقل فى غضون أعوام الشباب هذه ما بين الجامعات البولندية المختلفة حتى وصل الى منصبه العلمى الرفيع فى أكاديمية العلوم • ثم أصبح رئيسا لجماعة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والسياسية ، وعضوا فى رئاسة الاتحاد الدولى للمشتغلين بالعلوم السياسية والاجتماعية • ورحل الى بلاد كثيرة فى أنحاء العالم ليحاضر فى جامعاتها ومنها فنلندا ، اويوغوسلافيا ، والمجر ، والهند ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة الامريكية •

ولقد وضع فياتر مجموعة من المؤلفات الهامة ، التى ترجم بعضها الى لغات أوروبية وآسيوية . مثل الروسية ، والتشيكية ، والألمانية ، والانجليزية، والفرنسية ، واليابانية • وأهم هذه المؤلفات : « **مشكلات العلاقات العنصرية فى علم الاجتماع الامريكى** » ١٩٥٩ ، « **الجيش والمجتمع** » ١٩٦٠ ، « **دراسات فى المادية التاريخية وعلم الاجتماع** ، ١٩٦٣ ، « **الجيش والسياسة والمجتمع فى الولايات المتحدة الامريكية** » ١٩٦٢ ، « **علم الاجتماع العسكرى** » ١٩٤٦ ، « **أهى نهاية الأيديولوجية ؟** ١٩٦٦ ، « **الأمة والدولة** » ١٩٦٩ ، وغيرها من الدوريات العلمية التى تصدر فى أوروبا الشرقية والغربية والولايات المتحدة الامريكية

وفى مكتبه ، بأكاديمية العلوم البولندية ، التى تطل على ميدان كوبر نيكس بمدينة وارسو ، طرحت أمامه مجموعة من المشكلات المثارة اليوم فى ميدان فى ميدان العلوم الانسانية ، شرقا وغربا • وأحسب أنه من المفيد أن أقدم هنا عرضا لاجاباته على الاسئلة التى تثيرها هذه المشكلات •

موضوعية المنهج ودقة النتائج

● هناك وجهة نظر تقول ان العلوم الانسانية ، لم تصل بعد ــ وقد لا تصل فى المستقبل ــ الى مستوى العلوم الطبيعية من حيث موضوعية المنهج، ودقة النتائج،لأسباب بعضها يتعلق بتسرب العناصر الذاتية والايديولوجية الى ذلك المنهج والى نتائجه أيضا ، وخصوصا فى ميدان هام من ميادين تلك العلوم ، وهو ميدان علم الاجتماع ، ما هى وجهة نظرك فى هذه المشكلة ، وكيف تتصور مستقبل هذه العلوم ؟

– اذا كان المقصود بالموضوعية هنا الموقف المنزه عن المصلحة والغرض تجاه المشكلات الانسانية ، والصراعات ، والميول ، والرغبات ، والقيم ، فينبغي أن أقول اذن ، ان العلوم الانسانية ، بتعريفها نفسه لا يمكنها أن تكون علوما موضوعية ، على نفس النحو الذى تكون عليه العلوم الطبيعية ، ولكننى أظن أن « **الموضوعية** » فى العلوم الانسانية تعنى التناول أو المعالجة العلمية للمشكلات التى تطرحها وهنا نلمح سمتين أساسيتين : **أولاهما : الجهد** المستمر والدائب لتحرير هذا النوع من الدراسات من أى شكل من أشكال التحيزات السابقة ، وأى طابع يوحى بالمحاباة والانحراف • **وثانيهما :** الاعتراف بالحقيقة القائلة انه كلما اتخذ الباحث أو الدارس موقفا تقدميا ازاء القضايا الاجتماعية والسياسية المتعارضة ، أو كلما كان بوسعه أن « يمثل » قوى وطبقات تقدمية ، فالاحتمال الاكبر أن بحثه ودراساته يمكنها أن تصل الى نتائج واكتشافات أكثر قيمة ، وأكثر دواما • وبهذا المعنى فاننى أومن بتقدم العلوم الانسانية شأنها شأن العلوم الطبيعية سواء بسواء • ولكن العلوم الانسانية لا ينبغى أن تبحث عن مستقبلها فى « تقليد » العلوم الطبيعية ، بل فى تطوير وتنمية طرقها ووسائلها الخاصة من أجل فهم العالم الذى نعيش فيه •

الأيديولوجية وعلم الاجتماع

● **لعل اجابتك هذه تثير مشكلة هامة فى ميدان العلوم الانسانية • وهى مشكلة العلاقة بين « الأيديولوجية » وهذه « العلوم الانسانية » ، وخصوصا علم الاجتماع • فاذا كانت القوانين الخاصة بالعلوم الطبيعية ،لا تختلف باختلاف العقائد والمذاهب التى ينتمى اليها أو يعتنقها العلماء الطبيعيون ، فان الامر يبدو على خلاف ذلك – بمقتضى رأيك السابق – فى الميدان الخاص بالعلوم الانسانية ، ترى هل يمكن أن توضح لى وجهة نظرك فى هذه العلاقة التى تراها بين «الايديولوجية » و « علم الاجتماع » مثلا ؟**

– العلاقة بين الايديولوجية والعلم فى السوسيولوجيا ، يجب أن ننظر اليها بطريقة جدلية ، فلا ينبغى أن نعتبرها علاقة بين أشكال مختلفة من التفكير ، بل كعلاقة بين مظاهر مختلفة للتفكير نفسه فى الواقع • وعندما نحلل المفاهيم السوسيولوجية من زاوية العلاقة بين الافكار التى تعبر عنها وبين الواقع ، من الممكن عن طريق التجريد العقلى ، أن نتغاضى عن مغزاها الايديولوجى وحينئذ تنصب دراستنا على مشكلات العلم كما هى ، أو بما هى كذلك ، ولكن القضية تكمن فى عملية التجريد هذه • فنحن قد ندرس كتاب « ماركس » رأس المال • أو كتاب « موسكا » الطبقة الحاكمة » ، أو كتاب « ميلز » « صفوة السلطة » ، فقط كى نمتحن « تجريبيا » الافكار التى تضمنتها هذه الاعمال • ولكن هذه الاعمال – شأن كل الاعمال السوسيولوجية الهامة – لا تؤدى وظيفة علمية فحسب ، بل وتؤدى وظيفة ايديولوجية أيضا • انها تنظم بطريقة عقلية خبرات الجماهير ، وبالتالى تصبح استمرارا عقليا لنشاطاتها وهكذا يلوح أن العلاقة بين العلم والايديولوجية ليست علاقة خارجية وعرضية ، وانما هى جزء متكامل من العلوم الانسانية •

علم الاجتماع والمادية التاريخية

● **لقد كان هناك مفهوم سائد فى العالم الاشتراكى – خصوصا ابان المرحلة الستالينية – يقول ان المادية التاريخية هى علم الاجتماع الماركسى • وما من شك فى أنك تعرف مبلغ ما ترتب على هذا المفهوم من تعطيل للدراسات الاجتماعية فى هذا العالم الاشتراكى ، ومن افتقار للفكر الاشتراكى عموما فى هذا المجال • هل توافقنى على ذلك أم لا ؟ ثم •• الى أى مدى أمكن لعلم الاجتماع والدراسات الانسانية عامة أن تتخطى هذه العقبة الآن ؟**

– أنا لا أعتقد ، شخصيا ، أن المشكلة الرئيسية تكمن فى المفهوم الخاطىء عن العلاقة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية •فالماركسيون المعاصرون يختلفون حول الاجابة الدقيقة المحددة لسؤال : كيف ينبغى أن تكون العلاقة بينهما • ومع ذلك ، ومهما كان هذا الخلاف ، فانهم ، عمليا ، يتفقون على ضرورة تطور النظرية الاجتماعية الماركسية – التى ينبغى أن تنهض فى رأيى الخاص على أساس المادية التاريخية – وتطوير وتنمية البحوث التجريبية • والمشكلة الحقيقية المحددة فى هذا المجال لا تدور حول ، **العلاقة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية ، ولكنها تتلخص فى كيفية اقامة البحوث التجريبية على أسس نظرية واضحة •** وأعتقد أن ثمة خطرين يلوحان هنا • خطر ينجم عن « التجريبية » البدائية ، ويتمثل فى أنها

تتجنب الصعوبة كلها بالقيام بأبحاث ليست لها دلالة نظرية بالمرة · وخطر آخر ينجم عن « المدرسية » يتمثل في أنها تتجنب الصعوبة أيضا بعدم القيام بأبحاث تجريبية على الاطلاق وأعتقد أننا قطعنا شوطا كبيرا الآن في تجنب كلا الخطرين · ومع ذلك فما زال أمامنا الكثير لنصنعه في المستقبل ·

أهي نهاية عصر الايديولوجية ؟

● هناك قضية هامة مثارة في ميدان العلوم الاجتماعية — وخصوصا على أيدي العلماء الأمريكيين والفرنسيين ، أحب أن أعرف وجهة نظرك فيها · وهي قضية الآثار المترتبة على تطور الثورة التكنولوجية على النظم الاجتماعية والسياسية المتعارضة في عالم اليوم · هل تعتقد حقا أن هذه الثورة التكنولوجية سوف تؤدي الى صياغة اجتماعية سياسية جديدة للمجتمعات المتطورة ؟ أترانا حقا نشهد غروب ذلك العصر الذي دعاه عالم الاجتماع الفرنسي « ريمون آرون » « عصر الايديولوجية » ؟

— أنا لا أتفق مع هؤلاء المفكرين الغربيين الذين يتبنون هذا الرأي · ولقد ناقشت هذه القضايا في مناسبات عديدة ، وخصوصا في كتابي « أهي نهاية الايديولوجية » الذي صدر عام ١٩٦٦ · وكي ألخص لك رأيي في وضوح فانني أقول أن هؤلاء العلماء أو المفكرين يطمسون في تناولهم لهذه القضية « الفروق بين التكنولوجيا والسياسة » · فالتكنولوجيا تتطور — الى حد كبير أو قليل — بشكل « متواز » في العالم كله · هذه حقيقة لا يمكن انكارها · فليس هناك كما كنت تقول علم طبيعة «اشتراكي » ، كما انه ليس هناك ديناميكا كهربائية « لها طبيعة بورجوازية » · والوحدة الاساسية للتكنولوجيا ينتج عنها — في تواز أيضا — بعض الملامح المشتركة ، وأوكد كلمة « بعض » هذه ، في أساليب الحياة ، فبصرف النظر عن النظم السياسية والاجتماعية فاننا جميعا نشاهد التليفزيون ، ونقود السيارات ونتعاطى المضادات الحيوية عند اللزوم · والخلافات في هذه المجالات تنبع من الاختلافات في التقاليد وفي مستويات الوفرة الاقتصادية · ولكننا اذا تركنا مجري الحياة اليومية فان ما يزعمونه من «تقارب » سوف يحدث بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين يبدو أسطورة ووهما أكثر منه حقيقة وواقعا · فالنظم الايديولوجية والاجتماعية والسياسية ليست « انعكاسات » للتكنولوجيا بطريقة بسيطة ومباشرة وعلم الاجتماع الماركسي حرص منذ البداية على تأكيد العلاقات المعقدة بين التكنولوجيا ، والبنية الاقتصادية للمجتمع ، والبناء السياسي الفوقي والوعي الاجتماعي · وليس هناك في التاريخ الانساني ، تماما كما هو الحال في النظرية السوسيولوجية ، ما يبيح أو يبرر افتراض أن الرأسمالية والاشتراكية سوف « تتقاربان » في المستقبل في « مجتمع صناعي » ما · كما أنه ليس هناك أيضا أي برهان تجريبي ينبت التحلل الايديولوجي المستمر · وفي اعتقادي أن كل أنواع « نظريات التقارب » هذه ، هي في المقام الاول تعبير عن الازمة الايديولوجية التي يعانيها المجتمع الرأسمالي ، الذي يحاول — في عجزه عن هزيمة الاشتراكية — أن يغري نفسه بأن الحتمية التاريخية سوف تصنع ما عجزت القوى الامبريالية عن صنعه وهو تحطيم الاشتراكية كنظام اجتماعي جديد ، ومن جانب آخر فان «نظريات التقارب » تستخدم كأداة في الحرب النفسية ضد بلادنا · انها تستهدف احداث نوع من التحلل الايديولوجي في المجتمعات الاشتراكية ، والمجتمعات المناهضة للامبريالية ، والعالم الثالث ·

هل هناك « مدرسة بولندية » ؟

● هل يمكن لي أن أتحدث عن « مدرسة بولندية » في علم الاجتماع ؟ ان كلماتك السابقة توحي بأن ثمة وجهة نظر مقابلة لوجهة نظر علماء الاجتماع الغربيين ، ويمكن أن أفهم ذلك بالطبع **الاجتماع الغربيين ، ويمكن أن أفهم ذلك بالطبع على أنه اختلاف في الأسس الأيديولوجية التي تصدر عنها كلتا وجهتا النظر ، ولكن — مرة أخرى — هل يمكن القول بأن وجهة نظركم هذه تشكل مدرسة متكاملة في علم الاجتماع لا مجرد أساس ماركسي واحد يتحرك فوق أرضه العلماء على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم ؟**

— ان علم الاجتماع له تراث عريق في بولندا · لقد تأسس كمجال مستقل ومنفصل في البحث العلمي بعد عام ١٨٨٠ · وبرز فيه أساتذة معروفون مثل : **لودفيج كريزيفسكي** ، وهو أول عالم ماركسي عندنا ، **وكازيمير كراوس ، وادوارد أبراموفسكي ، وبولسلاف ليامونفسكي** ، وقد كانوا اشتراكيين ، وان لم يتبنوا وجهة النظر الماركسية بشكل كامل · كما كان لدينا وضعيون أمثال **الكسندر سفيتوشوفسكي** ، بالاضافة الى

عدد آخر من الاساتذة والعلماء الذين مثلوا ويمثلون الاتجاهات الفكرية المختلفة فى العالم ·

ومع ذلك ، فمن البدايات الاولى لنشأة هذا العلم فى بلادنا ، ارتبط بشكل وثيق بالحركات الاجتماعية والسياسية التقدمية ، ولعب دورا ملحوظا فى تطور الوعى القومى للأمة البولندية ، التى كانت محرومة حينذاك من دولتها الخاصة · ولقد استمر هذا الوضع ابان الجمهورية البولندية الثانية (١٩١٨ ـ ١٩٣٩) عندما كرس علماء اجتماع من أمثال **ستيفان كزادنوفسكى ، وستاسلاف أوسوفسكى وجوزيف شالازنسكى** وغيرهم ، أبحاثهم لدراسة المشكلات الاجتماعية البارزة حينذاك ، مثل مشكلة البطالة ، والفقر ، والهجرة ، والثقافة العمالية ، ·· الخ ·

أما فى بولندا الشعبية ، فان علم الاجتماع يتطور بسرعة ، ويلعب دورا فعالا فى عملية التحول الاشتراكى · واذا كان يمكن للمرء أن يتحدث عن « المدرسة البولندية » فى علم الاجتماع وأنا أميل الى ذلك ـ فانه يمكن القول حينئذ أن هذه المدرسة تعنى ثلاثة أشياء رئيسية : ـ

أولا : المجابهة المستمرة بين الماركسية والنظريات الاجتماعية الأخرى : **ثانيا :** احتضان قوى لقيم التقدم الاجتماعى والشخصية القومية · **ثالثا :** تنوع وتعدد فى مناهج البحث والمعالجة أما الحديث عن المنجزات التى تحققت فهو أكثر صعوبة ، لأنه يتطلب حكما تقويميا عميقا · ومع ذلك ، فانى أود أن أذكر على الخصوص في هذا الصدد ، بعض النتائج التى انجزت : أولا : بناء هيكل مدعم ومؤثر من المعلومات العملية عن التحولات الاجتماعية فى المجتمع البولندى المعاصر ، مثل الدراسات التى أجريت عن الطبقة العاملة والانتلجنسيا تحت اشراف الاستاذ **جان زبانسكى** ، والدراسات التى أجريت عن الفلاحين تحت اشراف **جوزيف شالاسنسكى** · وثانيا : اضفاء طابع « المعاصرة » على مناهج البحث وتكنيكاته · **ثالثا :** تطوير فروع متعددة متخصصة من علم الاجتماع ، على سبيل المثال : علم الاجتماع الصناعى ، علم الاجتماع الريفى ، علم الاجتماع الثقافى » ، علم الاجتماع السياسى ، علم الاجتماع العسكرى ، علم الاجتماع الطبى » ·· وغيرها من الفروع ·

علم الاجتماع الملتزم ؟

● يبدو لى ان ثمة تخطيطا دقيقا لمجموعة الابحاث التى قمتم بها فى ميدان العلوم الاجتماعية تخطيطا يستجيب لمتطلبات الواقع البولندى الخاص بكم · واذا لم يكن هناك ما يتعارض مع حرية البحث الاجتماعى وموضوعيته ، فلعلى أستطيع أن استعير ذلك التعبير الادبى الشهير ، وأقول أنكم تنادون بعلم الاجتماع الملتزم ؟ أمخطىء أنا ؟

ـ لا · لم تخطىء بالطبع · بيد أن المثل الاعلى لعلم الاجتماع « **الملتزم اجتماعيا** » ، كما تقدمه الماركسية ، ليس ببساطة اكتشافا ، كما أنه ليس أيضا اقتراحا بأسلوب معين فى علم الاجتماع ، انه بالاحرى انعكاس لالتزام علم الاجتماع الفعلى والذى لا مهرب منه بالحياة الاجتماعية التى لا يمكن أن تكون دراسات فحسب ، وانما تغيرات أيضا · وهذا المثل لاعلى يضع فى اعتباره دائما الحاجة الى معرفة أوضح بالالتزام العملى والايديولوجى لهذا العلم الذى يستمد مغزى وجوده نفسه من الوظيفة العملية للمعرفة العلمية · ان علم الاجتماع الماركسى يخدم بوعى التطور الاجتماعى ، ويخلق رؤية للعالم تنظم عقليا الفعل الانسانى · **انه لا بد أن يشغل نفسه تماما بتحقيق القيم التى تتبناها القوى الاجتماعية الاشتراكية والتقدمية ·**

هذا عرض لاجابات « **فياتر** » على بعض الأسئلة التى طرحتها أمامه ··

وهى اجابات تثير ـ كما اعتقد ـ مزيدا من الاسئلة الاخرى ، ولعل من سمات الفكر الخصب أن يثير من الأسئلة أكثر مما يضع من اجابات !

ولقد حملت كلماته ، وهبطت من مكتبه بأكاديمية العلوم ، ومضيت الى الميدان الواسع الذى يتوسطه تمثال **كوبرنيكس** وقد حمل فى يديه نموذجا مصغرا للكرة الارضية وهى تدور دورانها الابدى حول الشمس ، بينما تاهت عيناه فى الفضاء العريض الذى يحيط بعالمنا ·

وفى الطريق ·· كانت جمهرة غفيرة من الناس أشبه بمظاهرة ، تحيط بمبنى السفارة الامريكية وعرفت انهم جاءوا جميعا يتابعون على شاشات التليفزيون عملية هبوط رواد الفضاء فوق أرض القمر !

وتعجبت من هذه المصادفة ·· انه طريق بدأ بكوبرنيكس ـ الذى لولا ابحاثه واكتشافاته التى قلبت التصور الانسانى للعالم رأسا على عقب ، واثبتت بالبرهان العلمى أن الارض ليست هى مركز الكون ، لما أمكن لأولئك الرواد أن يهبطوا الآن فوق القمر · انه الطريق الطويل ، الذى استغرق قرونا عديدة ، وتطورت من خلاله العلوم الطبيعية ·

قلت فى نفسى وأنا أمضى : **ما أطول المسيرة التى ما زال على العلوم الانسانية أن تقطعها !**



طبيعة الموضوعية في التفسير التحليلي النفسي

د. أحمد فايق

منذ أن تحول فرويد عن العلاج بالتنويم الايحائى الى العلاج التحليلى النفسى (عام ١٨٩٧) ، أصبحت عملية التفسير التحليلى موضوعا لجدل حاد لعلماء المناهج والفلاسفة . فبالرغم من أن جميع الجهود العلمية تهدف فى النهاية الى التفسير ، الا أن التحليل النفسى قد حول عملية التفسير الى مشكلة جوهرية تمس الفكر الانسانى مسا ثقيلا ، فضلا عن عدم حسمه لها حسما نظريا يرضى الفلاسفة وعلماء المناهج ارضاء كاملا .

ان نقطة البدء التى نختارها لدراسة طبيعة التفسير فى التحليل النفسى هى (الموضوعية) بوصفها أكثر النقاط اثارة للنقاش . فاكثر مايؤخذ على التفسير فى التحليل النفسي انه يفتقد الموضوعية objectivity . والواقع ان نقاش هذه النقطة يحتاج الى التمييز بين أمرين : التفسير explanation والشرح interpretation

فالقانون العلمى الفيزيقى ـ والانسانى اذا ما تحقق ـ هو صيغة دقيقة لعلاقة مجموعة من الوقائع ،بحيث لاتخرج هذه الصيغة عما تكون عليه هذه العلاقة . فقوانين تمدد المادة او قوانين الجاذبية هى صيغ دقيقة ولغةمحددة تشرح العلاقة بين مجموعة من المتغيرات فى عبارات ـ أو رموز ـ كمية . وتتكون هذه الصيغ عادة وفق نمط سابق من الملاحظات التى قامت على هذه الظواهر المعنية . القانون العلمى ـ اذن ـ هو شرح لعلاقة مقننة standard تمكننا من ادراك وجود متغير غير متحقق فى الظاهرة التى نطبق عليها القانون ، وذلك بناء على تحققه فى الملاحظات الاصلية التى اقيم القانون عليها . بعبارة اخرى ، ان العلوم الفيزيقية ـ والاساليب الوصفية فى دراسة الانسان ـ تهدف الى شرح الظواهر لا الى تفسيرها ، لانها ـ وبصورة ما ـ لاتبحث عن علل الظواهر . فعالم الطبيعة لايعنى بالاجابة عن العلة فى قدرة الحرارة على تغيير حجم المواد ، بل يكتفى بشرح مايحدث «نتيجة» للحرارة فى البنية الذرية للمادة . كذلك فى علم النفس ، لايعنى عالم النفس التقليدى بتفسير اختلاف بعض الدوافع فى تأثيرها على سلوك الفرد ، بل يكتفى بشرح «الفاعلية» الدوافع على السلوك . وقد يندفع البعض الى الاعتقاد بان الشرح أقل مرتبة من التفسير فى قيمته العلمية . ولكن يجب الا ينظر الى الامر على هذا النحو نظرا لاختلاف المادة التى يجب أن تعالج بالتفسير او تتناول بالشرح .

وقد بدأ لبعض علماء النفس أن الصيغة «الشارحة» هى الطريق الى اقامة علمهم على نسق العلوم الفيزيقية بما لها من رونق الصلابة والتماسك . لذلك ظهرت الدعوة الى التجريب فى نطاق النفس لاستقراء القوانين العلمية الوصافة للنشاط النفسى . وقد انبنى هذا الاتجاه على مبدأ بسيط ومعقول فى شكله هو : اثارة العلاقات بين نشاطات الانسان ثم وصفها وصياغتها فى قانون .

الا أن فرويداستطاع أن يقدم الادلةالمادية ـوالمنطقيةـ على وجود قطاع كبير من الحياة النفسية غير قابل للتحقق المباشر ، وهو ماأطلق عليه تعبير اللاشعور . وبطرح هذه المشكلة على علم المناهج يتضح بجلاء أن فكرة القانون الانسانى يواجه عقبة غير متوقعة . فلكى يتمكن عالم النفس من وضع قانون للنشاط النفسى لابد أن تكون جميع امكانيات النفس قابلة للتحقق المتكافيء . والكن مادام هناك قطاع من هذه الامكانيات خاف وله طبيعة التخفى ،فلايمكن الدعوى بامكان وضع قانون علمى للنفس على نسق القوانين الفيزيقية . بمعنى آخر وأكثر تحديدا للاستشكال : ان التحليل النفسي باكتشافه لفاعلية اللاشعور فى العمليات الشعورية يرى فى السلوك الانسانى قصدا intention والقصد ـ منطقيا ـ أسبق على المقصود ، وهو بذلك لايوجد فيه ، بل هو متضمن له ومتضمنه .

ان القصد مفهوم محير فى مجالى العلوم الفيزيقية والانسانية معا . وقد أبعده علماء الطبيعة عن مجال دراساتهم ليبقى هدفا للفهم الدينى أو للبحث الانسانى . ولم يستطع علماء الانسان أن يبعدوا هذا المفهوم عن مجال دراساتهم بنفس السهولة التى تأتت لعلماء الفيزياء . فمن جانب يعد علماء الانسيات المسئولين المعاصرين عن هذا

المفهوم . ومن جانب آخر تؤدى بهم دراساتهم ـ بقصد أو بدون قصد ـ الى الاهتمام بهذا المفهوم والاصطدام به سواء في حدوده البسيطة وهى قصدية السلوك الفردى أو فى حدوده العامة المركبة وهى قصدية السلوك البشرى . فكل نشاط انسانى يتضمن شيئا بخلاف هدفه ، وكل سلوك فردى يتضمن غاية بخلاف موضوعه . ان القصد هو مضمون السلوك ومعناه ، ونادرا ـ ان لم يكن مستحيلا ـ أن يجد عالم النفس سلوكا فرديا متضمنا كل قصده ومعانيه .

لم ينكر علماء النفس التقليديين وجود قصدية فى السلوك الانسانى ، ولكنهم ظلوا يعاملون القصد فى مستوى الامكانيات النفسية المتحققة بواسطته . فظهرت تعبيرات الغريزة والميل والاتجاه والدافع . وعامل علماء النفس هذه الخواص على انها امورا تصلح للتجريب اى لاستقراء قوانينها العلمية . ولكن بظهور مفهوم اللاشعور عند فرويد تحولت هذه التعبيرات الى نطاق آخر من نطاقات الحياة النفسية ، وغدت فى نظر التحليل النفسى اساسا للحياة النفسية اللاشعورية . وجدير بالذكر ـ وحتى لا يبدو القول تعسفا فى التعميم ـ ان اكتشاف فرويد للنشاط النفسى اللاشعورى كان سابقا على تحديده لمضمون اللاشعور فقد تنبه فرويد الى اللاشعور ثم شرع فى كشف مضمونه ، وكان المضمون المكتشف هو القصد والذى عبر عنه فى مراحل مختلفة من تفكيره بتعبير الغريزة instinct ويجمل بنا أن ننوه هنا بامر آخر . لقد تعرض فرويد لعديد من المشاكل العيادية والنظرية فى طريق بحثه عن مكنون اللاشعور . لذلك يجد القارىء للتحليل النفسى ان أكثر أجزاء نظرية فرويد فى النفس غموضا وتغيرا ، هى تلك التى تناولت مضمون اللاشعور . فقد عدل فرويد من مفهومه عن «القصد» تعديلات جوهرية تكاد تكون نقضا لسابق آرائه . وفى هذا ما يدل على أن مشكلة القصد فى السلوك الانسانى مشكلة محيرة فعلا . ولكن ـ وفى حدود التزام فرويد بمفهوم اللاشعور ـ تبقى القضية الاساسية على ما هى عليه : مادام السلوك الانسانى متضمنا فى قصد ، فان الموقف ملزم للعالم ايجاد تفسير للسلوك ـ اى الكشف عن القصد وتعليل النتيجة (السلوك) . والالتزام بالموقف فى صيغته السابقة يستوجب امرين : ارجاء الشرح الى ما بعد التفسير ، وتحليل النتائج للوصول الى القصد فى السلوك .

لقد التزم فرويد بالموقف على النحو السابق . فرفض بوضوح أن يصف الظواهر وأصر على ان الحياة النفسية تحتاج اولا الى تحليل يعقبه الوصف . ويقول فرويد فى ذلك : « ليس غرضنا أن نصف ونصنف الظواهر بل ان ندركها بوصفها نتاج تعامل بين قوى في العقل (النفس) ، وباعتبارها تعبيرا عن اتجاهات نحو هدف ، تعمل معا او بالتعاقب . نحن نحاول ان نتحصل على مفهوم دينامى للظواهر العقلية (النفسية) . بهذا المفهوم تصبح الاتجاهات التى توصلنا اليها ، اظهر وأشد اهمية من الظواهر التى نلاحظها » . (المحاضرات التمهيدية فى التحليل النفسى ص ٥٥ من الطبعة الانجليزية ، ١٩٤٩) .

خلاصة الامر اذن ، ان التحليل النفسى قد جعل عملية «التفسير» وسيلة واداة وقاعدة لدراسة النفس ، مناقضا علماء النفس التقليديين فى اعتبار التفسير غاية وهدفا وقمة الدراسة . فالتفسير لدى المحلل هو طريقه الى المعرفة بالنفس ، لذلك يقوم به وهو مطمئن الى امكان تعديله وتطويره بما يناسب ما يجد من مادة تفسر. أما عالم النفس التقليدى فيتناول التفسير بوصفه الغاية من المعرفة بالنفس ، لذلك يقترب منه بحذر شديد وبشك مفرط احيانا فى ان يطابق الواقع . ولو لم يقصر المحللون النفسيون فى حسم مشكلة التفسير حسما مباشرا متحملين المسئولية كاملة ، لكان الوضع الراهن مجرد خلاف بين تيارى معرفة واختلاف فى رايين فى منهج دراسة النفس . ولكن المحللين النفسيين ظلوا يناقشون مشاكلهم نقاشا غير محدد وغير ملتزم بأسباب منطقية ، الى ان أصبح موضوع «التفسير» واحدا من المشاكل التى لا تجد من يوفيها حقها من الاقتناع بها .

ان عملية التفسير هى نقطة الانطلاق التى بدأت منها المعرفة التحليلية بالنفس ، وهى نفسها نقطة الانشطار التى خلصت التحليل النفسى من قيود المعرفة السلفية بالنفس . ويواجهنا سؤال هام : الى اين ذهبت فكرة التفسير بالتحليل النفسى ؟ هل ابعدته عن غاية العلم وهى المعرفة الحقة والمعرفة بالحقيقة ؟ ام قربه التفسير من ذلك ؟ هل بعد التحليل النفسى باتباعه التفسير عن موضوع بحثه وهو الانسان أم اقترب منه ؟ ان هذه الصيغ المختلفة لنفس الاستشكال تدور حول فكرة واحدة : هل التفسير التحليلى النفسى موضوعى أم ذاتى ؟ وقد يتبادر الى الذهن أننا سوف نناقش موضوعية وذاتية التفسير التحليلى ، ولكننا فى الواقع سوف نناقش التحليل النفسى، بوصفه عملية تفسير ، في ضوء محك للموضوعية والذاتية.

نحتاج اذن الى تحديد كاف وواضح لمعنى الموضوعية لا يحدث حوله خلاف . فمادام النقاش يدور حول عملية التفسير «كوسيلة» للمعرفة ، فهذا يعنى نقاشا حول حدود الخروج عن النتائج الى المقاصد ، والاحالة الى المتضمن بتجاوز الموجود والمتحقق . فمعرفة تقوم على الخروج عن المعطى الى معناه فى محاولة للتفسير ، قد تبعد عن الموضوع أو تنأى عنه ، بل قد تتحول من الموضوع الى نقيضه في عملية بسيطة ومغرية كذلك بالتحول . لذلك سوف نبدأ بتحديد معنى الموضوعية .

● الموضوعية :

تدل لفظة الموضوعية object-ivity على مضمونها دلالة مباشرة . فعندما ننسب الى « الرأى » صفة الموضوعية فانما نعنى تقديرا لمدى قربه «من أصله ومادته». «فالحكم» الموضوعى ، هو حكم التزم بالموضوع المحكوم عليه ، دون تأثر بالحكم ذاته ، أو بذات الحكم . بمعنى آخر ، ان الموضوعية هى « فعل تقدير » لا يدخل فيه نقيض الموضوع بشخصه بل بملكته على التقدير : أى فعل مستقل عن ذات الفاعل . ويجدر بالقارىء أن يعود الى كتاب أو نرى لوفيفر « أزمة الماركسية المعاصرة » والى لينين فى مؤلفه « المادية والنقدية التجريبية » لمزيد من التفاصيل فى هذه النقطة .

على هذا الاساس تقوم لفظة الذاتية subject-ivity نقضيا للفظة الموضوعية (ذات ـ موضوع) حيث تكون الذاتية هى ما يخص نقيض الموضوع . وصياغة المشكلة على هذا النحو تثير نقطة هامة نرجئها الى ما بعد وهى : كيف نحدد الموضوع ونحدد نقيضه ، وبالتعيين فى مجال التقدير النفسي . ولكن بالتغاضى عن هذه النقطة حاليا ـ ومؤقتا ـ يمكن تصوير المشكلة الخاصة بالذاتية والموضوعية على مقياس : احد طرفيه الذات وطرفه الآخر الموضوع . ويتراوح الحكم المتأثر باحد الطرفين بين ذاتى خالص وموضوعى خالص ـ وذلك من الوجهة النظرية البحتة . أما من الناحية العملية فسوف نجد أحكاما تتشبع بالذات أكثر من التزامها بالموضوع فيصبح الحكم أميل الى الذاتية ، وبالعكس اذا التزم الحكم بالموضوع ولم يتأثر بالذات مال الى الموضوعية . ولهذا التصور ثلاثة احتمالات مجردة :

الاحتمال الاول : حكم موضوعى عن تفاعل بين مادتين أو موضوعين فيزيقيين لا دخل للذات فى أثر أحدهما على الآخر . مثال ذلك تفاعل الحرارة مع أحد الفلزات . ومن ملاحظة وقياس التفاعل يمكن ان نستخرج قانونا ذا طابع ميكانيكى خالص ، أى حكما موضوعيا خالصا ـ وهو ما ترمى اليه علوم الطبيعة .

الاحتمال الثانى: حكمان: واحد أميل الى الموضوعية وآخر أميل الى الذاتية ، وكلاهما يصدر عن ملاحظة نفس الشيء • فتفاعل مادة أو موضوع فيزيقى مع ذات انسانية يعطى مجالين للحكم التقدير . مثال ذلك تفاعل الفنان مع احدى وسائل التعبير الفنى ، أو تفاعل المعدة مع الطعام . يمكن فى هذه الحالة ان يصدر حكم أقرب الى الموضوعية ينصب على تقدير ما وقع على المادة (صخر منحوت أو طعام مهضوم) ، وأن يصدر حكم آخر أقرب الى الذاتية (عمل وخلق فنى ، أو شبع وتلذذ) . وبين الحكمين قد نجد مستويات مختلفة من الاحكام المحتملة .

هذا الاحتمال له قيمته فى تقدير البحث النفسي بالذات ، فاذا انصب المبحث النفسى على أساس ملاحظة وقياس واستقراء فاعليه مؤثر فيزيقى على انسان ، أو اعتبار المجرب (انسان) مؤثرا فيزيقيا على آخر نجرب عليه ، فان أمامنا مجال بحث يتراوح الحكم فيه بين الذاتية والموضوعية . ولعل اهم ما يقوم عليه علم النفس الاكلديمى حاليا ـ ومنذ فونت ـ قائم على تصور المشكلة على هذا النحو .

الاحتمال الثالث : استحالة اصدار حكم أو تقدير ما . فتفاعل موضوعين انسانيين يخلق موقفا مختلفا عن الموقفين السابقين . والتحليل النفسى هو المنهج والموقف النظرى الوحيد الذى بدأ من هذه المسلمة . فعلاقة المحلل بالمحلل علاقة تأثير متبادل ، لا موضع فيها لحكم ذاتى أو موضوعى ، بل أن الحكم فيها مرفوض أصلا ، فالحكم والتقدير قائمان بين ذاتين كل واحدة تكون موضوعا للاخرى ـ ذلك ان لم تكن موضوعا لذاتها كذلك . وبناء على ذلك لا يمكن للمحلل ان يصدر حكما ولا يتيح للموقف العلاجى أن يكون مجالا للحكم ، على أساس أن المعرفة ليست « أخبارية » بل هى « فى الجدل » ذاته القائم بين «الاثنين» . بعبارة أخرى ، لا محل فى التحليل النفسى للذاتية والموضوعية كما يصوغها المنهجيون ، لان التحليل «جدل» وليس «اخبارا» ، أى ليس «أحكاما» بل «تعرفا» متصلا .

فى حدود الاحتمال السابق ـ احتمال وجود معرفة لا تقوم على الاخبار والتقدير ـ تقوم دعوتان فى مجال البحوث النفسية : دعوة الى اعتبار الانسان مؤثرا ذا طبيعة فيزيقية ، وهى دعوى السلفيين من علماء النفس ، ودعوة الى رفض اعتبار الانسان مثيرا فيزيقيا والامتناع عن المعرفة الاخبارية وهى دعوى التحليليين . والغريب فى الامر أن المحللين فى دفاعهم عن منهجهم لم ينتبهوا الى ان مشكلة الذاتية والموضوعية فى معرفتهم لها طبيعة مختلفة عنها لدى التجريبيين الاكاديميين . ومصدر الغرابة ان التحليليين هم أول من تنبه الى ان المؤثرات الفيزيقية ذاتها تفقد قيمتها «الموضوعية» بمجرد تكرارها على الانسان مرتين ، وانهم لا يتعاملون مع خبرة الفرد بالمثير المتكرر من زاوية المثير كموضوع بل من زاوية الفرد كمتأثر . ان الوضع على هذا النحو يجعلنا ندرك أن مشكلة الموضوعية فى التفسير التحليلى ليست هينة الحل تماما .

الا اننا اذا عدنا الى المشكلة التى تثيرها علاقة الذات بالموضوع قد نجد طريقا الى هذا الحل . عندما صغنا قضية الموضوعية على النحو السابق فى مقدمة هذا المقال ، لم نتعرض الى نقطتين : الاولى : ان الموضوعية هى «فعل تقدير» ـ والثانية : أن تعبير الذات والموضوع ـ خاصة فى اللاتينية ـ يتحملان التبادل (نقول احيانا the subject بمعنى الموضوع) . وبالنسبة الى النقطة الاولى يمكن أن نعتبر « فعل تقدير الواقع كما يبدو للذات » هو الموضوعية ، بحيث يصبح التقدير موضوعيا خالصا بقدر اقتراب التقدير من حقيقة الموضوع . فالذات المقدرة دائما ما تكون فى التقدير ذاته ، ولا يختلف الامر الا من حيث قدرة الذات على افساح مجال فى التقدير للموضوع نفسه. على هذا النحو يكون الانسان دائما هو الحكم ونقيض الموضوع اى الفاعل operator ما دام الموضوع لا يمارس فعل تقدير للانسان . فاذا كان «موضوع التقدير» غير انسانى أمكن الحديث عن موضوعية وذاتية . أما اذا كان موضوع التقدير انسانيا أصبح الحديث عن الموضوعية والذاتية محدودا بنوع المعرفة المقصودة .

نخرج من ذلك الى نتيجتين : ان اى علاقة بين انسان «وموضوع» سوف تؤدى الى تقدير الانسان للموضوع ، أى الى حكم ينزع الى الموضوعية ، فاذا اتخذ الانسان من انسان آخر موضوعا فانه يقوم بمحاولة للحكم الموضوعى عليه . والنتيجة الثانية : ان اى حكم موضوعى هو تحول عن الذات الى نقيضها ، وبقدر النجاح فى هذا التحول يكون التقدير مقتربا من الواقع . وتلتقى النتيجتان فى استشكال محدد هو : ما مدى تدخل اتضاح الموضوع للذات في تقدير موضوعى ؟ فقد يتم التقدير والحكم على موضوع غير متضح تماما ، ومع ذلك يكون التقدير موضوعيا بقدر اتضاح الموضوع ـ ومع ذلك لا يمكن الاطمئنان الى الحكم لا لعجز المقدر عن انتزاع ذاته من الحكم بل لنقص فى اكتمال وضوح الموضوع بما يلزم بتكميله ذاتيا . لذلك قام التحليل النفسى ـ وبعد اكتشاف غموض موضوع البحث وهو الانسان ـ بتعديل جوهرى فى مفهوم موضوعية المعرفة بالانسان . فموضوع التحليل النفسى له طبيعة خاصة نابعة من مفهوم اللاشعور .

● موضوع التفسير التحليلى النفسى :

اذا طرحنا قضية الموضوعية والذاتية بشكل تقليدى ـ غير الذى قدمناه ـ على التفسير التحليلى النفسى لابد من تحديد ثلاثة معالم هامة فى عملية التفسير :

(أ) يقوم التحليل النفسى على مفهوم التفسير وليس الشرح والوصف . وهو بذلك «محاولة بلوغ حكم موضوعى» ـ اى ليس قائمة على الاحكام الموضوعية ـ كما أنه لم يحدد «من» الذى يبلغ هذا الحكم .

(ب) ان ما يطرحه التحليل النفسى على بساط التفسير هو ما يسمى « بالمستدعيات الحرة للمريض » وعلى خلاف ما هو شائع لدى بعض المثقفين ، لا يفسر التحليل النفسى احلام أفعال المرضى بل يفسر مستدعيات المرضى على أحلامهم وافعالهم . فالتفسير التحليلى تفسير للمستدعيات فقط .

(ح) يبدأ التفسير التحليلى من مسلمه هى أن مستدعيات المريض ليست الحقيقة بل هى السبيل الى الحقيقة . اما الحقيقة فهى اللاشعور اى القصدية الانسانية .

هذه المعالم الثلاثة قد تؤخذ بنظرة سطحية فتكون ادانة التحليل النفسي بانه ذاتى مطلق أو بانه يقوم على غير موضوع . وقد وقع المحللون النفسيون عند دفاعهم عن منهجهم ضحية استسلامهم لهذه الادانة القائمة على النظرة السطحية لعملهم . ولكن بتامل أكثر عمقا لكل واحدة من هذه المعالم الثلاثة سوف يتبين للقارىء أمر آخر ، يتعلق بطبيعة الموضوعية فى التحليل ، وهى جد مختلفة عنها فى علم النفس .

ا ـ التفسير التحليلى النفسي وقاعدته :

يظن عادة أن التفسير التحليلى يقوم على حدس مرهف من قبل المحلل وعلى قدرة خاصة على تطبيق النظرية التحليلية . ورغم مافى هذا الظن من بعض الصحة ـ قدرها قدر مهارة أى عالم أكاديمى امام نتائجه ـ فان التفسير التحليلى يقوم على قاعدة أكثر صلابة من مجرد الحدس والالهام . أن أهم ما يتمسك به المحلل النفسي فى عمله هو «عدم تجاوز مستدعيات المريض» . فاى تفسير يقوم على مادة خارجية لم يذكرها المريض في جلسات علاجه تعد خروجا عن القاعدة التحليلة . فقد يتصادف أن يلم لمحلل ببعض الاحداث «الواقعية» المؤثرة على مريضه ـ ولكن تلك المعرفة لاتغير من الامر شيئا لان عدم ذكر المريض لها فى مستدعياته يعنى أن هذه الاحداث قد دخلت اطار «واقعه النفسى » ـ أى فى اطار قصدية النسيان والتذكر .

اذن كمبدأ عام ، يتم التفسير التحليلى على واقع محدد غاية التحديد ، هو مستدعيات المريض وحدها واذا اردنا مزيدا من الايضاح لهذه النقطة ، فيكفى القول بان التفسير التحليلى هو رد المحلل على مستدعيات المريض لان

المحلل لايفسر مالم يذكره المريض بعـــد . ومادام المحلل لايفسر غير مستدعيات المريض فهو اذن ، محدود فى عمله بموضوع محدد تماما . ويكون التفسير «موضوعيا» بقـدر نجاح المحلل فى قصر تفسيراته على المستدعيات وحدها .. أى على الموضوع وحده . ولعل هذا هو اشق وأدق مافى التحليل النفسى كمهنة ، ولايمكن لمهنة لها هذا القدر من وضوح موضوعها أن يشاع عنها بسهولة انها غيـر علمية . ولكن سبق لنا أن نبهنا الى ان وجود الموضوع لايكفى فى حد ذاته لبلوغ حكم موضوعى . فالموضوعات تتفاوت وضوحا وغموضا ، وتتراوح فى قدرتها على كشف حقيقتها . والمشكلة في التفسير التحليلى لاتنشا عن تفاوت وضـــوح وغموض موضوعة ، فموضوعه واضح محدد . المشكلة فى التفسـير التحليلى النفسى تنشا عن مدى قدرة الموضوع عن كشف حقيقة امره ، أى مدى مطابقة المستدعيات للمريض .

ب ـ المستدعيات أم المريض ؟

تثير العلاقة بين المريض والمحلل الكثير من النقاش . ولكن هذا النقاش لايجد محلا له فى مقالنا ، اللهم الا من حيث دور المحلل بتفسيراته فى تحديد مجرى مستدعيات المريض . رغم أن المريض يظل مقتنعا طـــوال تحليله بأن مستدعياته تعبر عنه فانه يكون كذلك فى موضـع من يقبل ـ بشكل ما ـ أن لها تفسيرا لدى المحلل (والا ماستمر فى علاجـه) . لذلك نطـرح سؤالين : ماهى عـــلاقة المريض بمستدعياته وما هى علاقة المحلل النفسى بتفسيراته ؟

لاشك أن وجود المحلل وهو المحرك الاساسى للمستدعيات بدليل عجز المريض عن التداعى الطليق بينه وبين نفسه . فالتداعى الطليق هو المطلب الوحيد الذى يطلبه المحلل ، وعمل المريض هو تحقيق هذا المطلب بقدر ماتسعه قدرته . ويختلف ذلك الوضع عن التـداعى الذى قد يلجـأ اليه الشخص بينه وبين نفسه او الحـديث الذى يدور بين المريض وآخر حول مرضه . فالمحلل لايحـادث المريض لان جوهر الحديث هو طرح الوجود على الآخـــر الذى يطرح وجوده بدوره عليه (والحدث الذاتى هو محاولة الشخص اقامة حوار مع نفسه) . أما فى التحليل فالعلاقة قائمة على أن المريض يطرح وجوده على المحلل ويقوم المحلل بتفسير هذا الوجود (الذى يطلبه المحلل فى صيغة مستدعيات) دون أن يتبادل المحلل طرح وجوده على المريض . على هـــذا الاساس، يمكن القول بأن علاقة المريض بمستدعياته تبدأ أصلا باعتقاد راسخ في «أنها .. هو» . فعندما يقول المريض اننى «أكره هذا الشيء أو أحبه» يكون لديه اعتقاد فى صحة حبه أو كرهه . لذلك قد يبدو أن تفسير المحلل لمستدعيات المريض تفسيرا له ذاته .. وبقدر اعتقاد المريض فى تطابقها له نفسه .

ولاشك كذلك فى أن مستدعيات المريض والصمت فى السياق اللغوى تداع أو امتناع عن التداعى مما يخضعه كذلك لنفس قوانين التفسير) ، هى المحرك الوحيد لعملية التفسير فالتفسير هو العمل الذى يتوقعه المريض من المحلل،



ذلك لان المحلل «لايحادث» المريض . وعلى هـذا الاساس يمكن القول بان المحلل يبدأ عمله التحليلى «باقل قدر من الاعتقاد فى تطابق المستدعيات للمريض» .. اى بتطابق تفسيراته للمريض . ويستمر التحليل النفسى بقوة تناقض هذه العناصرالاربعة : اتفاق المستدعيات للمريض واختلافها عنه ، واتفاق التفسيرات مع المريض واختلافها عنه . فالموقف المتناقض بين موقف المريض من مستدعياته وموقف المحلل منها يجعل التفسيرات مثيرا لمزيد من المستدعيات

على هـذا النحو يكون «التحليل النفسى علم تفسير مستدعيات المريض» وليس «علم تفسير المريض ولا علم تفسير المرض النفسى» . بعبارة أخرى : التحليل النفسى هو علم تفسير الافعال النفسية psychological acts ، وليس بعلم تفسير النفس والمريض . وقد ركز فرويد الاهتمام على هذه هذه النقطة تركيزا شديدا (ارجع الى مقاله عن التحليل النفسي البدائى wild psycho-analysis نخرج من هذا الى استكمال صيغتنا التى بدأنا فى تكوينها عند مناقشة موضوع التفسير التحليلى : ان التفسير التحليلى النفسى له موضوع محدد غاية التحديد هو المستدعيات ، وله به وضوح رؤية بان المستدعيات ليست المريض .. ولكن المريض هو مستدعياته .

جـ ـ الشعور ام اللاشعور :

ان قيام التفسير التحليلى على الافعال النفسية يعنى قيامه على الخبرة الشعورية . ولكن القضية الاساسية فى التحليل النفسى تقول بان القصد فى الافعال لاشعورى ، والهدف من التفسير هو كشف ذلك الجانب وجعله شعوريا. اذن ما هو موقف التحليل النفسى ازاء هذا التناقض ؟

ان الملاحظة الدقيقة ـ والتى تصلح لبحث تجريبى ـ تبين ان المرضى يكثرون من استعمال ضمير المتكلم انا (له ، ل) ، وفى نفس الوقت تقل لديهم الصيغ المباشرة للدلالة على الذات والتعبير الخاص بالكينونة . فان يستعمل المريض ضمير المتكلم فى صيغة اخبارية او صيغة « الواحد يريد .. » انما يعنى تناقضا بين الذات وكينونتها من جانب ويعنى من جانب آخر تناقضا بين الرغبة وشعور الشخص بها ، والواقع ان هذه الملاحظة تثير عديدا آخر من الملاحظات المتعلقة باللغة وبغير اللغة من ظواهر انسانية ، ولكنها تقدم لنا مدخلا ممتازا لفهم عملية التفسير . فصيغة « انا .. او .. الواحد » تختلف اختلافا أساسيا عن صيغة « اكون » (ارغب .. اود) حيث ان الصيغة الاولى تسمح بسؤال الشخص عن علة شعوره لتعالى الشعور على الرغبة فى حين ان الصيغة الثانية لا تسمح بذلك . فاستعمال ضمير المتكلم لوصف الحالة الشعورية يدل على قيام تناقض بين الرغبة والشعور بها بدلا من تناقض بين الرغبة وآخر (هو المحلل او من يقوم المحلل بديلا عنهم) . لذلك تكون المستدعيات ـ فى بداية العلاج ـ مطابقة تطابقا زائفا للمريض .

ويمكن اذن ـ ان نصور المرض النفسى بانه تناقض بين المريض ورغبته ، وان نصور العلاج بانه محاولة ايجاد اتساق بين المتناقضين . ويبدأ العلاج بمحاولة خلق تناقض بديل بين المريض والمحلل كمرحلة اولى فى سبيل حل هذا التناقض . وتقوم بهذه المهمة عملية التفسير لانها ذات خاصتين : يقوم التفسير اساسا على سؤال المريض سؤالا ساذجا فى شكله هو « لماذا » ! ولابد ان تؤدى محاولة الاجابة الى مفارقة المريض لمستدعياته وكشف الزيف فى اعتقاده بتطابقها لحقيقته ، كما ان القيام بدور المفسر يخلق بالضرورة موقف تناقض بين المريض والمحلل ، لان عمل التفسير يعنى ان المحلل ليس مقتنعا بتطابق المستدعيات لحقيقة المريض بدليل تفسيره لها ، اى كشفه لمعناها .

فاذا كان التفسير التحليلى النفسى ينصب على الافعال النفسية ـ اى على شىء شعورى او ما اصبح فى حيز الشعور ـ فليس فى ذلك تناقض مع مقولة اللاشعور . فالمحلل لايهتم باللاشعور فى ذاته لانه لايهدف الى تغيير مكوناته الاصيلة ، بل يهدف فقط الى تعديل طاقات هذه المكونات وعقد صلات أسلم بينها وبين بعضها البعض ، وبينها وبين التنظيم الشعورى الذى يشرف على تحقيقها. بعبارة اخرى ان المحلل يهدف الى ان يقلل قدر امكانه وامكان المريض مسافة البعد بين المريض (الشعور . والمستدعيات) وبين رغبته (اللاشعور والقصد) .

● موضوعية التفسير التحليلى :

مما سبق يمكن ان نحدد ثلاثة ابعاد لموضوعية التفسير التحليلى :

١ ـ مطابقة التفسير للمستدعيات .

٢ ـ مطابقة المستدعيات للرغبات .

٣ ـ مطابقة الرغبات للقصد .

بمعنى آخر ، اذا استطاع المحلل ان يجعل تفسيره مطابقا للمستدعى ، وكان المستدعى مطابقا للرغبة ، وكانت الرغبة مطابقة القصد منها ، فلاشك ـ فى هذه الحالة ـ ان التفسير التحليلى يكون موضوعيا كاكمل ماتكون الموضوعية.

ولكن هل يتحقق هذا الموقف المثالى ؟ وهل يمكن أن يطلب من التحليل النفسى أن يبلغ بموقفه هذه المثالية ؟ عند الاجابة عن هذين السؤالين سوف يظهر اشكال هام : من الذى يقرر التطابقات الثلاثة ؟ وقد وقع من حاول من المحللين النفسيين الاجابة على هذا السؤال من مازق منهجى دقيق . حدد المحللون النفسيون محك صلاحية التحليل النفسى ، بواحد من أمرين : الاول تقبل المريض أو رفضه للتفسيرات التىتعطى له ، والثانى هو نتائج العلاج ونجاحه فى التغيير المتطلب للمريض . والمأزق المنهجى يعود الى ان تقبل المريض أو رفضه للتفسيرعملية شعورية خالصة ، كما أن استجابة المريض للتفسيرات عملية لاشعورية خالصة . فعندما يقبل المريض تفسيرا ويرى فيه صوابا فذلك يعنى رضاء « أنا » المريض عن « أنا » المحلل ، مع عدم حتمية صدور ذلك عن تفسير فى العلاقة اللاشعورية . كذلك رفض التفسير لا يعنى أو يضمن أكثر من رفض «الانا» التفسير. كما أن تعديل سلوك المريض نتيجة للتفسير سيعنى تبدلا فى البنية اللاشعورية وليس فى المركب اللاشعورى (تحول المريض من القسوة الى رحمة ومن الشح الى الكرم ...)، كما أن عدم استجابة المريض فورا للتفسير لايعنى عدم المساس بالمركب اللاشعورى . وفى الحالتين يكون التفسير قد أضاف الى المشكلة عنصرا جديدا هو تجميد العلاقة بين المريض والمعالج على نحو يوقف التفاعل ، أى يقيم العلاقة على أساس التاثر أو عدم التاثر بدلا من التاثير المتبادل .

ليس من المنطقىاذا ان يكون محك «صلاحية التفسير» هو التقبل ـ الرفض ، أو الاستجابة ـ الامتناع عن الاستجابة . فالمحلل اصلا يقصد الى كشف القصد من السلوك . والقصد (اللاشعور) هو الذى يخلق المستدعى بعد أن يتحول من مرحلة نفسية وسطى الى رغبة . لذلك لايمكن الاعتماد والثقة في تعديل يحدث للرغبات أو مستدعياتها دون ان يكتشف القصد ذاته وان يحدث فيه تعديل يظهر فى تغير الرغبات ومستدعياتها . ان موضوعية التفسير لاتتصل اطلاقا بتاكيد المريض او انكاره ، سواء كان التاكيد او الانكار شعوريين او لاشعوريين . فهذاالمحور والمحك يتصل بالزيف والتمويه الذين يقع المريض فيهما: زيف اعتقاده فى تطابق مستدعياته لحقيقة رغباته وتمويهه على ذاته بانه يعرك مقاصد رغباته . ان الموضوعية فى العملية التحليلية النفسية تتصل بالموقف الجدلى الاصيل بين المريض والمعالج . فكل تفسير لمستدعيات المريض هو نقيض «الاناه» يصدر عن المحلل كنقيض بديل . واذا تمكن المحلل من ان يستبدل بتناقض المريض مع رغباته تناقضا آخر يقوم معه كمعالج ، امكنه بذلك ان ينقذه من ذلك التمويه الذى سبب شكاته ومرضه .

تلك هى الاجابة السريعة على سؤالنا الخاص بما هو مطلوب من المحلل وما اذا كان هو الذى يحدد تطابقالتفسير مع المقاصد عبر تطابق المستدعيات مع الرغبات . ان المطلوب من المحلل هو تمكين المريض من النظرة الموضوعية لذاته ، وليس المطلوب من المحلل أن يعطى تفسيرات موضوعية . بمعنى آخر ، ان مشكلة موضوعية التفسير هى مشكلة المريض لا المحلل ، فعلى المريض ان يبلغ القدرة على الحكم الموضوعى على ذلك ، وعلى المحلل أن يعينه على ان يعطى هو اكثر التفسيرات موضوعية . وهذه الصيغة تتفق تماما مع المحك النظرى للشفاء وهو التخلص من النرجسيه اى الحكم الذاتى على الذات .

حدود الموضوعية في التفسير التحليلى :

سوف نقصر تناول هذه النقطة على الاجابة عن سؤال واحد هو احد جوانبها : كيف تتم فى عملية العلاجالتحليلى النفسى امكانية الحكم الموضوعى من قبل المريض ؟

عندما قدمنا لمفهوم الموضوعية قلنا ان هذه المشكلة تصور فى شكل مقياس طرفه الذات وطرفه المقابل الموضوع، حيث يكون أى حكم هو مجمل ما synthesis لتناقضهما . فاذا كان كل موضوع يخلق نقيضه ليتفاعلا ويعطيان مجملا، فما هو المجمل فى علاقة المريض بالمحلل ؟ وما هو المجمل فى علاقة المريض برغبته؟ ان المجمل فيالحالتين هوالمستدعيات. فالمستدعيات هى صيغة التفاعل بين المريض والمحلل ، كما ان التفسير هو صيغة التفاعل بين المحلل والمريض، وموقف التحليل النفسى لا يسمح باى صيغة اخرى للتفاعل (النقاش النصيحة وما الى ذلك) حتى اذا ما طرح المريض فى الموقف ما هو غير المستدعيات يتناولها المحلل بوصفها مستدعيات . ونفس الامر بالنسبة للمريض ورغبته ، فمستدعياته هى مجمل علاقته بها بوصف الرغبة مستعصية على نفسه . وقد يثار هنا موضوع صمت المريض او امتناع المحلل عن اعطاء التفسير . الواقع أن اى مستدعى هو «فعل نفسى» يتضمن موضوعه ، اى يتضمن الآخر الذى يطرح عليه الموضوع . وعلى هذا الاساس يكون الفرق بين مستدعيات المريض وصمته هو الفرق بين نشاط تفاعل بين المريض والمحلل (مستدعى) وتفاعل بين المريض ورغبته (تعطل المستدعى او الصمت). وعندما يقال بوجود مقاومة مظهرها الصمت ، فان ذلك يعنى رفض المريض أن يضمن المحلل فى مستدعياته وقصره للتناقض على ذاته ورغبتها . ويصدق نفس الشىء بالنسبة لوفرة المستدعيات والتى تكشف فى بعض الاحيان عن مقاومة . فى هذه الحالة تكون وفرة المستدعيات تعبيرا عن رفض المريض التفاعل والتناقض مع رغبته وحرصه على أن يكون التناقض مع المحلل . والتناقض كما نستعمله فى هذه العبارات ليس التناقض الانفعالى بل هو العملية الفكرية الجدلية . لذلك يمكن

نظريا ان نعتبر لحظة الشفاء من المرض النفسى هى لحظة الاتفاق بين مجمل تناقض المريض مع المحلل وبين المريض ورغبته . فهذه اللحظة هى اكتمال الحركة والصيرورة في بعدين أساسيين : أنا آخر ، أنا نفسى ولا يحتاج الامر منا أن نعالج صمت المحلل عن التفسير اذ ان فطنة القارىء كفيلة بادراك مضمون هذا الصمت فى ضوء ما سبق عرضه .

لابد أن يكون القارىء قد ادرك ان موضوعية التفسير النابعة من التزام التفسير بتناول المستدعيات وحدها ، هى نفسها موضوعية المريض . فالمستدعيات هى مستدعيات المريض ، لذلك فهى موضوعية بشكل أو آخر . فاذا استفاد المحلل من العلاقة الجدلية التى تقوم بين الاشياء ونقائضها ، سوف يدرك ما يحمله المستدعى من معنى : (أحب هذا الشيء .. قد تعنى لا تظن اننى اكرهه او أرجو أن تعتقد أننى أحبه ، كما قد تعنى اكرهه اولا استطيع حبه ولكننى مضطر الى حبه) . فالمستدعيات قد تدل على القصد مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وقد تبعد عن القصد مباشرة ، او بطريق غير مباشر . والسؤال الذى يثار في هذا الموضع : أى المعانى يدل عليها المستدعى؟ أيها الموضوعى والاكثر دلالة على حقيقة القصد ؟ قد تبدو الاجابة ميسورة الى حد الخطورة اذا قلنا أن المحلل هو الذى يحدد الحكم على معنى المستدعيات ـ وقد تبدو الاجابة مستحيلة الى حد المشقة اذا قلنا بان من يحدد معنى المستدعى هو المريض . ولكن ، مادام التحليل النفسي قائما أساسا على سؤال «لماذا» ؟ فان اصدق تفسير يتأتى هو ما يقوله المريض استجابة منه لتفسير المحلل . فان ما يقرر اى المعانى اصدق هو قصدية الشعور عند المريض ، وهى تكون عادة قصدية غائبة عنه او قصدية مزيفة لا يكشفها الا ببحثه عن علتها . ويحرك البحث عن العلية .. تفسير المحلل لما سبقها من مستدعيات ، وسوف نرجىء الحديث عن جوهر التفسير الى خاتمة المقال ، رغم ما قد يبدو من بعض الخلل فى هذه الفقرة لغموض معنى «التفسير» . ولكن يجب التنويه هنا بأن اكتشاف أصدق معنى للمستدعى لا يأتى بمجرد عملية قصدية واحدة يقوم بها المريض ، فالقصدية تكون دائما متشعبة ومحتمة لعديد من المستدعيات مما يجعل اكتشافها عملية مركبة تستدعى من جانب تفحص كل مستدعى ، وتستدعى من جانب آخر « بلوغ قصدية كل مستدعى فى تدرج غير منتظم » . ان التحليل النفسى يقوم أساسا على القاعدتين السابق ذكرهما : قدرة التفسير على كشف القصد ، وقدرته على تحليل المركب النفسى الذى يتخفى القصد فى ثناياه . ولذلك نوجز المشكلة فيما يلى :

ان التفسير التحليل هو الوسيلة التى يتبعها المحلل ليتيح للمريض أن يبلغ أقرب نقطة من الحكم الموضوعى على حقيقة رغباته ، وذلك من خلال مايرد الى ذهنه من مستدعيات . وهنا يجد القارىء أن مناقشة التفسير التحليلى على محور الذاتية والموضوعية هو نقلة من الاصل الى الفرع . فمهمة التفسير هى مطابقة المستدعيات وليس مطابقة حقيقة المستدعيات . ومهمة المريض هى مطابقة مستدعياته لحقيقتها . والتفسير التحليلى النفسى ـ كعمل مهنى هو أول حلقة فى سلسلة مكونة من ثلاثة حلقات : تفسير يطابق المستدعى ـ مستدعى يطابق رغبة ـ ورغبة تطابق قصدا . ويكمن فى هذا المنطق ما يفرق بين العلاج النفسى والتحليل النفسى . ان المعالج النفسى غير المحلل يحتاج الى أن يعطى تفسيرا يطابق القصد مباشرة ، وهو أمر يتأتى له ولا يضمنه ولا يحق له فيه ان يدعى موضوعية . أما المعالج المحلل فلا يسمح للمريض باصدار حكم يدعى موضوعيته الا على مستدعياته . وعلى هذا النحو يتم الشفاء ـ بالمعنى التحليلى ـ على أساس الكشف عن القصد لا الاقتناع بما يقدمه المحلل من مقاصد لا يدركها المريض فى نفسه .

ولا يبقى لنا الا أن نؤكد نقطة هامة بصدد موضوعية التفسير وعلاقتها بالتفكير السائد لدى علماء المناهج . ان موضوعية التفسير التحليلى النفسى تقاس بمقياسين ، الاول مطابقتها بمستدعيات المريض ، والثانى قدرتها على تمكين المريض من ادراك حقيقة رغبته ادراكا موضوعيا . لذلك لاتطالب التفسيرات بالموضوعية ، بل تطالب بأن تمكن المريض من الموضوعية . بمعنى آخر آن التفسير الذى يعطيه المحلل هو المرحلة التى تسبق التفسير الموضوعى والذى يصل اليه المريض .

● خاتمة :

ان دعوى علماء المناهج بعدم وجود ضمانات لموضوعية التفسير التحليلى ـ وكما حددوا الموضوعية ـ لاتجد من المحللين الا الموافقة ، لا تسليما بل تقريرا . فالتفسير يقوم على المستدعيات التى لاتطابق رغبات المريض والتى بدورها لاتطابق مقاصده . لذلك ، اذا انزلق منظرو التحليل النفسى الى جدل حول موضوعية التفسير ، فانهم لن يخرجوا الى يقين ـ ولكن يكفيهم ان يثبتوا موضوعية التفسير بالنسبة الى المستدعيات وحدها . فالتفسير وسيلة لموضوعية يبلغها المريض وليس غاية تطالب بان تكون ذات قوام خاص . ويمكن ان ننهى هذا المقال باثارة ثلاث مشاكل والرد عليها فتكتمل بذلك جوانب الموضوع .

ماذا يعنيه فعل التفسير ؟ والى ماذا يؤدى ؟ وماهى نتائجه ؟

فيما سبق اوضحنا ان الهدف من التفسير هو كشف القصد الانسانى ، او قيمة الوجود . لذلك يكون معنى عملية التفسير ان المحلل ليس مقتنعا بان مستدعيات المريض تحمل مقاصده الحقيقية . فكل علاج نفسى يقوم على هذه القاعدة يعد تحليلا نفسيا بقدر التزامه بها (مع شروط اخرى لامحل لها فى اطار هذا المقال) . ان التفسير - اى استفسار المريض عن مقاصده - يعنى من قبل المحلل : ((انا لااعتقد فيما تقوله ، لا لانك كاذب بل لانك واقع تحت تزييف واقتناع غير مبرر ببعض الامور - وبدليل التجائك الى العلاج)) . ولايختلف الموقف بالنسبة الى المحلل باختلاف وضوح القصد او عدم وضوحه . فليس للمحلل ان يبرر السلوك ويصدق على القصد . فاذا قبل المريض هذا الموقف من المحلل ، بدأ هو حركة الكشف عن التزيف واخذ سبيله الى معرفة قصده .. اى حقيقته . لقد اقام فرويد التحليل النفسي على اكثر الاسئلة سذاجة (لماذا) ليخلق اكثر المواقف ذكاء . ان اجابة المريض - الذى لايعلم بحكم مرضه - عن سؤال المحلل له ((لماذا)) هى فعل التفسير . فالتفسير كفعل نفسى هو ((المطلوب)) فى التحليل وليس امرا ((يعطى)) . وطالما ظل الموقف التحليلى مبقيا على حيوية طلب التفسير ، استمر الكشف عن عدم تطابق المستدعيات (الافكار) للنزوع (الرغبات) وعدم تطابق النزوع للمقاصد (قيمة الوجود) .

ان التفسير يؤدى دائما الى اكتشاف قيمة الفعل السيكولوجى . فالفعل السيكولوجى - المرضي والسوى على حد سواء - هو تحول مافى قابلية الانسان للحركة والصيرورة اى هو فى اصله ((حركية حيوية خالصة)) . motoricity ولكن هذه الحركية الحيوية لاتبقى على حالها لدى الانسان لانها تتصل الى ان تتغير . ويكون تغيرها على مستويين حسب موضوع تقبلها .

المستوى الاول : مستوى تقبل الشخص نفسه لحركيته . فى هذا المستوى يكون الفعل السيكولوجى فى حالة دفع motivation الشخص . فعندما تتحول الحركية الحيوية - او جزء من التهيؤ البدنى لها - الى نشاط عقلى فكرى لدى الشخص ، يحدث تعديل جوهرى فى طاقتها فينشطر ليقوم جانب منه كمضاد للطاقة الاصلية (يمكن الرجوع الى فرويد فى نظريته عن الكبت الاولى والثانوى) . فالشخص فى هذه الحالة يمنح فعله النفسى قيمته فيقبله او يرفضه . ولكن تبقى القيمة السيكلوجية للحركية الحيوية محدودة لانها قيمة بما تعنيه لصاحبها وحده ، ويعطى هذا المستوى تلك الحياة النفسية المتخيلة ويصبح الواقع تخييلا . fantasm

المستوى الثانى : مستوى يتحول فيه الشكل البدائى للفعل السيكلوجى الى صيغة أعقد بدخول الآخر فيه كمانح لقيمته . فى المستوى الاول يمنح الشخص قيمة فعله النفسى وفى المستوى الثانى يجعل الآخر هو مانح هذه القيمة . ودخول الآخر فى تقويم الفعل النفسى انما يعنى ان الشخص قد تحول بدافعه الى موضوعات خارجية ليحقق فيها دافعه ويحقق معها دافعه . وتتغير حالة الدفع لتصبح رغبة desire (ارغب فى ..) وتاخذ الرغبات قيمتها من موضوعاتها ليكتمل نضوج الافعال السيكولوجية ، اى تتحول من صيغة التخيل الى صيغة التصور . imaginary والتحول الى التصور يفتح الطريق الى الواقع real ليصبح الفعل السيكولوجى فعلا انسانيا بالمعنى الذى يحقق قيمة للوجود .

ويختلف المرض عن السواء فى قابلية ((الحركية الحيوية)) للتحول من حالها الأول الى حالها الثانى ثم الثالث . فالافعال السيكولوجية المرضية تنحصر فى المستويين الاولين حيث تتعطل لدى العصابى القدرة على الانتقال من التصور الى الواقع ، كما أن الافعال السيكولوجية المرضية تختلف فى مدى وضوحها لصاحبها وللآخر . ففى بعض الصيغ المرضية يغلب على الافعال النفسية تقيدها برفض صاحبها او تقبله لها دون أن يعرضها المريض على الآخر ليقبلها أو يرفضها أو دون أن يهتم بتقبل الآخر لها أو رفضه اياها - وهذه هى الصيغ الذهانية أو الجوانب الذهانية فى بعض الاعصبة . وفى بعض الصيغ المرضية الاخرى يغلب على الافعال السيكولوجية تقيدها برفض الآخر لها أو تقبله لها دون أن يقرر المريض لها قيمة تخصه . وهذه هى الصيغ العصابية من المرض .

ويؤدى التفسير - كما أوضحناه فى الفقرة السابقة - الى رد الدوافع غير المحددة الى رغباتها (رد المستدعيات الى الرغبات) ، كما يؤدى الى كشف الموضوعات الى رغباتها (رد الرغبات الى المقاصد) . فكثيرا ما يؤرق المريض دافع - لايعرف ان كان يرفضه أو يقبله - لايعرف له موضوعا ، كما أنه يندر أن لانجد مريضا يتمسك بموقف لا رغبة له فيه . على هذا الاساس يكون التفسير كعملية وفعل هى السبيل الى اكتشاف قيمة الفعل السيكولوجى - اى تحقق علاقة ممكنة بين القصد والرغبة والفكر (الفريزة والدافع والشعور) .

اما نتاج عملية التفسير فلن تخرج عن أنها معرفة المريض بمقاصده . ولكن هذه المعرفة هى فى النهاية بداية البناء النظرى للتحليل النفسى . فالنظرية التحليلية النفسية تقوم على ماقدمه ويقدمه المرضى جلسة بعد جلسة بصدد القصد الانسانى - ومن خلال مقاصدهم الفردية . فاذا كان فرويد قد اكتشف اللاشعور قبل اكتشاف مضمونه فذلك لانه انتظر المضمون بعد أن علم بوجوده ، اى أنه لايفتعل هذا المضمون . ولاشك اننا - وقد انتهينا من المقال - قد بلغنا نقطة تستحق هى نفسها مثالا : طبيعة الموضوعية فى النظرية التحليلية النفسية ذاتها .

أحمد فايق

اسلوب تحليل المضمون واستخداماته

عبد الحليم محمود السيد

يحتل المضمون موضعا رئيسيا فى عملية الاتصال . ويعنى مضمون الاتصال مجموعة من المعانى التى يعبر عنها بالرموز ـ اللفظية او الموسيقية او التصويرية او التشكيلية او الحركية ـ اولتى من شانها ان تنشىء الاتصال ذاته ، من خلال وسائله المختلفة .

واذا كانت العبارة الكلاسيكية تحدد عملية الاتصال فى : من ، يقول ماذا ، لمن ، وكيف ، وبأى تأثير : فان مضمون الاتصال يتمثل فى « ماذا » .

ولما كان المضمون يمثل الوسائل التى يتصل من خلالها فرد بآخر او جماعة بأخرى ، فن المهم فى بحوث الاتصال ان يوصف هذا المضمون بدقة وان يفسر ببصيرة نافذة .

وتحليل المضمون عبارة عن اسلوب علمى يستخدم لوصف مختلف اوجه مضمون الاتصال باسلوب مختصر ، بل وللتنبؤ بعدد من الوقائع او الأحداث من خلال مواد اعلامية مثل الأنباء والمقالات والقصائد والأغانى والقصص والافلام والكتابات الادبية والتصريحات الرسمية للقادة واحاديث الشخصيات الكبيرة .

ويستخدم اسلوب تحليل المضمون بالفعل فى الاجابة على عدد من الأسئلة المختلفة مثل :

ـ هل سيحقق احد البلاد نوعا من النمو السريع ام سيعانى من الاضطراب والفقر خلال السنوات الخمس القادمة ؟

ـ هل يتمتع بلد معين بالوحدة القومية ام ان الصراعات بين الجماعات الوطنية او بين القادة والجماهير تفتت من وحدته ؟

ـ ماهى البيانات الذكية التى يمكن استخلاصها من دعاية العدو ؟

ـ هل يستعد بلد معين للعدوان (بالحرب التقليدية او الاقتصادية او السيكولوجية) على بلد آخر ام انه سيهادنه فى فترة تالية من الوقت ؟

ـ ماهى بؤرة اهتمام الناس فى بلد معين او ماهى الموضوعات التى تشغل اذهانهم خلال فترة معينة من الوقت ؟

ـ ماهى أنواع التشابه والاختلاف فى الشعارات السياسية التى يقصد ان يلتف حولها الناس ويوجه اليها انتباههم فى عدد من البلاد ؟

ـ كيف تختلف شعارات الدعاية فى احد البلاد من فترة لأخرى على امتداد عدد من السنوات ؟

ـ ماهى الصور السائدة فى مسرحيات شكسبير ؟

ـ ماهو بناء شخصية الكاتب كما تنعكس فيما يكتبه ؟

ـ ماهى الاتجاهات الرئيسية فى استخدام البحوث السابقة لدى العلماء فى كل من علم الكيمياء والطبيعة منذ عام ۱۹۰۰ ؟



- كيف تعالج جماعات الأقليات العنصرية فى القصص التى تنشر فى المجلات واسعة الانتشار ؟

- كيف يمكن حصر أنواع الدعاية الهدامة وكشفها ؟

- كيف يمكن مقارنة طريقة تناول الصحافة والاذاعة لحالة قتل بعد تعلق عاطفى ؟

- ما الذى يجعل الكتابة قابلة للقراءة والفهم ؟

بأى الطرق تعكس الصور السينمائية مشاعر الناس ورغباتهم ؟

- ماذا يحدث لاحدى القصص الجيدة عندما تتحول الى فيلم ؟

- الى اى حد تشبه طريقة تفكير احد الأشخاص المرضى الفصاميين ؟

تعريف تحليل المضمون :

تحليل المضمون هو اسلوب علمى يهدف الى الوصف الموضوعى والمنظم والكمى للمضمون الظاهر للاتصال اى لمجموعة المعانى التى تظهر من خلال الرموز المستخدمة فى عملية الاتصال .

انه انه اسلوب لوصف المضمون الظاهر للرموز المستخدمة فى الاتصال ، بطريقة موضوعية تضمن وجود تعريف دقيق لفئات التحليل بحيث يمكن لمحللين مختلفين ان يطبقوها على نفس المضمون ويحصلوا على نفس النتائج . أما التنظيم الذى يقتضيه تحليل المضمون فيعنى تحليل المضمون على ضوء حصر كل الفئات المناسبة لموضوع التحليل ، كما يعنى ان يهدف التحليل الى التحقق من مشكلة علمية او فرض علمى يمكن من خلال التحقق منه ان يكون لنتائج تحليل المضمون قدر من الفائدة التطبيقية فيما بعد . اما لزوم ان يكون

التحليل كميا فانه من اكثر الخصائص تمييزا لتحليل المضمون مما يميزه عن القراءة او الفحص العادى • ولا يتطلب لزوم التكميم ضرورة تحديد قيم عددية لفئات التحليل اذ يتخذ التقدير احيانا شكل كلمات كمية مثل ، اكثر ، دائما ، غالبا ، يزيد ٠٠ الخ •

استخدامات تحليل المضمون :

يستخدم اسلوب تحليل المضمون على عدد كبير جدا ومتنوع من مواد الاتصال من اجل تناول عدد كبير ومتنوع من المشكلات بحيث يصعب حصر هذه الاستخدامات فى تصنيف واحـــد •

وفيما يلى عرض لاهم استخدامات اسلوب تحليل المضمون على ضوء الأهداف الرئيسية للدراسات التى اعتمدت عليه ومن شان هذا العرض ان يعكس الى حد كبير المشكلات الرئيسية التى يستعان فى دراستها بهذا الأسلوب • مع الاشارة الى نماذج من الدراسات التى تمت فى مجـالات تطبيق تحليل المضمون •

اولا ـ استخدام تحليل المضمون فى دراسة خصائص المضمون من حيث المادة :

وقد اشتمل هذا على المجالات السبع التالية :

١ ـ وصف الاتجاهات فى مادة الاتصـال والتغيرات التى حدثت فى مضمونها فى فترات مختلفة من الوقت ، عن طريق دراسة عينات ممثلة من فئات مادة الاتصال فى فترات زمنية مختلفة •

واذا كان هذا الوصف لاتجاهات مادة الاتصال مفيدا فى حد ذاته ، فانه ايضا يزودنا ببيانات ترتبط بالتغيرات الحادثة فيما يتصل بالقائمين على الاتصال او الموجهين له او فيما يتصل بالجمهور •

وقد استخدمت هذه الطريقة فى مقارنة مدى اسـتخدام ادوات الاتصال لأنواع معينة من الأنباء او الدوافع او الشعارات فى فترات مختلفة من الوقت •

وتبين بعد تطبيق هذه الطريقة على شعارات « مايو » بالاتحاد السوفيتى من ١٩٢٤ الى ١٩٤٣ ، ان هذه الشعارات تطورت من الثورة العالمية الى الشعارات القومية •

واتضح ان اعتماد المقـالات التى تعرضها مجلة ربات البيـوت الامريكية عن تنشئة الأطفال على الثقـات فى هـذا الموضوع زاد من ٥٠٪ عام ١٩٠٤ الى ٩٨٪ عام ١٩٤٠ •

كما تبين ان الدعاية بالحـرب العـالمية الثانية مقـارنة بالدعاية بالحرب العالمية الأولى كانت اقل انفعالية وخطابية واكثر ميلا الى تحرى الحقائق •

وهـذه الدراسات لاتجـاه مضمون الاتصـال يزودنا بعد تاريخى له قيمته يجعلنا اكثر فهما للاتجاه الحالى لمضمون وسائل الاتصال عن طريق المقارنة بينها •

وبالرغم من ان معظم الدراسات تعالج موضوع المضمون فقد بدا النظر يتجه الى قيمة اجراء دراسات عن « اتجاه » المضمون من حيث التاييد او المعارضة و « الأشخاص » مصدر الاتصال و « طريقة العرض » •

٢ ـ تتبع تطور العلم : ويستخدم تحليل مضمون التراث العلمى فى وصف تطوره • فتحليل تطور علم الطبيعة فى انجلترا والمانيا وفرنسا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر اظهر فترات تقلبات تشبه الموجات للانتاج الابداعى •

وقد درس الطـابع المتغير للبحث فى علم النبات من ١٨٩٠ ـ ١٩٣٠ فى مجموعة من مجلات هذا العلم •

وبالمثل امكن دراسة تطور الاهتمامات بعلم الاجتمـاع بالولايات المتحدة خلال الخمسين سنة الأخيرة عن طريق دراسة توزيع المقالات فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ، وتبـين زيادة اهتمام المجلة فى السنوات الأخيرة بمشكلات السكان والأجناس والقوميات ، ومناهج البحث ، على حساب الصفحات المخصصة للنظرية ولتاريخ علم الاجتماع والاصلاح الاجتماعى •

ومثل هذا التحليل لايصف تطور اتجاهات نظـام معين فحسب ، بل يزودنا بتعريف او تكوين ، لمجال معين فى اى فترة زمنية محددة •

على انه لابد من التحقق من الدعاوى المتضمنة فى هـذا الاستخدام لتحليل المضمون فمعظم الدراسات التى استخدمت تحليل المضمون لهذا الغرض لا تعتمد الا على مصـدر واحد للبيانات او على مجموعة صغيرة من المصادر ، تمتد خـلال فترة من الوقت طويلة نسبيا • وهنا لابد من الالتفات الى اهمية تمثيل المجلات او وسائل الاتصال التى ستحلل للمجال الذى يدعى انها تمثله • اذ قد لايتضمن عدد قليل من المجلات عينة صادقة لبحث التراث او المجال المراد دراسته خلال فترة طويلة من الوقت بسبب ظهور مجلات اكثر تخصصا تمثل فروعا من المجال موضوع الدراسة فى الفترة الأخيرة •

كذلك فان التغيرات التى تحدث فى عدد من المجلات فى مجـال معين قد تعكس تغـيرات فى سياسة المحررين اكثر مما تعكس تغيرا حقيقيا فى الاهتمام بالمجال ذاته • وفى بعض الحالات قد يشوه مصدر مواد الاتصال نتائج الدراسة نظرا لتحيزه ، كما لو حللنا المساحة المخصصة « للرجال العظـام فى العالم » فى دائرة المعارف البريطانية ، او الأمريكية ، اذ المتوقع ان تخصص مساحة اكبر لأبناء البلد الذى يقوم بنشر دائرة المعارف لحسابه •

كما ان ميل المصادر الى الاهتمام الزائد بفترة تسـبق فترتهم مباشرة ، قد يشوه دراسات الاتجاه • وكذلك فان تغيير اساس التصنيف قد يؤدى الى أثر مشوه ، مثلاالمقالات التى تقع فى حدود مجالين كالفزياء والرياضيات او مجالى

علم الاجتماع وعلم السياسة مما يؤدى الى تصنيف هـذه المقالات فى مجالات مختلفة فى الأوقات المختلفة .

ومع هذا فانه يمكن اجتناب معظم هذه الصعوبات ، ومن ثم يصبح تحليل المضمون مفيدا كاداة لوصف تكوين وتطور مجالات المعرفة والعلم .

٣ ـ الكشف عن الفروق بين مضمون الاتصال بالدول المختلفة : يـؤدى التحليل المنظم الى الكشف عن الفروق بين وسائل الاتصـال لدى الدول المختلفة ، ويطبق هـذا على الصحافة ، والاذاعة ، والسـينما والمسرح وكيفية معالجتها للموضوعات المختلفة . وذلك من خلال الاجابة على عدد من الأسئلة : ماهى الأنباء التى يشيع الاهتمام بهـا فى بلدين متصارعين او متعاونين ؟

كيف تختلف صياغة الدول لنفس الحدث ، مثل الحروب او الأزمات الدولية التى تتساوى احاطتها بهـا ، او الوقائع التاريخية ؟

ماهى الفروق الرئيسية بين الأفلام الأمريكية والانجليزية والفرنسية والروسية ؟

مثل هذه الأسـئلة يمكن الأجابة عليها بعد التحليلات المقارنة للمضون ، التى تكشف عن الفروق فى بؤرة الاهتمام لدى جماهير الأمم المختلفة .

من امثلة لدراسات من هذا النوع دراسة قورن فيها بين صيغ حـرب التحرير الامريكية فى كل من الكتب الامريكية والبريطانية . وكذلك قورن بين صيغ الحرب العالمية الأولى فى الكتب الامريكية والالمانية ، للكشف عن الآراء التاريخية التى تقدم لشباب الدول المختلفة .

وفى دراسة اجريت لتراث الشباب الهتلرى والكشـافة الأمريكية حلل فيه هـذا التراث فيما يتصـل بالأهداف والمبررات .

ولم يوجد فرق فى التاكيد على غايات مثل اللياقة البدنية، والنظام والانتاج ، ولكن المواد الألمانية كانت اكثر على الولاء القومى والتوحد مع الوطن ، وكانت اقل تاكيدا على الغيرية والابداع . بالاضافة الى وجود فروق كثيرة فى اسس التوصية بالاغراء المرغوب فيها لدى اعضاء التنظيمين .

وقد كانت توصـيات الشـبـاب الهتلرى تبـرر اساسا بالعضوية فى المجتمع القومى (٦٦ ٪) ، بينما الكشافة كانوا يبررون غاياتهم بارضاء ذواتهم (٤٧ ٪) .

وفى دراسة اخرى حللت اكثر انواع الدراما شعبية فى البلدين، ووجد ان اكثر موضوعاتالمسرحيات الأمريكية هى الحب (٦٠٪) والأخلاقيـات (٣٦٪) ، اما فى المانيـــا فكانت المسرحيات المثالية (٤٤٪) وتلك التى تمثل القوة (٣٣٪) .

وقد كان مستوى الحدث فى الدراما الأمريكية شخصيا بحتا فى ٩٦٪ ، بينما مستوى الحدث فى الدراما الألمانية كان مقسما بين المسائل الايديولوجية (٥١٪) والشخصية .

وبينما امكن استخدام هذه الدراسات لتوضيح الفروق بين الطـابع القومى من خـلال وثائق تثبت هذا ، فانه يمكن استخدامها كذلك لوصف ما يقدم لجماعات متشابهة ببلدين مختلفين .

٤ ـ المقارنة بين وسائل الاتصال المختلفة او بين مستويات الاتصال المختلفة : وسائل الاتصال المختلفة ومستويات الاتصال المختلفة لا تجتذب جماهير مختلفة فحسب بل تتناول نفس الموضوعات بطرق مختلفة .

لهـذا فان التحليل المقارن لمضـمون الاتصـال وعرض « المضمون » بوسائل مختلفة للاتصال وبطرق مختلفة يعد من اهم تطبيقات تحليل المضمون . ومن امثلة الدراسات الحديثة فى هذا الشان دراسة امكن من خلالها الكشف عن نمـاذج التغييرات التى حدثت فى ٢٤ قصة جيدة بعد تحويلها الى افلام فيما يتصل بالحوار ، والشخصية ، والحدث ، والمشهد ، والخاتمة ، والتسلسل والأسباب المستنتجة لها . ومقـدار الانتبـاه الذى يعطى لأجزاء العقـدة الرئيسية فى القصـة ـ ككتاب ـ ثم فى الفيلم الذى تحولت اليه ، مما يؤخذ كدليل على اخلاص النقل من وسيلة لأخرى .

ولما كانت جماعات مختلفة من الناس تتعرض لأنواع الاتصال المختلفة (من خلال القراءة او الاستماع او المشاهدة) التى تتناول نفس الموضوع ، فان المقارنة بين هذه الأنواع من الاتصال لها قيمتها كطريقة لوصف الفروق فى المضمون الذى تتعرض له الجماعات المختلفة من الناس .

٥ ـ فحص مضمون الاتصـال فى مقابل الأهداف منه : كل منفذ من منافذ الاتصال له هدف أو مجموعة من الأهداف ، سواء اكانت صريحة او ضمنية .

ومدى تعبير المضمون عن هـذه الأهداف يعد احـد مزايا المضمون .

وقد قورن فى عدد كبير من الدراســات بين ما يؤكده المضمون وبين معايير المحلل .

ولم يراجع المضمون على اهداف المشرف على الاتصال الا فى عدد قليل من البحوث .

واحيانا يقوم بهذه التحليلات اشخاص « خارجيون » على اساس الأهداف المقترحة للمشرفين على الاتصال .

وقد تقوم جماعة من المهتمين بتحسين برامج التليفزيون ـ مثلا ـ بتحليل مضمون برامجه التى يقدمها فى فترة محددة ، وتحديد نسبة ما يقدم من كل نوع من البرامج من المجموع الكلى لوقت الارسال التليفزيونى .

ويمكن استخدام تحليل المضمون فى تصحيح الوضع القائم الذى يكون غالبا ـ غير ملتفت اليه . كما قد يستخدم فى الغـاء ما تتبين عدم جدواه ، وكذلك يمكن اسـتخدامه فى تصحيح التاكيدات الخاطئة فى مضمون الاتصال على ضـوء الهدف منه ، وتوجيهات المشرف على الاتصال .

٦ - انشاء معايير وتطبيقها على الاتصال : يمكن عن طريق تحليل المضمون وصف وسائل الاتصال ولكنه لايستطيع فى ذاته ، تقويمها .

والتقويم يستلزم قبول معيار او عدد من المعايير ، يقارن به مضمون الاتصال بواسطة تحليل المضمون .

ويستخدم تحليل المضمون ثلاثة طرق لتقويم وسائل الاتصال :

(ا) تقويم الأداء بناء على معايير قبلية مثل : تحقيق نوع من التوازن ، او وجود هدف اجتماعى .

(ب) تقويم الأداء بمقارنة جزء من المضمون بآخر .

(جـ) تقويم الأداء بمقارنة المضمون بمعيار خارجى ليس من المضمون .

وفى كل حالة من الحالات الثلاث يقدم المعايير شخص آخر غير المشرف على الاتصال ذاته ، مما يميز هذا الاستعمال عن الاستعمال السابق لتحليل المضمون (فحص مضمون الاتصال فى مقابل الهدف منه) .

وقد تم تطبيق المعايير القبلية على مضمون الموضوعات التى تتناولها الصحف فى بعض البلاد وفى فترة محددة وعلى طرق عرض هذه الموضوعات للتاكد من مقدار الالغاء او التشويه او عدم الدقة .

وقد تناولت دراسات اخرى طرق معالجة « العمل فى البرامج الاخبارية فى الاذاعة » ، وطرق معالجة قانون معين فى عدد من الجرائد ، وطرق عرض الأنباء المحلية فى المجلات الأسبوعية .

ويتضمن الأساس الثانى للتقويم اقامة معايير داخلية ، اى من داخل المضمون ذاته ، يقارن فيه بين جزء من المضمون وجزء آخر . ففى دراسة « للسلوك الأخلاقى وغير الأخلاقى لعدد من الصحف الممثلة للصحافة الأمريكية تم تقويم الصحف على اساس معيار متوسط ، بين الاجتماعية والحسية لدى مجموعة من الصحف التى تهتم اهتماما كبيرا بالأنباء الاجتماعية» .
واستمدت المعايير من تحليل مساحات عناوين الصفحة الأولى المخصصة لثلاثة موضوعات « شديدة الاجتماعية » هى : (المشكلات الأجنبية ، ودولية الولايات المتحدة ، والوطنية) وثلاثة موضوعات حسية هى (حماس المال ، والجنس ، المال والجنس) . وبطرح الأخيرة من الأولى نحصل على درجة واحدة لمقياس (الاجتماعية - الحسية) لكل صحيفة . طبق هذا على اربعين صحيفة ورتبت تنازليا ، وقورن بينها على اساس أن هذا هو معيار تحديد « احسن » صحيفة .

اما المنهج الثالث للتقويم الذى يقوم على اساس معيار من خارج المضمون فقد استخدم لتقدير تكرار ظهور الأعضاء الذين ينتمون الى اجناس مختلفة فى قصص المجلات . وفى هذه الحالة يقارن توزيع الشخصيات الخيالية بالتوزيع الفعلى للسكان .

والتعداد العام وحده هو الذى يوضح التنازل الفارقى لمجموعات المواطنين او الأقليات فى القصص ، فكل جماعة اقلية تظهر غالبا فى القصص أقل مما هى فى البلد . ويظهر المواطن الذى ينتمى للاغلبية اكثر تكرارا .

ومقارنة أخرى مفيدة فى تقويم أداء الصحيفة ، استخدمت فى تحديد مدى ذكر الصحف البريطانية للوقائع الأساسية التى تتصل بحدث هام ، وانشا المحللون قائمة رئيسية تتكون من ٣٣ واقعة (تمثل ماحدث بالفعل وروجع على أساسها غلاف الجرائد) . وقد تراوحت درجات تسعة جرائد بين ٥ر٢٣ و ٣ .

ولا شك ان كفاءة المعايير المستخدمة والتى تستعين باسلوب تحليل المضمون من شانه ان يزيد من كفاءة تقويم وسائل الاتصال .

٧ - المساعدة فى العمليات الفنية للبحث فى العلوم الانسانية :

يعد استخدام تحليل المضمون كخطوة من خطوات البحث العلمى فى العلوم الانسانية من أهم استخدامات هذا الأسلوب .

ويساعد تحليل المضمون على وصف المعلومات والمواد الكيفية للاتصال ، فالمقابلة كاسلوب لجمع البيانات اذا كانت من النوع المتعمق كالمقابلات الاكلينيكية التى تستخدم لتشخيص الأمراض النفسية او العقلية ، تكون غالبا من النوع الذى يوجه فيه الى المفحوص اسئلة مفتوحة النهايات اى الذى لا تحدد للمفحوص اجابات معينة لوضع اجابته فى احداها ، وعلى الرغم من أهمية ماتتضمنه هذه الأسئلة المفتوحة فانه تحول دون تحليل اجاباتها تحليلا منظما وموضوعيا عدة مشكلات منها مايتصل بعدم دقة تسجيل هذه الاجابات او ما يتصل بصعوبة ترميزها ، الا أن اسلوب تحليل المضمون يساعد على الوصف المنظم الموضوعى الذى يمكن من عرض مضمون هذه المقابلات فى صورة كمية .

ويعتمد فى الاستدلال على الحالة السيكولوجية للافراد ،و الجماعات الصغيرة على تحليل المواد الرمزية التى ينتجونها فرادى أو جماعات . ويدخل فى هذا السجل الاجتماعى للحالة ، والمقابلات العلاجية واختبارات الشخصية ، وأنواع الابداع الخيالى والخطابات والمذكرات اليومية وأى وثائق شخصية اخرى تحدد من خلالها ملامح شخصية الفرد على أساس مايتم جمعه من الوثائق عن أحداث حياته وسمات شخصيته . كذلك يستدل على السمات الشخصية للمفحوصين من تحليل استجاباتهم لمنبهات غامضة (بقعة حبر ، ،و صورة غامضة أو جملة ناقصة) . والتفات الشخص للشكل بدلا من اللون ، ان للكل بدلا من الأجزاء المتفرقة او نسجه للقصص العدوانية بدلا من السلمية ، مما يزود المحلل بالبيانات التى يميز على اساسها سمات سيكلولوجية معينة . وقد تبين من خلال عدد من الدراسات امكان استخدام اسلوب تحليل المضمون فى تحليل القصص الخيالية التى تشيع لدي الأطفال فى عدد من

المجتمعات من حيث علاقتها بما تمت تنشئتهم عليه من دوافع مثل الدافع للانجاز وبذل اقصى جهد ، وحب التجديد والابتكار والمخاطرة ، وحب الاستقلال والاعتماد على النفس او انخفاض مثل هذه الدوافع ٠

كما حاولت بعض الدراسات تحليل الاعمال الادبية من ناحية دوافع ابطالها او سماتهم الشخصية ، وحاول بعض الدارسين تقصى دوافع المؤلفين أو الشعراء من خلال تحليل اعمالهم ٠

كذلك فقد أمكن لأسلوب تحليل المضمون وصف وتفسير عدد من مظاهر السلوك المرضى واعطاء صورة اكلينيكية واضحة تساعد على التشخيص والعلاج ٠ مثال ذلك تحليل طريقة التعبير اللغوى لدى المرضى النفسيين او المرضى الذهانيين ، وقياس درجة التوتر العام ، ودرجة الشعور بالضيق او المرض خلال مراحل العلاج ٠ وأمكن من خلال تحليل بيانات سجلات الخدمة الاجتماعية المقارنة بين نوع الخدمات التى تقدم فى مكاتب مختلفة بنفس البيئة أو بيئات مختلفة ٠ وقد تبين وجود علاقة ايجابية بين اتجاهات العميل نحو الهيئة التى تقدم له الخدمة النفسية أو الاجتماعية لحل مشكلته وبين درجة ثقته فى حل هذه المشكلة ٠ كذلك امكن من خلال التحليل الكمى للعبارات التى يذكرها اعضاء الجماعة وصف كل منهم بانه : يظهر التضامن ، يظهر التوتر ، موافق يقدم اقتراحا، يبدى رايا ، يعطى توجيها او امرا ، او عكس هذه الفئات، ويمكن من خلال تحليل المناقشات التعرف على درجة التماسك بين اعضاء الجماعة والعوامل التى تساعده او تلك التى تعوقه ، ودرجة وضوح اهداف الجماعة ، ووسائلها لتحقيق هذه الاهداف بالنسبة لكل عضو من اعضائها ٠

ويمكن من خلال تحليل مضمون استجابات جماعة معينة او فئة اجتماعية محددة على عدد من الأسئلة ، أو تعبيراتها بوسائل التعبير المتاحة التعرف على اتجاهات هذه المجموعة سواء كانت اتجاهات سياسية او اجتماعية مما يساعد على كفاءة التعامل مع هذه الجماعة او تلك الفئة الاجتماعية ٠

ثانيا ـ استخدام تحليل المضمون فى دراسة خصائص المضمون ، من حيث الشكل :

وقد اشتمل هذا على المجالات الثلاث التالية :

١ ـ الكشف عن اساليب الدعاية :

يوجد غالبا بين تحليل المضمون وتحليل الدعاية لان عددا كبيرا من دراسات تحليل المضمون ـ ان لم يكن معظمها ـ تتناول أساليب الدعاية بالتحليل ٠ هذا اذا اتفق على ان الدعاية انما هى محاولة عمدية للتأثير فى الاتجاهات او فى السلوك ازاء مسألة خلافية عامة ٠

ويمكن ابراز بعض الأساليب المستخدمة فى تحليل الدعاية وتصنيفها الى فئات مثل التحليل على اساس الموضوع او الصياغات المختلفة للمضمون أو على اساس الدعوى أو مقصد الاتصال واثره ونفس الموضوع قد يكون له «دعاوى» مختلفة بالنسبة لجماهير مختلفة فى حين ان موضوعات



مختلفة قد يكون لها نفس الدعوى .

وقد ثبت ان تحليل الاتصال على اساس فئات المضمون افضل من تحليله على اساس مايفترض من مقاصد وآثار » .

استخدم هـذا الأسلوب فى تحليل الدعاية بالحرب العالمية الثانية وتبين منه وجود أربعة اهداف رئيسية لدعاية الحرب لدى الحلفاء هى : اثارة الكراهية ضد العدو ، والابقاء على صداقة الحلفاء ، والابقاء على صداقة المحايدين وضمان تعاونهم ان امكن ، والقضاء على الروح المعنوية للعدو .

وقد تم تقويم الدعاية البريطانية فى هذا الاطار عندئذ، وتبين انها « نجحت نجاحا مدهشا فى اقامة اهداف انسانية للحرب بينما آثار الألمان الكثير من الاستياء والشك فى الخارج بكلامهم عن الحرب من أجل الثقافة الألمانية ، واحتقار المثل الانسانى الأعلى .. وبدأ الرجال المسئولون ببريطانيا فى التحدث عن الحرب من اجل انهاء الحرب قبل ان يتعلم رجال الدولة الألمان هذه العبارات بوقت طويل ، ولم يستطع الألمان مواجهة الانطباع المبدئى الشائع بانهم معتدون وذلك يرجع الى حمق دعاويهم » .

واستخدمت فئات أخرى فى تحليل الدعاية وهى مايطلق عليه اسم « خدع الصنعة » وهى الحيل الخاصة المختفية التى لا يكون الناس عادة على وعى بها .

واستخدم فى هذا الصدد عدد من فئات التحليل لخدع الدعاية التى تكشف اساليب اختيار الموضوع المناسب وتلبيسه فى ذهن الجمهور وتبسيطه له واطلاق اسم عليه واستخدام كلمات شاملة عامة وبراقة ونقل المعنى من سياق مقبول لآخر وخلط الأمور على الجمهور وتقديم الدعاية فى ظل معلومات اخرى يصدقها واستغلال الظروف النفسية للجماهير التى تجعلهم اكثر تصديقا لما يقدم لهم .

واستخدام هذه الفئات فى تحليل الدعاية يجعل الناس على وعى بالدعاية المضللة مما يفسد آثارها . وان كانت هـذه الفئات لا تتضمن بالطبع « كل » مجالات تحليل الدعاية .

واستخدام فئات المضمون فى تحليل الدعاية لا يلغى خاصية اساسية ترتبط بالدعاية هى « المضمون الانفعالى » للمادة . وقد تمت بعض المحاولات لقياس حرص مختلف انواع الدعاية الموجهة الى جماهير مختلفة من خلال قنوات اعلامية متنوعة فى نفس الوقت او فى فترات زمنية متعاقبة على اثارة استجابات انفعالية بواسطة مضمون عاطفى يختلف باختلاف نوع الجمهور .

٢ ـ قيـاس الأسلوب الذى يؤثر فى قابلية وسيلة الاتصال للقراءة او الفهم : ان قياس قابلية المواد المطبوعة او المذاعة للقراءة والفهم يمكن من الاجابة على عدد من الأسئلة مثل :

ماهى العوامل التى تميز المواد التى يسهل او يصعب قراءتها او فهمها ؟

ماهو الاختلاف فى الأسلوب بين قصتين ؟

وقد استخدم التربويون اجابة مثل هذه الأسئلة لاختبار وانتاج الكتب المناسبة لأفراد من اعمار مختلفة ومستويات من القدرات مختلفة .

ويمكن ان نعد تطور مقاييس القابلية للقراءة مقياسا للتمايز المتزايد لمعايير القابلية للقراءه ، ففى البداية كان يركز على « الكلمة » فقسمت الدراسات الأولى القابلية للقراءة المواد الى نسبة الكلمات « السهلة » الى « الصعبة الموجودة كما تدل على ذلك قائمة مقننة للكلمات (مثل قائمة « ثورندايك ») .

وفى السنوات التالية اضيفت عناصر اخرى لبحثها مثل ـ طول الجملة ، الجملة البسيطة ، والجملة الناقصة التى لا تحتوى على فعل والجملة ذات الفعل والفاعل فقط ، ثم تبع ذلك ما لايقل عن ٨٢ عنصرا من عناصر الصعوبة التى زعم بحثها ، اختير منها اخيرا خمسة على أساس ارتباطها الوثيق باختبارات الفهم العام وهى : الكلمة المختلفة ، والكلمات الصعبة المختلفة ، والضمائر الشخصية والجملة الناقصة التى تتضمن حرفا للجر ، وطول الجملة . ووضعت فى صيغة تعد تعبيرا مباشرا عن القابلية للقراءة على أساس السنوات الدراسية اللازمة لقراءة الفقرة بسهولة .

وفى نفس الفترة من الوقت تقريبا تضمنت صيغة اخرى منتشرة مجموعة اخرى من ثلاثة عوامل هى : طول الجملة ، والتفضيلات الشخصية وضمائر الوصل .

ويوجد حد هام لتطبيق تحليلات القابلية للقراءة ، ذلك انه يتحقق من صدقها عن طريق قراءة القارىء العام لاختبارات الفهم . وهذا القارىء يمثل جماعات تعليمية مختلفة ، لذا فهى تنطبق على القارىء العام ذى الاهتمام العام ولا تضع فى حسابها اثر اهتمامات القارىء الخاصة على قابلية قراءته للمادة . فمثلا احد الميكانيكيين ذوى التعليم الضئيل قد يفهم بعض المادة التى قد تبدو شديدة الصعوبة بالنسبة لأحد رجال الأعمال المتعلمين تعليما جيدا . فالقابلية للقراءة اذن تعتمد على اهتمام القارىء وخبرته . وهذا ينطبق بوضوح على الناحية الميكانيكية .

بالاضافة الى ان الفئات المستخدمة التى تقاس بها عادة القابلية للقراءة لا تضع فى حسابها عوامل مثل تنظيم المادة وطبيعة المضمون وحجمه وشكله .

٣ ـ الكشف عن طابع الأسلوب : جذبت مشكلات الأسلوب الأدبى والخطابى الدراسين منذ وقت طويل ، وقد كتب ما لا حصر له من الكتب فى هذا الموضوع .

وتناول الدارسون بالتحليل الكيفى اسئلة مثل : ما هو الطابع الشعرى للكلام ؟

كيف يختلف الكتاب فى الأسلوب الأدبى ؟ كيف تتغير الحيل الخطابية عبر الزمن ؟

متى كتبت أعمال معينة ؟ ومن كتبها ؟

ووجد من حين لآخر أشخاص مخاطرون يجربون التحليل الكمى للاسلوب وفيما يلى نعرض لتطبيق تحليل الاسلوب فى الأدب واللغة .

اللغة والأدب : طبق تحليل المضمون فى اربعة مجالات لتمييز انماط الأساليب ، وهذه المجالات هى :

الأول : هو اللغة كلها ، وقد أجريت دراسات مختلفة للطابع العام لطريقة الكلام فمثلا : تحليل بناء قواعد لغة معينة ، على أساس تكرار أنماط الاستخدام التى تظهر فى الكتابة والكلام .

والثانى : هو التمييز بين أنماط الأسلوب فى الفترات المختلفة . وكان هذا مركز اهتمام أحدث التطبيقات واشملها للتحليل الكمى للاسلوب الادبى وخاصة بالنسبة لمشكلات كلمات الشعر . وقد اعتبرت نسبة الأفعال الى الأسماء (وكذلك الصفات) دليلا على اتجاه ذى دلالة .

والثالث : هو تمييز الأسلوب بنماذج الكلام ، اى بحث طابع بعض نماذج الكلام المكتوب بطريقة التحليل الكمى . واستخدمت فى هذا الصدد نسبة الأسماء والأفعال للتمييز بين مختلف نماذج الشعر .

والرابع : وهو أكثر المجالات تخصصا ، ويهتم بالشخص المؤلف على أساس ابراز الصور السائدة فى أعماله والطريقة التى يعبر بها والتى يؤدى بها العمل أثره على متذوقه .

وفى هذا المجال تدرس مشكلتان هما : مشكلة النسبة للمؤلف التى تكون موضعا لخلاف ، ومشكلة الترتيب الزمنى لاعمال المؤلف .

وقد عولجت هاتان المشكلتان من خلال تحليل خصائص الأسلوب مثل : نوع الوزن (فى الشعر) ، والنهايات ، وحجم المفردات وطول الجملة وتركيب الكلمات ... الخ .

منتجو المضمون :

يمكن من خلال دراسة المضمون :

١ - تحديد نوايا منتجى الاتصال وخصائصهم الأخرى : كان هذا هو الاستعمال الرئيسى لتحليل المضمون . والمنطق الأساسى الذى يقوم عليه هذا الاستعمال هو : ان المضمون له كذا وكذا من الخصائص ، اذن منتجوه لديهم كذا وكذا من النوايا .

وتحليل المطابقة فى المضمون قد يؤيد الاستنتاجات حول الاشتراك فى النية .

ففى خلال الحرب العالمية الثانية أجريت تحليلا حكومية رسمية للكشف عن مدى تعاون وزارتى الدعاية الألمانية والايطالية ، ان كان ثمة تعاون ، فقيس الاتصال بين راديو برلين وراديو روما بعدة طرق مثل مقدار الالتفات لبعض الحوادث والتوقيت العام لعمل الراديو ، ومعالجة الأنباء والتعليق عليها ، وتشابه موضوعات الدعاية ونوع استخدامها . وتوحد الاذاعة مع بعض الموضوعات . وكانت نتائج التحليل سلبية . اى انه استدل على ترجيح عدم وجود صلة عامة او نوعية مباشرة او غير مباشرة بين وزارتى الدعاية الألمانية والايطالية ، وان كان هذا التحليل لا يثبت بشكل قاطع عدم وجود تعاون بينهما .

وأثبتت المعلومات التى امكن الوصول اليها بعد احتلال المانيا صحة هذا الاستنتاج .

كذلك امكن تفسير الصور المختلفة لستالين كما عبر عنها قمة اعضاء السوفييت الاعلى فى خطب عيد ميلاده بديسمبر عام ١٩٤٩ وذلك لكشف بعض اتجاهاتهم ازاءه .

وقد كانت هناك بالفعل فروق حادة بين مفاهيم البلاشفة القدامى ومفاهيم الأعضاء الآخرين .

المتحدثون

مولوتوف ، مالنكوف ،بريا ...

شفيرنيك ، فورشيلوف ، ميكويان ، اندريوف ...

بولجانين ، كوسيجين ، كروتشتشوف ، كاجانوفتش

ستالين : تلميذ لينين أو يساويه

صورة بلشفية	صورة شعبية
٢٢	٣
٧	١٧
١	١٩

وتعد الدراسة التى قام بها الدكتور سيد عويس للرسائل التى أرسلت الى ضريح الامام الشافعى بالبريد (القاهرة ١٩٦٣) من هذا النوع الذى يحاول أن يحدد فيه الباحث خصائص منتجى المضمون ، وقد حلل الباحث ١٦٣ خطابا تحليلا كميا وكيفيا ، ثم انتهى الى تفسير الظاهرة واضعا فى الاعتبار مقومات ثقافتنا ، والعوامل التى أثرت فيها منذ حضارة الفراعنة حتى العصر الحاضر .

على ان الاستنتاجات من منتجى المضمون قد تكون غير صحيحة اذا أقيمت على أساس من تحليل المضمون فقط . ذلك ان تفسيرات الدافع تكون دائما صعبة . ولا يوجد فى عملية تحليل المضمون شىء يعصم من أخطاء التفسير . اذ قد يتفق جزء من المضمون مع أكثر من فرض عن خصائص او نوايا منتجى المضمون .

وقد حاول عدد قليل من الدراسات اقامة صلة تجريبية بين منتج المضمون والمضمون على أساس المادة وحدها ، وذلك عن طريق اختبار الاستدلالات القائمة على أساس من تحليل المضمون .

٢ - الكشف عن وجود دعاية (وذلك اساسا لأغراض قانونية) ، ان تحليل اساليب الدعاية شىء ، وتحليل وجود دعاية شىء آخر . وقد استخدم هذا التطبيق لتحليل المضمون وزارة الداخلية بامريكا فى بحوثها عن المنظمات

التى يظن انها هدامة وعن منشورات هذه المنظمات ، وذلك بمعونة هارولد لاسويل بوجه خاص ، والاجراء هنا بسيط ، وهو فى الواقع عبارة عن مقارنة المضمون موضوع الدراسة مع مضمون آخر معروف بموقفه العدائى الصريح ، أو فى بعض الحالات مقارنته بمعايير صريحة تستخدم للكشف عن وجود دعاية .

وقد كانت تقدم للمحاكم أثناء الحرب موازنات واضحة بين دعاية المواطن الفشى وما يصدر عن النازيين فيما يتصل بمحاكمات التمرد ، وساهمت هذه الموازنات فى الادانات .

وفى نفس الوقت برئت كثير من الصحف ومحطات الاذاعة بناء على النتـائج التى حصل عليها بعد التحليل الكمى للموضـوعات والاذاعات ، وبذلك امكن حمايتها من اجراء شائع هو ادانة كل اداة النشر على اساس امثلة لطريقة تناول الأنباء او تعليق رئيس التحرير – لها لون التحيز .

وفى نفس الاتجاه قبول المحاكم لبيانات تحليل المضمون وذلك لمنع « امكانية الوقوع فى خطأ ينجم عن .. مزاعم شخصية او ردود فعل ذاتية وتحيزات .. »

وهذا التطبيق لتحليل المضمون يقوم على عدة اختبارات يصفها لاسويل وهى :

المجاهرة : او « التوحد الصريح مع احد جانبى نزاع » .

المطابقة : او « مقارنة مضمون احدى القنوات بمضمون قناة معروفة للدعاية (من حيث الموضوعات) » .

الاتساق : او « اتساق قناة الاتصال مع أهداف الدعاية التى اعلن عنها حزب ما ازاء موضوع الخلاف » .

العرض : او « توازن التناول المؤيد والمعارض لكل رمز لموضوع الخلاف » .

المصدر : او « الاعتماد الشديد نسبيا للمواد على احد اطراف الخلاف » .

المصدر الخفى : استـعمال احد اطراف الخلاف كمصدر دون الكشف عنه .

التميز : « استعمال لغة خاصة باحد جوانب الخلاف » .

التشويه : استمرار تعديل العبارات حول موضوع شائع فى اتجاه يؤيد احد جوانب الخلاف »

٣ – تامين المخابرات السياسية والحربية :

دفع الى استخدام تحليل المضمون فى هذا المجال – فى البداية – متطلبات الحرب العالمية الثانيـة ، فبذلت جهود علمية جادة لضمان توفر بيانات ومعلومات للمخابرات من مختلف الأنواع عن طريق دراسة مضمون الاتصال .

وقد بحث عن اجابات لأسئلة تتصل بموضوعات سياسية او حربية حاسـمة مثل : ما هو رد الفعـل لدعايتنا لدى جمهور اعدائنا ؟ ما هى حالتهم المعنوية ؟ ما هى تقديراتهم لموقفنا الحربى ؟ ماذا ينوون ان يفعلوا بعد هذا ؟

وقد اقيمت مزاعم قوية من خلال هذا الاستخدام لتحليل المضمون فعن طريق تحليل مضمون مايظهر فى قنوات الاتصال لدى القوى المعادية يمكن ان نقيم تنبؤاتنا عن الحركة القادمة التى سيقـوم بها الممسكون بزمام السـياسة والقوة بهـذه الدول .

وقد أحرز الدارسون لأجهزة الاتصال بعض أنواع النجاح المشهود فى هـذا الشـان . ويروى بعض المحللين الذين كانوا يعملون بهيئة الاذاعة البريطانية انهم كانوا ينجحون فى بعض التنبؤات من الخطط الحربية الألمانية .

كما يتضمن سـجل العمل الحـكومى – بأمريكا – خلال الحرب العالمية الثانية بناء على تحليل جورج الكسندر عددا من التنبؤات الناجحة بالأعمال الحربية الكبيرة ، وربما كان اكثر التنبؤات تمثيلا هو التنبؤات البريطانية بالسـلاح الألمانى ( ) عام ١٩٤٣ ، حيث كان يسود فى هذا الوقت بعض الشك عما اذا كان لدى الألمان سلاح سرى واذا كان كذلك فما هو ؟ وقد قام المحللون البريطانيون بسلسلة من الاستدلالات الدقيقة ، لم يتوصلوا منها الى حيازة الألمان لسلاح فحسب بل حددوا نوعه العام وتواريخ حماسه فى تطوره واستخدامه . وكانت اسس تحليلهم هى التعميمات التى ذكرت فى الدراسـات السـابقة بان « دعاية الألمـان (فى بلدهم) تضلل الشعب الألمانى عن عمد ، فى المسائل التى تتصـل بزيادة قوة ألمانيـا » واستنتج افتراض بان « جوبلز » كان حريصا على عدم اعطاء وعد للجمهور الألمانى بالثأر او القصاص قبـل تاريخ تنفيذ الوعد بكثير (لكى لا يرتد الوهم الشعبى) .

كذلك استنتج المحللون فى مناسبات اخرى استنتاجات أخرى صحيحة بأن الألمان لم يخططوا للتحرك الى اسبانيا ومراكش الأسبانية فى مارس ١٩٤٣ ، وانهم لم يخططوا لهجوم كبير على الجبهة الروسية عام ١٩٤٣ ، وانهم خططوا للانسحاب من الجبهة الشرقية ،كما انهم لم يتوقعوا مستوى مرتفعا من النجاح لغواصات الحرب عام ١٩٤٣ .

وتمضى الأيام منـذ الحرب العالمية الثانيـة حتى الآن ، وتتزايد اهمية تحليل المضـمون . ويعتقـد بعض الخبراء المعـاصرين ان حوالى ٩٥٪ من المعلومات اللازمة لاتخـاذ القرارات السياسية والحربية الحاسمة يمكن الحصول عليا من تحليل مضمون المعلومات المتاحة غير المخظورة .

ويكفى ان نعلم ان الأجهزة الالكترونية فى البلاد الكبرى هى التى تقوم بمهمة تحليل المضمون هذه الأيام . وان هذه الأجهزة تقـوم بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها بتحليـل مضمون حوالى ٥٠ مليون وحدة أعلامية بين كتاب وخطاب وصحيفة .. .. الخ كل شهر .

وبعد .. .. لعل ما سـبق يوضح لنا اهمية العناية بأسلوب تحليل المضمون وبملاحقة التطورات التى تطرا عليه من اجل الافادة من تطبيقاته فى المجالات المختلفة بمجتمعنا العربى .

عبد الحليم محمود السيد

كتب جديدة

نحن والعلوم الإنسانية

تأليف: د. مصطفى سويف
عرض ونقد: د. فؤاد زكريا

● إن قضية العلوم الإنسانية ينبغي أن تتلقى قوة دافعة، لا أن تتراجع إلى الوراء، كما ظن بعض المتسرعين، من الأحداث المريرة التي مرت بها أمتنا منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧

في هذا الكتاب احتجاج وتحذير، وفيه نصح وتوجيه، لا يستهدف فئة معينة من الناس، بل يخاطب الأمة بأسرها، ممثلة فيمن بيدهم مقاليد الأمور في توجيه السياسة العلمية للبلاد. فهو يرسم لهم - بأسلوب واضح وحجة مقنعة - معالم طريق جديد ينبغي أن يعمل له في هذه السياسة كل حساب، وذلك بعد أن ينتقد بتعمق وبمنطق لا سبيل الى انكاره، أخطاء السياسة الحالية في المجال العلمي، وفي مجال العلوم الانسانية بوجه عام.



هذا الكتاب قد يبدو لبعض العارفين أنه ينبه الى قضية لا نحتاج الى تنبيه ، وهى أن العلوم الانسانية تستحق أن تقف على قدم المساواة مع العلوم الطبيعية ، من حيث اهتمام المجتمع بها ، وتخصيصه الموارد لها ، وافادته من انجازاتها .
ومع ذلك فان لهجة الاحتجاج الهادىء العاقل ،الذى لا يخلو فى الوقت ذاته من مرارة ، وهى اللهجة المميزة للكتاب من بدايته الى نهايته ، لها ما يبررها ذلك لأن القضية التى لم تعد تحتاج ، فى كثير من بلاد العالم ، الى تنبيه ، ما زالت غير معترف بها اعترافا كافيا فى بلادنا ، بل ان صفحات الكتاب كلها تشهد بأن هناك كفاحا طويلا ومريرا ينتظر كل من يدعو الى الاهتمام بالعلوم الانسانية بوصفها علوما بالمعنى الصحيح .

ولقد كانت هزيمة ٥ يونيو من أقوى العوامل التى دعت الى اثارة هذا الموضوع فى أذهان فئات واسعة من جمهورنا المثقف . ذلك لأن رد الفعل الأول ، والمباشر ، على هذه الهزيمة هو الدعوة الى مزيد من الاهتمام بالعلم الطبيعى والتكنولوجيا بوصفهما مكمن قوة العدو وموضع خطورته .
ولكن قليلا من التفكير المتزوى كان كفيلا بأن يقنع هذه الاذهان بأن تلك الهزيمة هى صيحة تحذير تنبهنا الى أننا ينبغى أن نفهم الانسان مثلما نحاول أن نفهم أسرار الطبيعة ، بل ان الانسان هو العامل الحاسم الذى لا ينفع بدونه علم طبيعى أو تكنولوجيا . وهكذا ادرك المؤلف ، فى لمحة ذكية ، **أن قضية العلوم الانسانية ينبغى أن تتلقى قوة دافعة ــ لا أن تتراجع الى الوراء ،**

كما ظن بعض المتسرعين ـ من الاحداث المريرة التى مرت بها امتنا منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧ ·

ولقد حدد المؤلف هدفه ودوافعه الى تأليف هذا الكتاب تحديدا واضحا ، عندما قال : « **ان كاتب هذه السطور يكتب من موقع يستطيع أن يدرك فيه مدى الاضرار والخسائر التى تصيب مجتمعنا فى صناعته وتعليمه ، وتطبيقه وتسليحه والتخطيط لمعظم مقدرات الحياة فيه نتيجة للتوانى يوما بعد يوم فى الافادة مما يمكن أن نسميه فى مجموعه بفروع التكنولوجيا البشرية · وان الشعور بواجب المواطن نحو وطنه هو الدافع الاول والأخير وراء هذا الحديث كله · والمفروض أن يقدم كل مواطن الى قومه الجهد والنصح فى الاتجاه الذى أتيح له فيه قدر لا بأس به من الخبرة والتخصص** » · (ص ٩٣) ·· وبالفعل يحس المرء طوال صفحات الكتاب بأن مؤلفه ليس كاتبا علميا فحسب ، بل هو أيضا داعية وصاحب رسالة ينبه اليها «**قومه**» لعلهم يهتدون ·

وعلى الرغم من قدرة الاقناع الهائلة التى تنطوى عليها لغة الأرقام ، واللغة التى التجأ اليها المؤلف تأييدا للقضايا الرئيسية التى طرحها فى هذا الكتاب ، فان المرء لا يملك الا أن يشعر بأن من وراء الأرقام الجافة دعوة متحمسة كرس لها المؤلف حياته ، تستهدف تأكيد الطابع العلمى للدراسات المتعلقة بالانسان ، واقناع العقول بأن علوم الانسان ـ الى جانب مالها من أهمية نظرية ـ يمكن أن تعود على المجتمع بأعظم الفوائد على الصعيد العملى والتطبيقى ·

والحق أن دعوة المؤلف لم تقتصر على العلوم الانسانية وحدها ، بل انه يضع أزمة العلوم الانسانية فى اطار أوسع ، هو اطار البحث العلمى بوجه عام · فهو على سبيل المثال يورد الأرقام الخاصة بميزانية البحث العلمى فى كليات جامعة القاهرة ، ثم يتساءل بصدق واخلاص ، بعد أن لاحظ الضآلة الشديدة لهذه الأرقام : « **هذه المبالغ ·· تكفل للجامعة مساندة البحث العلمى فى رحابها ؟ ·· ثم أليس هذا الوضع جزءا من حقيقة تقوم هكذا عارية وراء ظاهرة نعترف بها ونأسف لها ، وهى ضعف معظم البحوث التى تجرى داخل جامعاتنا ؟ أليس الكشف عن هذه الحقيقة وأمثالها جزءا جوهريا من مهمة الكتاب الذين ينعون على جامعاتنا ضعفها ويتحدثون كثيرا على أننا ليس لدينا مدارس علمية وليس لدينا بحوث لها قيمة علمية ؟** » (ص ٤٧)وهكذا يطرح المؤلف قضية البحث العلمى فى أعم صورها كما تتمثل فى ميزانيات البحث العلمى فى الجامعات ويطالبنا بأن نبحث لظاهرة تأخر الابحاث العلمية عندنا عن تعليل اجتماعى حقيقى ، لا أن نكتفى بأن نردد ، بطريقة انهزامية ، أننا عاجزون عن الابتكار فى العلم ، فتغيب عن أنظارنا الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة من جهة ، ويغمرنا احساس باليأس والعجز عن الاتيان بأى جديد ·

واذا كانت ميزانيات البحث العلمى فى الجامعات سواء فى كلياتها العملية أم النظرية ، ضئيلة الى حد مؤسف ، فان نسبة توزيع هذه المبالغ الضئيلة ذاتها بين الكليات المتخصصة فى العلوم الطبيعية وتلك المتخصصة فى العلوم الانسانية ، تكشف بدورها عن حقيقة صارخة ، هى أننا ، كما يؤكد المؤلف (ص ٧٧) لسنا مهيئين بعد للافادة من تطبيقات العلوم الانسانية ، والانتفاع منها فى حياتنا على الوجه الاكمل · والى هذه النتيجة ذاتها ننتهى عندما نستعرض الوضع القائم فى أجهزة الدولة المختلفة ، التى تتولى مهمة تطبيق العلوم الانسانية عمليا ، ولا تكتفى بأعمال البحث العلمى فى هذا الميدان ·

وفى مقابل هذا القصور الشديد فى الانتفاع من تطبيقات العلوم الانسانية ، يثبت المؤلف ، فى أجزاء الكتاب الاولى ، أن لهذه العلوم مقدرة تطبيقية هائلة ، وأنها ألزم ما تكون لمجتمعنا فى المرحلة الحالية من تاريخه · فهنا تغير اجتماعى عظيم الاهمية يطرأ على حياتنا فى الاونة الراهنة ، وتتمثل فى توسع كبير فى التصنيع ، يستتبع الاهتمام بالانسان ، لا بالآلة وحدها ، لأن الانتاج فى نهاية الأمر ، انما يتم على يد الانسان · كما يتمثل هذا التغير فى اتساع نطاق التعليم ، وما يؤدى اليه من ضرورة اهتمام بالصحة النفسية للأعداد الهائلة من تلاميذ المدارس ، وكذلك فى الهجرة من الريف الى المدينة ، والمشكلات التى تؤدى اليها الحياة فى المدن ، وغير ذلك من المجالات العديدة التى تستطيع العلوم الانسانية ، اذا ما وجهت اليها العناية الكافية ، أن تقوم فيها بدور عظيم الاهمية · **بل ان تطبيقات العلوم الانسانية يمكن أن تمتد لتشمل معالجة مشكلات البحث العلمى ذاته ، او على الاصح أسباب ضعف روح البحث العلمى ، وكذلك مشكلات التأهيل للجيش وزيادة كفاءة المحاربين ·**

في كل هذه الميادين يؤكد المؤلف – عن حق – أننا لم ننتفع من المزايا التطبيقية للعلوم الانسانية الا انتفاعا ضئيلا ، مع أن التطبيقات القليلة التى أجريت قد أثبتت الفائدة العملية المحققة التى يمكن أن تعود على المجتمع اذا وجه الى هذه العلوم العناية اللازمة ·

والمشكلة ، فى نظر المؤلف ، لا ترجع فقط الى ضآلة الاعتمادات المالية المخصصة لهذا النوع من الأبحاث ، بل ان هذه الضآلة ذاتها هى على الارجح مظهر خارجى ، أو نتيجة ، لشىء أعمق ، هو نظرة قطاع كبير من المسئولين عن توجيه السياسة العلمية ، وعن تخصيص الاموال للفروع المختلفة فى هذا الميدان ، الى العلوم الانسانية · وهذه النظرة هى التى يستهدف الكتاب تغييرها ، واقناع أصحابها بالخطأ الذى يقعون فيه عندما يستهينون بعلوم أصبحت تكون جزءا لا يتجزأ من مقومات التقدم وعوامل الارتقاء فى العالم بأكمله · فالكتاب اذن موجه ضد حالة ذهنية معينة ، ترجع جذورها الى نوع من الجمود العقلى الذى يجعل كثيرا من الناس عاجزين عن أن يتجاوزوا فى تفكيرهم تلك المرحلة التى كانت فيها العلوم الانسانية لا تزال شيئا مشكوكا فيه ،وكان امكان تطبيقها العملى لا يزال فيها أمرا غير مؤكد ·

على أن من أوضح مزايا هذا الكتاب أنه لايكتفى ببيان أوجه القصور فى هذه الحالة الذهنية التى تستخف بالعلوم الانسانية ، ولا يكتفى بتقديم الحجج القاطعة التى تثبت فداحة هذا الخطأ ، بل انه يقدم حلولا ايجابية يحدد بها معالم الطريق الذى ينبغى سلوكه لكى نعطى هذه العلوم حقها ، ونفيد من العائد الضخم الذى يمكن أن تعود به على حياتنا لو أحسنا استخدامها · **وقد لا يتفق البعض مع المؤلف فى تفاصيل مقترحاته الايجابية التى يهدف بها الى اصلاح هذا الوضع ، ولكن أحدا لن يستطيع أن ينكر أن المؤلف لم يسلك مسلك الناقدين الذين يكتفون بابداء الحسرة واشعار الآخرين باليأس ، بل يرسم طريقا ايجابيا لحلول لا شك فى أن كثيرا منها جدير بأن يلقى من المسئولين كل اهتمام ·**

* * *

ان من مزايا الكتب الجيدة أن تثير فى ذهن القارئ كثيرا من القضايا والمشكلات · وعلى الرغم من أن هذا الكتاب انما هو اعادة تدوين موسعة لبعض المقالات التى نشرت فى مجلة « الكاتب » فى أواخر عام ١٩٦٧ وأوائل ١٩٦٨ ، فانه يحمل فى ذاته كل مزايا الكتاب المثير للفكر · وفى اعتقادى أننى سأكون قد أسهمت بنصيب فى تنبيه الاذهان الى أهمية القضايا التى يثيرها هذا الكتاب اذا ما عرضت بعضا من الافكار التى جالت بخاطرى خلال قراءتى له ، وهى أفكار قد لا أكون متفقا فيها مع وجهة نظر المؤلف ، ولكنى أشترك معه – على الأقل – فى الهدف النهائى الذى يرمى الى بلوغه ، **وهو اعطاء الانسانيات حقها فى مجتمع ما زال الى حد بعيد ، غير معترف بهذا الحق ·**

١ – أولى الملاحظات التى استلفتت انتباهى هى **التأكيد الدائم والمستمر للجوانب التطبيقية فى العلوم الانسانية ، على أساس أن هذه الجوانب هى التى ينبغى أن تكون مبررا لاهتمامنا بهذه العلوم ·** فمن المشكوك فيه الى حد بعيد أن يعمد عالم الطبيعة ، فى محاولته تبرير العلم الذى يشتغل به ، الى تأكيد فائدة هذا العلم فى اختراع الراديو والتليفزيون ، أو أن ينبه عالم الكيميا ، من أجل اقناع الناس بأن علمه مفيد ، الى دوره فى صناعة الاغذية المحفوظة أو تكرير البترول · صحيح أن هذه كلها فوائد محققة لهذه العلوم · وبعضها أحدث انقلابا فى حياة الانسان ، ولكن تبرير العلوم على أساس مزاياها التطبيقية وحدها غير كاف ، ومن الضرورى أن يكون الفهم النظرى للظواهر التى تبحثها هذه العلوم ، والسعى الى كشف القوانين المتحكمة فيها ، واحدا (على الأقل) من الأسباب التى تقدم لتبرير الاهتمام بدراسة أى علم ·

وأنا أدرك أن هذه الملاحظة يمكن ان يوجه اليها ردان :

(أ) الرد الأول هو **أن العلوم الطبيعية لم تعد فى حاجة الى تبرير ، وأنها علوم بلغت من الاستقرار حدا يتيح لأصحابها أن يدافعوا عنها على أساس قيمتها النظرية وحدها ، أما العلوم الانسانية فما زالت فى حاجة الى كفاح من أجل اثبات وجودها ، وما زالت مضطرة ، خلال هذا الكفاح ، الى الارتكاز على التطبيقات العملية التى يمكنها أن تقوم بها ·**

(ب) والرد الثانى هو **أن الكتاب يخاطب مجتمعا**



يحتاج الى منطق خاص لاقناعه بجدوى العلوم الانسانية ، هو منطق المنفعة العملية ، وذلك ، من جهة ، لحداثة عهد هذا المجتمع بتلك العلوم ، ولأنه ، من جهة أخرى ، ما زال فى مرحلة من مراحل النمو الاقتصادى لا يملك فيها أن ينفق من موارده الا على أوجه النشاط التى يستطيع أن يكون على ثقة من أنها ستعود عليه بنفع عملى .

هذان ، دون شك ، مبرران ربما كانا فى الخلفية الذهنية للمؤلف عندما اقتصر على تبرير العلوم الانسانية على أساس فوائدها التطبيقية ، ومع ذلك فيبدو لى أن الموضوع كان يحتاج الى اشارة ، على الاقل ، الى ما للفهم النظرى للانسان من قيمة فى ذاته ، بغض النظر عن تطبيقاته العملية ، حتى لا يظن القارىء أن كل قيمة هذه العلوم تنحصر فى تطبيقاتها ، أو يتوهم أن فهم السلوك الانسانى فهما علميا ليس فى ذاته هدفا جديرا بالسعى اليه .

* * *

٢ ــ يحدد المؤلف القضية الأساسية التى يدافع عنها بقوله « **نحن نبنى مجتمعنا ، ونحدد له مكانه فى المجتمع الحديث ، فى عالم يعتمد أساسا على العلم كمنهج . وهذا المنهج العلمى كما يقوم أمامنا فى القرن العشرين ، وفى النصف الثانى منه بوجه خاص ، يتناول الآلة كما يتناول الانسان** (الانسان كسلوك لا كأنسجة وأعضاء فحسب) ، **لذلك يجب علينا أن نعنى بالانسان والآلة معا ، وبانواع التعليم التى تؤدى الى مزيد من المعرفة بخصائص كل منها ..** » (ص ٧) .

وبناء على هذا التحديد يصل الى تعريف متسق معه للعلوم الانسانية هو أنها « مجموعة الدراسات التى تستخدم المنهج العلمى فى دراسة مظاهر النشاط المختلفة التى تصدر عن الانسان كفرد وكجماعة أو مجتمع . وهى بهذا تضم مجموعة فروع علم النفس (أى علم سلوك الافراد ،وفروع علم الاجتماع ، وعلم الحضارات ، والاقتصاد ، وبعض فروع من دراسات اللغة والتاريخ والقانون » (ص ٨) .

ومن الانصاف أن أقول ان الكتاب قد التزم هذا التحديد لقضيته الاساسية ، وللمعنى الذىوضعه للعلوم الانسانية ، وأن المعالجة كانت متسقة منذ البداية الى النهاية ، بحيث لا يملك المرء الا أن يعترف بأن المؤلف حدد لنفسه نطاقا معينا ، وعالج المشكلة بنجاح فى حدود هذا النطاق الذى وضعه لنفسه .

ولكن السؤال المهم فى رأيى هو : **ما مدى مشروعية هذا النطاق ؟** ألا توجد ميادين أخرى تنتمى الى مجال الدراسات الانسانية لم يتعرض لها المؤلف أصلا ؟ هذا السؤال يتعلق بما لم يتضمنه الكتاب . وأنا أسلم بأنه ليس من المشروع منهجيا أن يحاسب المرء كتابا على ما لم يتضمنه ، بل ان ما يجوز عمله هو محاسبته على ما تضمنه فعلا ، لا سيما اذا كان قد حدد لنفسه منذ البدء مجالا وظل ملتزما اياه حتى النهاية .

ومع ذلك فان المرء لا يجد مفرا من التساؤل

عن مدى صحة هذا التحديد حين يجد المؤلف فى الصفحات الاولى من الكتاب (٤ـ ٦) انه يقف مدافعا عن الدراسات النظرية بأكملهـــا ، او الدراسات الأدبية ، ويهاجم الرأى القائل بأن **«الآداب ترف ذهنى»** • مثل هذا الموقف يوحى بأن الحديث سوف ينصب على كل الدراســـات الانسانية ، ولكن سرعان ما يكتشف القارىء أن ما يدافع عنه المؤلف حقيقة ليس سوى الدراسات الانسانية التى استطاعت أن تتخذ لنفسهـــا منهج العلم •

فما الذى يؤدى اليه هذا التحديد ؟ من الواضح أنه يؤدى الى استبعاد قدر كبير من الدراســـات الانسانية ، سواء منها تلك التى لم تستطع ، بعد أن تستخدم المنهج العلمى ، أو تلك التى لاتحاول أصلا أن تستخدمه • ومعنى ذلك أن الأدب والنقد والفلسفة ـ على سبيل المثال ـ قد استبعدوا من نطاق الدراسات الانسانية التى يقف المؤلف موقف الدفاع عنها • وبعبارة أخرى فان الكتاب لا يحدد مصير هذا النوع من الدراسات ، التى هى انسانية حقا (بل هى انسانية « جدا » فى رأى الكثيرين ، وربما كانت فى نظر البعض هى «الانسانية» بالمعنى الصحيح ، ولكنهـــا مع ذلك ليست منهجيـــة علمية • فماذا نفعل بهـــا اذن ؟ وما مركزهـــا فى البرنامج الذى يقترحـــه المؤلف للنهوض بالعـــلوم عامة ، وبالعـــلوم الانسانية خاصة ؟ هذه أسئلة لا نستطيع أن نجد لها فى الكتاب جوابا •

وأخشى أن أقول ان الاجابة التى نستطيع ان نستنتجها منه ، ضمنيا ، هى أن الدراســـات الأدبية والفلسفية تستحق أن **تسمى « دراسات نظرية »** ، ومن ثم فهى خارجة عن نطاق ما يدافع عنه الكتاب • فمن ذا الذى يدافع عنها اذن ؟أيحق لنا أن نتركها بلا كلمة تقال فى صفها ، ولسان حالنا يقول : « **أما الدراسات النظرية غير العلمية فلها رب يحميها** » !

ان الدفاع عن بعض الدراسات الانســـانية على أساس أنها استطاعت أن تصبح علمية ،ومن ثم فهى جديرة بنفس الاهتمام الذى نبديه بالعلوم البحتة • هذا الدفاع ينطوى فى واقع الامر عـلى تسليم لا شعورى بموقف خصوم الدراســـات الانسانية • ولكى أوضح وجهة نظرى ، أود من القارىء أن يتأمل مليا هذا الاقتباس : « ان اى حديث عن العلوم الانسانية تحت عنوان«الدراسات النظرية » (كانما هى قطب مقابل للدراســات التجريبية) ينطوى على خطأ فاضح •• والواقع أن العلوم الانسانية (وخاصة جميع فروع عـلم النفس وبعض فروع علم الاجتماع) دراســـات تجريبية بكل ما لهذه الكلمة من معنى محـــدد فى تاريخ العلوم • والفرق الرئيسى بينها وبين العلوم الطبيعية والبيولوجية فرق فى درجـــة التقدم •• وليس فرقـــا فى أن الدراســـات الانسانية تأمليـــة ولا يمكن أن تكون الا كذلك بينما علوم الطبيعة والبيولوجيا علوم تجريبيـــة فهذا غير صحيح » • (ص ٩) •

فلنترك جانبا ما جاء فى هذا الاقتباس من أن « **جميع** » فروع علم النفس تجريبية (وهـــو رأى قد لا يوافق عليه « جميع » المشتغلين بعـلم النفس) ، ولنحاول أن نستخلص دلالة النص فى مجموعه • انه « يبرىء » الدراسات الانسانية من تهمة « التأملية » ، وهـــذا ينطوى على حكم ضمنى هو : اذا أصرت بعض الدراسات الانسانية على أن تظل تأملية ، فهى تستحق مصيرهـــا وهى غير جديرة بأن يعطف عليها احد •

وبعبارة أخرى ، فان جواز المرور الى الجنـــة بالنسبة الى أية دراسة انسانية ، هـــو أن تكون قادرة على اتخاذ المنهج العلمى ، أما اذا عجزت عن ذلك ، فمآلها الى جهنم وبئس المصـــير • ولكن ، أليس فى هـــذا تسليم ضمنى بموقف خصـــوم الدراسات الانسانية ؟ ان هؤلاء الأخيرون يرون أن العلم ، أو بعبارة أخرى الدراسات التى تستطيع اتخاذ المنهج العلمى ، هو وحده الجدير برعـــاية الدولة • وها هو ذا المؤلف يوافق على رأيهـــم هذا موافقة ضمنية ، ولكن مع تحفظ واحد : هو أن المنهج العلمى قابل للتطبيق على بعض فروع الدراسات الانسانية بدورها • وبعبارة أخـــرى فالمبدأ العام الذى يرتكز عليه خصوم الدراسات الانسانية هو ذاته الذى يرتكز عليه المؤلف ،وهو أنه لا شيء جدير بالاهتمام والرعاية سوى العلم وسوى الدراسات التى تطبق المنهج العلمى ، وكل الخلاف بينه وبين هؤلاء الخصوم ينحصر فى المـــدى الذى ينطبق عليه لفظ « العلم » : وهل هـــو الطبيعة وحدها،أم الطبيعة وبعض جوانب الانسان ايضا • فالمسألة كلها مسالة تضييق أو توسيع

لمعنى العلم ، أما مبدأ قصر اهتمام الدولة على العلم وحده فلا خلاف عليه .

والآن ، لعل قارئا يسألني : **وما الضرر في هذا ؟ فيم اعتراضك على أن تكون الدراسات الانسانية علما ؟ أليس هذا أفضل من التخبط الذى أوقعتها فيه الأساليب والطرق التأملية ؟** وردى على هذا الاعتراض هو أننى أول من يرحب بدخول أكبر قدر من الدراسات فى حظيرة المنهج العلمى . ولكن المشكلة هى أن هناك بالفعل دراسات انسانية هامة ، بل عظيمة الاهمية ، لا تستطيع ذلك ، ولا يمكنها أن تأمل فى المستقبل القريب **(ولا فى المستقبل البعيد ، حسب رأى الكثيرين)** فى أن تصبح علمية ، فماذا نحن بها فاعلون ؟ هذا مالا يجيبنا عنه الكتاب .

ولعل الاعتراض الذى أثيره يكتسب مزيدا من القوة اذا أدركنا أن القضية الحقيقية للدراسات الانسانية ، فى نظر الكثيرين ، انما هى بعينها قضية تلك الدراسات التى لا نستطيع بطبيعتها أن تكون علوما ، أما تلك التى تقترب - أو تحاول أن تقترب - من المنهج العلمى ، فأمرها هين ان المشكلة الكبرى التى تواجهها الانسانيات فى عالمنا الراهن ، هى البحث عن مكان للآداب ، وللفلسفة ، وللدراسات « التأملية » فى عالم يحرز فيه العلم انتصارات ساحقة . هذه هى القضية الكبرى التى تشغل بالفعل بال الحريصين على الدراسات الانسانية - وهى القضية التى لم يتعرض لها الكتاب أصلا وحين يجد المرء فى الكتاب دعوة الى ازالة التفرقة بين الشعبتين العلمية والادبية فى التعليم الثانوى ، على أساس أن « **هذه الثنائية كانت معاصرة لمستوى المعرفة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما الآن فقد أصبحت متخلفة تماما ن تقدم المعارف فى العصر الحديث بل وأصبحت معوقة للنمو العقلى السليم لشبابنا، لأن امتدادات المنهج العلمى التجريبى الى معظم الدراسات الانسانية « حطمت الحاجز الذى كان قائما بين الشعبتين** .. » (ص ١١٧) - حين يجد المرء فى الكتاب دعوة كهذه ، قائمة على أساس مثل هذا التبرير ، فلا مفر من أن يتملكه شعور بالخوف من أن تكون القضية الحقيقية التى أشرنا اليها ضئيلة الشأن فى نظر المؤلف ، الذى ينكر أحقية الآداب البحتة فى أن تقف الى جانب العلوم ، وذلك حتى لا تكون هناك ثنائية « **معوقة للنمو العقلى** » السليم لشبابنا » .



ان كثيرا من العلوم الانسانية كانت حتى عهد قريب علوما تأملية فى الاغلب ، وحين طبقت فى بعضها المناهج التجريبية ، وأحرزت فى أحيان غير قليلة نجاحا ملحوظا ، حدث على ما يبدو نوع من التطرف فى الاتجاه المضاد ، أعنى اتجاه التبرؤ من الأصل التأملى · والمسألة هنا أشبه ما تكون بتلك الظاهرة المألوفة فى ميدان الدراسات الاجتماعية : حين نجد أشد الناس تأكيدا للفوارق بين الطبقات العليا والدنيا هم أولئك الذين خرجوا حديثا من صفوف الطبقات الدنيا وانضموا الى الطبقات العليا · وأخشى أن أقول ان التبرؤ المتطرف من تهمة « **التأملية** » عند أنصار العلوم الانسانية التجريبية هو شىء من هذا القبيل · ومما يؤيد حدسى فى هذا الشأن أن الشأن أن كثيرا من المشتغلين بالعلوم الطبيعية ذاتها يبدون ـ على عكس المتوقع ـ اهتماما كبيرا بالدراسات الانسانية « **التأملية** » ، ويدعون الى رعايتها والى احداث توازن بينها وبين العلوم الطبيعية ـ تماما كما نجد أفراد الطبقات العليا العريقين (فى المثال السابق) أقل حرصا على تأكيد الفوارق الطبقية من أولئك الذين ارتقوا اليها حديثا ·

وانى لأتساءل : هب أن المسئولين عن وضع السياسة العلمية العليا فى بلادنا قد قرأوا هذا الكتاب ، وتأثروا بحججه ، وأخذوا يطبقونها فعلا فاهتموا بالدراسات الانسانية التى أقنعتهم بأنها علمية فعلا ، ثم ألقوا بالباقى الذى لم يستطع أن يثبت علميته (كما فعل « هيوم » مع القضايا التى لم يمكن تحقيقها تجريبيا) فى النار ·· فأى رد يمكن أن يوجه اليهم ، فى حدود الموقف الذى اتخذه الكتاب ؟ أيستطيع أحد أن يمنعهم من أن يقولوا ان ما فعلوه لم يكن الا تلبية لدعوة هذا الكتاب ؟

* * *

ولو نظرنا الى الأمر من الناحية التطبيقية ، لوجدنا أن كل المزايا التطبيقية التى يوردها الكتاب للعلوم الانسانية انما هى فى واقع الامر فوائد تقدمها العلوم الانسانية بوصفها « **خادمة** » للتكنولوجيا (أنظر الفصل الثانى كله) · ومن المؤكد أن التسمية التى ترددت طوال صفحات الكتاب ، أعنى تسمية العلوم الانسانية ، باسم « **التكنولوجيا البشرية** » ، لها فى هذا الصدد دلالة بالغة ·

ومرة أخرى أقول ان مثل هذا الموقف ينطوى ضمنا على التسليم برأى خصوم الدراسات الانسانية ، وهو أن التكنولوجيا هى وحدها الجديرة بالعناية ، وكل ما فى الأمر أن الكتاب يريد أن ينبه الى أن معنى التكنولوجيا يجب أن يتسع بحيث يشمل تطبيقات العلوم الانسانية بدورها ، لا تطبيقات العلوم الطبيعية وحدها · وهنا أعود الى التساؤل : **هل تنحصر رسالة الدراسات الانسانية حقا فى أن تخدم التكنولوجيا وتعمل على زيادة فعاليتها وكفاءتها ؟ أليس من واجبنا ، أيضا ، أن نهتم بالدراسات الانسانية من حيث هى قوة تقف فى مقابل التكنولوجيا ، وتكبح جماحها ، وتحقق فى الانسان توازنا بين الجانب المادى والجانب المعنوى من حياته ؟**

ان القضية الكبرى للعلوم الانسانية فى عالم اليوم لا تنحصر فى كونها قد أصبحت علوما أم لم تصبح ، بل فى الوظيفة التى تستطيع أن تقوم بها فى عالم متخم بالعلم والتكنولوجيا · وهناك كثيرون يطالبون بالمحافظة على توازن الانسان عن طريق ابداء مزيد من الاهتمام بالشعر ، والأدب ، والفلسفة ، والدراسات « التأملية » التى لا يمكن أن تصبح علوما ، ولا تطمع فى ذلك · هؤلاء لا ينكرون أن الانسان يمكن أن يدرس فى فروع معينة دراسة علمية ، ولكنهم فى الوقت ذاته يؤكدون أن الانسانية فى حاجة الى الاحتفاظ بتلك الفروع الأدبية والفنية التى لا تكتمل انسانية الا بها · والمشكلة فى نظرهم هى فى كيفية الحفاظ على هذه المعارف الانسانية « التأملية » ازاء طوفان الروح العلمية التجريبية الجارف ·

مجمل القول اننى اعترف بالقضية الرئيسية التى أثارها المؤلف اعترافا كاملا ، وأسلم بحججه المقنعة التى أراد فيها أن يكون للدراسات الانسانية مزيد من اهتمام مجتمعنا ، ولكنى أعتقد أن للمشكلة وجها آخر ، لا يقل عن ذلك أهمية ، لم يتعرض له ذلك الكتاب الذى دافع بصدق واخلاص عن العلوم الانسانية ، ولكنه ـ للأسف ـ تذكر أنها « علوم » أكثر مما تذكر أنها « انسانية » ·

فؤاد زكريا

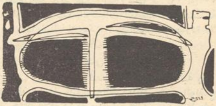
لقد كان الطب النفسى فى مصر – ولا يزال – مرتعا خصبا للكثيرين ممن تدفعهم دوافع مختلفة للتصدى لعلاج الأمراض النفسية ، فامتلأ الحقل بعـــدد من غير المؤهلين أو بمؤهلين ليس لديهم الموقف العلمى المتكامل الذى يحتم عليهم نبـذ الخرافة وأساليب الدجل • بل ما زال بعض الاطباء يعالجون مرضاهم بأساليب الشعوذة والخرافة أو بالاعتماد على أولياء الله الصالحين والأحجبة والتعاويذ أو بأسداء النصح والارشاد حيث لا ينفع نصـح ولا ارشاد • كما ان بعض الحاصلين على درجـة الدكتوراه فى علم النفس الذين أصبح من حقهـم بحكم القانون مزاولة العلاج النفسى يمارسون هذا العلاج وهم فى الحقيقة غير صالحين من أوجه كثيرة للقيام بهذه المهمة •

الطبّ النفــسى المعاصِرْ

تأليف : د. أحمد عكاشة
تحليل : لطفى فطيم

ويتيح لنا كتاب الدكتور أحمد عكاشة فرصة التأمل فيما أحرزه العلم من تقــدم فى مواجهـة أخطر ما يمــكن ان يلم بانسـان الا وهو المرض العقلى •

والمؤلف عندما يكتب فى الطب النفسى والعقلى فانه يكتب عن دراسة علمية متعمقة وخبرة عملية ذات بصيرة نفاذة • فقد نشر الى جانب مؤلفاته ، ما يزيد على خمسة عشر بحثا تطبيقيا على البيئة المصرية ونتائج تجاربه فيها فى مجلة الطب العقلى البريطانية ومجلة الطب العقلى والعصبى المصريـة والمجلة الطبية لجامعة عين شمس • وتتميز بحوثه بالنظرة الثقافية الواسعة والربط ما بين مشــاكل البيئة وأساليب البحث والعلاج الحديثة • ولعل أطرف بحوثه ما نشره فى مجلة الطب العقـــلى البريطانية عام ١٩٦٦ عن « الزار » فى مصر •



ويرجع اهتمامنا بمناقشة الكتاب الحالى الى أن المؤلف له جهد دؤوب فى اثراء المكتبة العربية بمؤلفات جادة فى مجال تخصصه تسمح لنا باستخلاص موقفه النظرى والعملى ومناقشته مناقشة علمية خلافا لغيره ممن يكتبون فى هذا المجال · سوف نعرض له من خلال اجابته على ثلاث قضايا رئيسية هى : (١)ايمان المؤلف بالمنهج العلمى (٢) العلاقة بين علم النفس والطب العقلى (٣) تأثير المجتمع فى الامراض النفسية ·

مشاكل العقل فى العصر الحديث

١ ـ لا ترجع أهمية الكتاب الى كونه أول مرجع علمى جاد بالعربية فى هذا المجال فحسب وانما الى كونه أيضا كتاب « معاصر » يتناول مشاكل العقل فى العصر الحديث وأحدث التفسيرات والنظريات وأساليب العلاج والنظر الى مشاكل مرض العقل فى مصر من خلال ذلك · ويتخذ المؤلف موقفا علميا واضحا منذ البداية فهويستخدم تعبير الطب النفسى مرادفا للتعبير الانجليزى Pcychiatry وهو ما يعرف عادة بالطب العقلى · فالطب العقلى عنده هو الطب النفسى والعقلى معا ، وهو بذلك لا يفرق بين ما هو نفسى وما هو عقلى معتبرا أن ظواهر النفس والعقل وأعراض اعتلالها أى ما يعرف بالامراض النفسية والعقلية نابعة من المخ وأن الطب النفسى قائم على أسس فسيولوجية وكيميائية فى الجهاز العصبى ، وأن قشرة المخ هو مركز جميع المنعكسات الشرطية · التى هى نواة تكوين الشخصية · (ص ٣) ·

ويتفق هذا الموقف مع وجهة النظر المادية التى ترى أن كافة الاضطرابات العقلية ترجع الى اعتلال فى المخ ، كما ترجع اختلافات السلوك عند الافراد الى الاختلافات فى قيام المخ بوظائفه وبالتالى الى اختلافات مادية موضوعية بين امخاخ الافراد ·كما يتفق أيضا مع وجهة النظر التى سادت مؤتمر « دراسات المخ وسلوك الانسان » الذى عقدباريس فى العام الماضى تحت اشراف اليونسكو وهيئة الايبرو « Ibro » وهى هيئة دولية لبحوث المخ أنشئت فى عام ١٩٦٠ بتوجيه من اليونسكو ·ففى ذلك المؤتمر الذى حضره ٧٨ عالما يمثلون مختلف التخصصات منهم ستة حائزون لجائزة نوبل ، والذى كان هدفه القاء الضوء على الوضع الراهن لمعلومات الانسان عن المخ والعلاقة بين هذا المجال من البحث ومختلف مجالات البحث الاخرى كان المنطلق الاساسى للبحث هو أن النشاط النفسى والعقلى ليس الا شكلا من أشكال النشاط العصبى للمخ ·

على ان وجهة النظر هذه تعرضت للكثير من الهجوم والنقد وعدم الايمان خلال فترة طويلة من الزمان ولا يزال الكثير من العلماء يقفون من تفسير هذه النظرية للانسان ولسلوكه موقفا غير محدد بل ويعتبرونها قيدا على تفسير الانسان · ولكن النظرة المادية الجدلية مع ايمانها بأن التفسير العلمى لنشاط المخ يجب أن يكون ماديا وحتميا ، الا أن الحتمية عندها ليست حتمية ميكانيكية تنقل دون تعديل قوانين مستوى ما من الاداء الوظيفى للمادة الى مستوى أعلى وبتعبير آخر لايمكن لقوانين سلوك الحيوان مثلا أن تطبق على سلوك الانسان فالنظرة المادية الجدلية تعترف لكل مستوى بقوانينه الخاصة وتقر بأنه مع كل تطور للكائن العضوى تظهر ميكانيزمات لم تكن موجودة حتى تلك اللحظة ـ أى حتى لحظة ظهورها · وترجع اختلافات السلوك لدى الافراد الى الاختلافات فى قيام المخ بوظائفه وبالتالى الى اختلافات مادية موضوعية بين أمخاخ الافراد · ومن الواضح أنه لا يمكن تصور الوظيفة دون سندها المادى وبالتالى فان مفهوم المخ والوظيفة يجب جمعها فى تعبير واحد هو المخ الشغال Functioning brain ، وهو الواقع الموضوعى الوحيد الذى يجب بحثه · ولكن هل يعنى هذا أننا نستطيع فيما بعد أن ننسب ذكاء الفرد مثلا الى وزن مخه أو عدد النيورونات الموجودة لديه ؟ لقد أجاب ماديو القرن التاسع عشر على هذا السؤال بالايجاب · فقد كانوا يعتقدون فى امكان وجود فهم وتفسير شاملين للحقيقة الكلية وبالتالى فلا يوجد فى النفس الا نشاط عصبى يمكن تحليله وفهمه بالطرق العلمية المعروفة والمحورة لتناسب ذلك المجال من البحث · الا أن المادية الجدلية استبدلت بتلك الفكرة التى تفترض طبيعة نهائية للمادة فكرة أكثر ديالكتيكية وهى الطبيعة اللانهائية للمادة، أى وجود المادة فى أشكال لا نهائية وبصفات لا نهائية أيضا · فلا يمكن اكتشاف المادة فى كليتها لأنها مع كل مستوى جديد من التقدم تقدم أشكالا جديدة لم تكن موجودة · فالقشرة المخية التى يبلغ عدد نيوروناتها من ١٢ الى ٢٠ مليار وتبلغ عدد الوصلات العصبية المتصلة بها رقما خياليا لا يمكن الا أن تكون لا محدودة ولا نهائية مثلها مثل الزمان والمكان ·

بين علم النفس والطب العقلى

٢ ـ وتنقلنا هذه المقدمة الى القضية الثانية وهى العلاقة بين علم النفس والطب العقلى ،فمن الواضح ان هناك علاقة وثيقة بينهما · فالكثير من النظريات المفسرة للسلوك الانسانى فى سوائه وشذوذه

قدمها علماء النفس ، ولعل أشهرها نظرية التحليل النفسي التي ابتكرها سيجموند فرويد . ولذلك كان من الضروري للمؤلف وخصوصا عند تعرضه للامراض النفسية المسماة بالعصابية neurosis وهي التي لا يمكن ارجاعها الى « اختلال في المخ » أن يتخذ موقفا من النظريات النفسية المختلفة المفسرة لهذه الامراض . وقد اتخذ موقفا وسطا اذ يقسم هذه النظريات الى فئتين مجموعة النظريات التكوينية التي تعتمد على العوامل البيولوجية الوراثية ، ومجموعة النظريات البيئية . فيقول « ولا داعي للتحيز لاحدى هاتين النظريتين » .. « فان الرؤية ما زالت غير واضحة بالنسبة للأسباب الرئيسية للامراض العصابية » .. « وعلينا الاستفادة منهما معا ، فتكون أسباب أمراض العصاب هي تفاعل العوامل التكوينية والبيئية » (ص ٢٣) .

ولا شك أن للمؤلف العذر في هذا الموقف الذي لا يحتم ارجاع الامراض العصابية الى « اعتلال في المخ » فهذه المجموعة من الامراض « لم تحظ بنفس درجة التقدم التي وصلت اليها الامراض الذهانية من ناحية العلاج الكيميائي والفسيولوجي والكهربائي » .. « ولا مانع من الاعتراف بعجز الطب الحالي عن استئصال المرض نهائيا » (ص ١٣٢ ، ١٣٣) .

والحقيقة أن الامراض العصابية كانت ولاتزال حكرا لمدارس علم النفس التي فسرتها وقدمت وسائل لعلاجها ، وأشهر هذه المدارس هي مدرسة التحليل النفسي التي يقول عنها المؤلف (ص٣) « **وقد أسدى فرويد خدمات جليلة للطب النفسي ، ووضع أسسا لتفسير الأمراض النفسية والعقلية بعد أن كانت في متاهات لانهائية ، وأصبح التحليل النفسي أحد وسائل العلاج النفسي الملائمة لفئة منتقاة نادرة من المرضى » . ولا يغفل المؤلف** بقية المدارس الاخرى التي قدمت تفسيرات مخالفة لتفسير فرويد وأسلوب مختلفا للعلاج وأهمها مدرسة العلاج الشرطي أو ما يسمى بالعلاج السلوكي وهي التي ابتكرها العالم الروسي بافلوف وطورها أيزنك وفولب بعد ذلك .

أسلوب العلاج النفسي

المهم أن العلاج النفسي هو أسلوب هام ورئيسي في العلاج يعتمد على التفسير النفسي للشخصية ومهما اختلفت النظرية التي يدين بها المعالج فان الجميع يتفقون على أن الغرض الأساسي هو مناقشة أفكار وانفعالات المريض واكتشاف الصراع والاجهاد ومحاولة تكيف المريض مع المجتمع في حدود قدراته الشخصية ، مع اقامة تجاوب انفعالي بين المعالج والمريض واستخدامه في شفائه .

ويختلف المؤلف مع مدرسة التحليل النفسي في أسلوبها العلاجي ، ففي رأيه أنه أسلوب غير عملي لا يلائم الا فئة منتقاة من المرضى ، كما أنه لايساعد على الشفاء في بعض الاحيان ، ويقول أن مايدعيه روزن وهو أحد المحللين المشهورين من أنه وصل الى نتائج شفاء ١٠٠٪ أمر يحتاج الى اثبات . ومع ذلك فانه بالنسبة للتفسير النفسي لمرض الفصام وللامراض الوجدانية لا نجده يذكر من بين نظريات علم النفس سوى نظرية التحليل النفسي . كما أنه في الفصل الذي أفرده لاضطرابات الشخصية يعتمد اعتمادا تاما على شرح فرويد لبناء الشخصية فيقول « لا شك أن اهتمام فرويد بتشريح وتقسيم مراحل نضوج الشخصية ، أثر تأثيرا واضحا في مفهوم الطب النفسي لمكونات شخصية الفرد » (ص ٣٨٤)

ويختلف موقف المؤلف كذلك عن موقف المدرسة السوفيتية بالنسبة للأمراض العصابية . فنجد أن أحدث كتب الطب العقلي السوفييتي ــ وهم مشهورون بانخفاض نسبة الأمراض العقلية عندهم ــ تغفل التفسير النفسي للعصاب . ففي هذا الكتاب الذي الفه اثنان من أعظم وأشهر الاطباء العقليين في الاتحاد السوفييتي ، نجد أن العصاب يرد تحت عنوان « الذهان الاستجابي أو ذو المنشأ النفسي » ويقرر المؤلفان أن هذا النوع من الأمراض هو ذهان ناشيء مباشرة عن صدمة نفسية . ويقرران أن العصاب هو اضطراب وظيفي ذو منشأ نفسي ينتاب الجهاز العصبي وأنه على عكس الذهان الاستجابي reactive يظل الفرد فيها محتفظا بالموقف الموضوعي من مرضه ولا يفقد القدرة أو السيطرة على سلوكه ويعتبران أن تعاليم فرويد قد لعبت دوراسلبيا في تطوير النظرة العلمية للعصاب . والنظرة العلمية للعصاب في رأيهما قد نمت بتأثيربافلوف وتعاليمه وتجاربه فيما يسمى بالعصاب التجريبي على الحيوانات . ويلجأ هؤلاء الاطباء في علاج العصاب الى العقاقير والتنويم وبعض أساليب العلاج الطبيعي ، وبعض الأساليب النفسية (كالراحة والايحاء وتغيير العمل والبيئة) .

ويختلف عدد كبير من أطباء أمريكا وأوروبا مع

العلماء السوفييت فى هذا الموقف • ومع أن الدكتور عكاشة يعالج العصاب أيضا بالعقاقير الا أنه يضع العلاج النفسى والعضوى على مستوى واحد من الأهمية • وقد كنا نود أن يفرد المؤلف فصلا واسعا عن الطب العقلى فى الاتحاد السوفيتى كما فعل فى كتابه الذى ألفه باللغة الانجليزية عن « أساليب الطب العقلى » Essentioas pfpscychiatry ولكن جاء كتابه الحالى خلوا من اى اشارة الى الطب العقلى والنفسى فى الاتحاد السوفييتى •

محاولة لنشأة الطب النفسى المصرى

٣ـ يعتبر الدكتور عكاشة كتابه « محاولة لنشأة الطب النفسى المصرى نابعة من طبيعة الثقافة والبيئة المصرية مستخدما جميع الابحاث المحلية مستعينا بكل النظريات العالمية فى أسباب وعلاج هذه الامراض » (مقدمة الكتاب) • وبذلك نرى أن للمؤلف موقفا واضحا من قضية تأثير البيئة والمجتمع فى المرض النفسى والعقلى • ويبدو ذلك جليا فى الاحصاءات المحلية والمقارنة الهامة التى أوردها المؤلف فى كتابه ومن تقريره بوضوح أن من أسباب الامراض العصابية «العوامل الحضارية والعوامل النفسية والاجتماعية الحالية» (ص ٢٠) ويهتم الدكتور عكاشة بمرض الفصام بالذات ويعتبره من أخطر الامراض التى تهدد اقتصاد الوطن فيقرر أن نسبة الاصابة بهذا المرض فى ج٠ع٠م تبلغ حوالى ٤/١ مليون نسمة أى من ٨٥ر٠ الى ١ فى المائة من عدد السكان وهى نسبة خطيرة خصوصا اذا أخذنا فى الاعتبار أن هذا المرض يصيب الفرد فى سن الشباب والنضوج مما يجعل الفصام ظاهرة تؤثر على الناحية الاجتماعية والاقتصادية الى جانب كونه ظاهرة مرضية • كما يهتم المؤلف بالطب العقلى المقارن ولعل هذا أساس دعوته لانشاء طب نفسى مصرى يأخذ فى الاعتبار أثر البيئة المصرية على وجه الخصوص فى تسبب وتكوين أعراض الأمراض النفسية والعقلية •

وهو فى هذا يتفق مع الكثيرين من علماء الطب العقلى المعاصرين الذين أوردوا فى مؤلفاتهم زيادة نسبة الظواهر المشابهة للفصام فى العصر الحديث (**معتبرين أن الفصام ليس مرضا بعينه وانما هو عبارة تشخيصية عامة تطلق على مجموعة من الأمراض العقلية**) • ولقد لوحظت هذه الزيادة بشكل خاص فى البلاد التى دخلت مضمار الحضارة الحديثة بخطى سريعة وحيث تضمنت التحولات الاجتماعية تغيرات سريعة فى النظرة العامة الى الانسان • ومن المعروف أيضا أنه فى ظل ظروف اجتماعية ـ حضارية غير عادية يتغير محتوى الامراض العقلية بل وأعراضها الاساسية • فنجد مثلا أنه فى الولايات المتحدة الامريكية تزداد نسبة الهلاوس بين مرضى الفصام من الزنوج عنها بين البيض ، بينما نجد أن الهزاعات موجودة بنسبة واحدة لدى الاثنين • وتتضح أهمية العامل الاجتماعى من حقيقة أن مرضى الفصام من الزنوج فى مدينة مثل شيكاغو يبلغ عددهم اربعة أضعاف المرضى من البيض • ومن هنا تتضح أهمية عمل الدكتور عكاشة الذى زود كتابه بالعديد من الاحصاءات التى استخرجها من بحوثه على البيئة المصرية ومن بحوث مقارنة بين المرضى فى مصر وغيرها من بلاد أوروبا وافريقيا • وكذلك دعوته الى اجراء بحوث على العقاقير المستعملة فى العلاج وفقا لما أسفر عنه البحث من أن كمية هذه العقاقير تختلف عند الاستعمال حسب البيئة والمناخ والصحة العامة التى تختلف من بلد لآخر •

ولا شك أن المراجع الكبرى فى الطب العقلى مثل كتب ماير ـ جروس ، وبلويلر ، وجروهل ، وكريبلين هى مراجع ألفت فى ظل الحضارة الاوروبية الغربية ، ومع أن الاضطرابات العقلية لم تبحث بعد على نطاق واسع من وجهة نظر تغير العلاقات الاجتماعية فانه من الواضح أن للمجتمع اثرا مرضيا مرنا على الاذهان ، اذ لا يمكن عزل الانسان عن تاريخه الحضارى • ومنذ القدم اتخذ ديموقريطس وأبيقور ولوكريتس الموقف القائل بأن سلوك الانسان وافكاره ومشاعره تتكون عن طريق المجتمع الذى يعيش فيه • بينما قال أفلاطون وارسطو على العكس ، أن الطبيعة الانسانية فطرية ، واعتبر أفلاطون هذه الفطرة هبة الهية بينما اعتبرها أرسطو تكوينا بيولوجيا • ولازال الصراع بين النظريتين مستمرا الا أن الميزان بدأ يميل منذ ظهور النظم الاشتراكية الى جانب تأثير المجتمع على الانسان فى سوائه وفى مرضه وبحث مدى هذا التأثير ودوره • ويعتبر مجال الطب العقلى من المجالات الحديثة التى أخذت هذه النظرة تغزوها مؤذنة ببدء ثورة جديدة الى جانب الثورة العقاقيرية فى مجال علاج الامراض النفسية والعقلية •

ان كتاب الدكتور عكاشة يزودنا بنظرة علمية حديثة فى ميدان الطب العقلى والنفسى كنا نفتقدها وهو خطوة على طريق طويل نرجو أن يوصلنا الى ما فيه خير الوطن والعاملين فيه •

لطفى فطيم

> لا يستطيع المؤرخ أو الفيلسوف أن ينفصل عن عصره، ولا يملك إلا أن يكون بعيدًا عن زمنه ومرآة له، وأقصى ما يطمح فيه المؤرخ أو الفيلسوف هو أن ينطق بلسان جيله، أن يصوّر أزمته، أن يخاطب ضميره، أن ينبه، ويوقظ، ويثير.



ف . هيجل

خواطر في فلسفة التاريخ

د. عبد الغفار مكاوي



أ . توينبي

هبط الانسان على سطح القمر مرتين .

وكان من حظنا – نحن ابناء هذا الزمان – أن نشهد تجربة رائعة ومخيفة فى آن واحد رائعة لانها لاتقل فى معناها من غزو المحيطات فى القرن الخامس عشر أو اكتشاف القارة الجديدة أو الوصول الى القطبين أو الطيران فى الفضاء . ومخيفة لان هذه الانتصارات كان لها أثر كبير على حياة البشر ، اذ وسعت المجال الذى يعيشون فيه ويتنفسون ويزرعون ويحصدون ويستمدون الطاقة والغذاء – بينما الهبوط على القمر لايمثل حتى الآن اكثر من انتصار علمى لاندرى هل ستكون نتيجته خيرا او شرا على الانسانية . ومن سوء الحظ أن الجهاز الضخم الذى تولى اطلاق الصاروخ والمركبة القمرية لم يرسل مع روادها شاعرا ولا فيلسوفا ليعبر لنا عن عواطفه وافكاره وهو يخطو على سطح ذلك الكوكب الهادىء الشاحب الجميل ! ومع ذلك فلاشك عندى ان رواد الفضاء سالوا أنفسهم وهم يطأون باقدامهم ارض القمر عن مصير ارضهم وجنسهم الذى يعيش ويتصارع عليها .

ولاشك عندى أيضا انهم فى قمة فرحتهم واعتزازهم بهذا النصر العلمى قد سالوا أنفسهم بشكل واضح أوغامض هذا السؤال الذى يؤرق زميلا لهم على الارض يشغل نفسه بالتاريخ وفلسفة التاريخ : **ماذا بعد ؟ والى اين يسير العالم ؟!**

والسؤال يرتبط بتاريخ البشرية العام ، بهدفه ومصيره ومعناه . وليس أحق منا – نحن ابناء القرن العشرين الذين الذين نعايش صراعا عالميا لم يسبق له مثيل ، ونشهد كوارث عالمية حقيقية أو نتوقع كوارث أخرى لم يسبق لها مثيل ايضا – ليس احق منا بطرح هذا السؤال الذى يتصل بمستقبل الجنس البشرى على الارض . والكلام عن تاريخ البشرية العام ليس مجرد كلام عن «يوتوبيا» خيالية أو فرض علمى جذاب او حلم جميل عن السلام . انه ينبع من شعور عام يشترك فيه العالم والمؤرخ مع رجل الشارع الذى يقرأ الجريدة اليومية أو يسمع الاخبار كل صباح ومساء . ففى الوقت الذى بلغ فيه العلم والتقنية (التكنيك) ذروتهما ، وتطورت سرعة المواصلات ونقل الانباء الى حد مخيف ، وتكاثر عدد السكان حتى وصل أو كاد الى درجة الانفجار ، وازداد فى مقابل ذلك ضحايا الجوع أو المهددين به فى وقت قريب أو بعيد ، ووصلت الحرب الباردة او الساخنة الى مازق لايدرى احد كيف يكون المخرج منه ، وتعددت التجارب النووية حتى صارت اخطارها حديث كل يوم ، وبلغ تأثير الاعلام والدعاية النفسية وغسيل المخ درجة تنذر بالقضاء على شخصية الفرد وقدرته على النقد واستقلال الرأى ، وكثر كذلك الكلام عن واجب التربية والمربين وأصحاب العلوم الانسانية فى انقاذ حرية الانسان وخلقه وتراثه أمام هذا الطوفان – **فى هذا الوقت المضطرب العصيب يزداد شعور البشر بطبيعة الحال بارتباط مصيرهم على هذه الارض ، وتصبح مسالة البقاء أو الفناء مسالة يطرحها الناس على أنفسهم كل يوم كما قلت – سواء فى ذلك العالم الذى يشترك فى صنع وتصميم القنابل والصواريخ ، أو الخباز الذى يصنع رغيفنا اليومى ، أو الام التى ترضع طفلها الصغير ، أو المفكر الذى يسال عن معنى التاريخ** . ان هذا المفكر يعلم انه يجب عليه أن ينظر في الماضى والحاضر والمستقبل – **لا** لكى يخرج بفلسفة أو نظرية جديدة ، بل لكى يوقظ الوعى بالاخطار التى تهدد الناس ، ويجعل من السؤال عن معنى التاريخ العام مسألة تهم كل الذين يعيشون معه . انه يجمع لهم حقائق الماضى ويعرض عليهم أزماته وكوارثه ليفكروا معه فى مخرج من الموقف الحاضر : هل يكون فى عقيدة واحدة أو فكر واحد او حكومة عالمية واحدة ؟ هل يكون فى مجتمع أخير تنتهى فيه كل تناقضات المصالح والطبقات كما قال **ماركس** ، أم فى الوصول الى الشمول والتكامل الذى تهدف اليه كل تربية انسانية صحيحة كما قال **شيلر** وغيره من أصحاب النزعة المثالية ؟ – وليس الحل هو المهم ، لان وظيفة العلماء ليست هى ايجاد الحلول ، بل المهم هو ايقاظ الضمير على وحدة البشر – وحدتهم من حيث الطبيعة والعقل ، وحدتهم الباقية وراء اختلاف الديانات والحضارات والاجناس والمذاهب والالوان . وحدتهم من حيث النوع البشرى نفسه ، الذى لاتشغله الآن مشكلة واحدة : **هل يبقى أم يفنى ؟ هل يوجد او لا يوجد ؟**

بين التاريخ والفلسفة

الى اين يسير العالم ؟

سؤال ينصب على المستقبل . والمستقبل ابن الحاضر. والحاضر لايفهم الا من لحظات اخرى كانت حاضرة ثم انقضت أى من الماضى . فلنرجع اذن الى الوراء قليلا (وهو قليل بالنسبة لعمر الحياة بل لعمر الانسان نفسه على الارض!)

«كل تاريخ فلسفة ، وكل فلسفة تاريخ» . عبارة قالها **هيجل** ولكن اليس من التهور أو الطموح الشديد ان نبدأ بهيجل ؟ فلنكن اكثر تواضعا ، ولنحاول أن نبدأ من البداية ، من الجذور .

ليست **«فلسفة التاريخ»** بالكلمة القديمة . انها ترجع للقرن الثامن عشر ، وتنسب فيما أعلم **لفولتير** . غير أن الموضوع التى تدل عليه أقدم من ذلك بكثير . وان شئنا الدقة قلنا الموضوعات ، لان الكلمة توحى بأكثر من معنى وأكثر من قضية .

ما من أحد يتصدى لكتابة التاريخ لمعاصريه أو للاجيال اللاحقة الا ويفعل ذلك عن قصد أو غير قصد فى اطار فلسفة معينة . ومهما حاول أن يكون علميا وموضوعيا فى تقريره للحوادث ، فلابد أن يواجه اسئلة ومشكلات تتجاوز حدود

العلم ، أسئلة ومشكلات عامة بطبيعتها ، لايمكن الاجابة عليها اجابة قاطعة ، ومع ذلك فلابد من مواجهتها لفهم التاريخ وموقف الانسان : **ما الصدفة وما الضرورة ؟ هل هناك قوانين تحكم التاريخ ، هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أيمكن التنبؤ بالاحداث قبل وقوعها ؟ ماأثر الدور الذى قام به بعض الافراد وهل ننسبه اليهم أم الى عصرهم ؟ الى أى مدى يمكننا أن نقارن عصرا بعصر وتطورا بتطور ؟ ماالحرب ؟ ماالثورة ؟ ما الازمات ؟ كيف يؤثر الاقتصاد والحضارة والاديان والسياسة على مساد التاريخ وكيف تؤثر هذه القوى على بعضها البعض ؟** – أسئلة كثيرة لايستطيع المؤرخ أن يتجنبها . ولانه لايستطيع أن يتجنبها فلابد ان يجد نفسه على حدود الفلسفة . ولانه لايريد أن يصبح فيلسوفا بل يحب أن يظل مؤرخا فلابد أن يجد نفسه على حدود فلسفة التاريخ ..

وهو يفلسف التاريخ أيضا كلما أعاد النظر فى منهجه ، وكلما سأل نفسه : **ماذا يمكننى أن أعرف وبأى طريقة أعرفه ؟ ماذا أستطيع أن أعرف على وجه اليقين وماذا يخرج عن هذه المعرفة ؟ ما الذى يستحق أن أبحث عنه وما الذى لا يساوى جهد البحث ؟** – أى كلما وضع علمه كله موضع السؤال وحاول أن يقيمه على أساس وطيد . قد نستطيع أن نسمى هذا نظرية المعرفة فى علم التاريخ – ونظرية المعرفة فرع من فروع الفلسفة " ومعرفة التاريخ أو نقده شىء لم يقم به الفلاسفة المتخصصون وحدهم – مثل **هيجل وديكارت** وكروتشه – بل قام به كذلك كثير من المؤرخين .

وأخيرا نصل الى المعنى المألوف من فلسفة التاريخ . **انها مجموعة من الآراء والأفكار التى تتأمل تاريخ الانسان ككل ، سره الخفى ، سياقه ، حركته ، قوانينه ، القوى التى تتحكم فى سيره .** بهذا المفهوم تكون فلسفة التايخ فلسفة بالمعنى الدقيق ، فكرا يتأمل الانسان والعالم – **لا** لاجل التأمل المطلق ، بل لان تاريخ الانسان أو وجوده فى الزمان وتغيره وتطوره عنصر أساسى في بناء كيانه . من هنا يصبح لفلسفة التاريخ معنى شامل . ومن هنا نجدها تنشأ غالبا فى عصور القلق والازمات والاضطرابات . انها تريد عندئذ أن تفهم الحاضر – سواء اعترفت بذلك صراحة **او** لم تعترف به – ربما حاولت أيضا أن تتنبأ بالمستقبل لكى ترجع الى الماضى كله لتسأله عن متاعب هذا الحاضر – وما الحاضر الا ابن ذلك الماضى . هكذا فعل هيجل ، وفلسفته فى التاريخ أعمق الفلسفات وأغناها . لقد رأى عصره – عصر الثورة الفرنسية ونابليون يمر بأزمة لم يسبق لها نظير . واستنتج من هذه الأزمة نتائج طبقها على الماضى كله ، **فكانت فلسفته فى التاريخ فلسفة الازمات .** ويصدق هذا على كارل ماركس **ويعقوب بورخارت** ، وكلاهما – على ما بينهما بالطبع من اختلاف – مفكر أزمات . كما يصدق أيضا على **أزفالد اشبنجلر** الذى وجد فى الحرب العالمية الاولى ازمة تشبه الازمة التى وجدها هيجل فى حروب نابليون . وقد يصدق نفس الشىء أيضا على **أرنولد توينبى** وما رآه فى حربين عالميتين . ولكنه ينطبق بالمثل على ذلك القديس الافريقى الذى نستطيع أن ننظر اليه نظرتنا الى فيلسوف للتاريخ ، على **القديس أوغسطين** . لقد شعر انه يحيا في عصر مضطرب حافل بالازمات الخطيرة ، ومن هذا الشعور نشأ كتابه المعروف عن مدينة الله .

هذه الاشكال المختلفة من فلسفة التاريخ يمكن أن تتداخل وتتشابك . غير أننا سنحاول أن نفرق بينها توضيحا للامور . **فالمؤرخ – طالما كان لهعقل وكان لديه الاستعداد لاستخدام هذا العقل ! – لابد أن يكون فيلسوفا للتاريخ .** وهو مضطر أن يفعل ذلك كما لمت سواء قصد اليه عن وعى أو لم يقصد اليه . انه يواجه بالضرورة مشكلات تتصل بفلسفة التاريخ ، ولابد أن يدلى فيها برأى . **هناك مؤرخون أصبحوا فلاسفة للتاريخ عندما وضعوا علمهم كله موضع السؤال ، أى عندما حاولوا أن يقيموه على أسس جديدة.** ثم هناك المؤلفات الكبرى فى فلسفة التاريخ ، أى التأملات النظرية فى معنى التاريخ وغايته ، أى ما يمكن أن نسميه **ميتافيزيقا التاريخ** .

ميتافيزيقا التاريخ

لننظر الآن نظرة سريعة فيما حققته فلسفة التاريخ منذ نشأتها الاولى وما فكرت فيه . ان كلمة التاريخ – مثلها فى هذا مثل كلمة الفلسفة – ترجع من حيث اللفظ والمضمون الى اليونان. فالتاريخ – أو الهستوريا – كلمة تدل على البحث والفحص والنظر . واليونان الذين وضعوا أسس الفلسفة الغربية هم كذلك الذين وضعوا أسس التاريخ . ومع ذلك فان اليونان لم يفهموا من التاريخ ما نفهمه اليوم منه ، بل لم يكن من طبيعة الفكر اليونانى أن يفهمه . والسبب انه كان يبحث دائما عن الوجود الخالد ، والحقيقة الخالدة ، والجمال ، والخير الخالدين ، **أى كان يبحث عن شىء لا يتغير ،** فى حين أن ماهية التاريخ ، أى ما يحدث فى الزمن ، هى التغير .. كان فى استطاعتهم أن يعرفوا الرياضة والهندسة **والاخلاق** – أما التاريخ ، هذا الذى يتغير ويتحول ويزول على الدوام ، فلم يكن فى استطاعتهم أن يعرفوه – ومن ثم فلم يكن في نهاية الامر جديرا بالمعرفة . قد يصعب علينا أن نتصور أن مفكرا عظيما مثل **افلاطون** لم يكن يهتم كثيرا بالتاريخ ولكن هذه هى الحقيقة. ان الدولة أو **الجمهورية** التى فكر فيها معزولة عن جيرانها بقدر ما هى معزولة عن التاريخ . تصور انها يجب أن تبقى كما هى او كما كانت فى تفكيره وفى محاوراته المشهورة ، وهو شىء يستحيل تصوره عن دولة تعيش فى التاريخ ولابد أن تتغير بتغيره .

وجاء **أرسطو** فكان أوفر حظا منه فى السياسة ، أو



ك . ماركس

كان – كما نقول اليوم وكما أراد هو لنفسه – أكثر واقعية من أستاذه . جمع فى كتبه مادة تاريخية غنية ، وقارن بين الدساتير المختلفة ، ونظر فى مزاياها وعيوبها كما يفعل اليوم أستاذ فى العلوم السياسية . ولكن **اهتمامه ظل منصبا على كل ما** يبقى ويدوم ويتكرر كأنه **قانون لا يتغير** ، ونظرته ظلت معلقة بالنظام الشامل المحدود المغلق على نفسه . وقل مثل هذا عن أعظم مؤرخى الاغريق ، وهو الاثينى **توكيديوس** الذى كتب عن الحرب البليبونيزية (التى دارت على ثلاث مراحل بين أثينا واسبرطة من سنة ٤٣١ الى ٤٠٤ ق.م) أروع تاريخ يمكن أن يخطه قلم . انه ينظر نظرات عميقة في النشاط السياسي لبنى الانسان ، فى الحروب والثورات ، فى الصراع بين الدول والأحزاب والطبقات ، فى الكفاح من أجل تحقيق التوازن او التسلط على الغير ، فى تأثير المصالح الاقتصادية على السياسة ودورها فى التفوق فى البر او البحر . وهو كاتب موهوب ، يملك القدرة على تصوير الناس والمشاهد فى صور حية تكاد نراها ونلمسها . ولكن هذا المؤرخ العظيم يبحث أيضا عما يبقى ويدوم ويتكرر . انه رجل يائس محدود الافق .. يروى لنا تاريخ الحرب البيلوبونيزية او الحرب العالمية اليونانية ، ويمر على ما سبقها مر الكرام . بل انه ليصرح بأنه لم يسبق أن وقع حادث يمكن أن يقارن بهذا الحدث الخطير . لذلك لم يواصل احد هذا التاريخ ، ولم يكن من الممكن ان يواصله أحد . انه كاللوحة التى لا تحتاج لمن يكملها ، لانها كاملة ومكتفية بذاتها ، هو أقرب الى «تاريخ معين» منه الى «التاريخ» . انه يرويه للاجيال المقبلة لكى تتهيأ لمواجهة تواريخ اخرى مشابهة قد تعرض لها . لان ما حدث بين أثينا واسبرطة سوف يحدث بين غيرها من المدن ويتكرر حدوثه ، طالما بقيت الطبيعة البشرية على حالها . وهل تتغير طبيعة البشر ؟ !

ان كانت هذه فلسفة تاريخ فهى فلسفة يائسة ، خالية من كل عزاء . بل هى لا تبحث عن معنى ولا امل ولا عزاء . لان التاريخ في نظرها يتساوى مع الطبيعة ، ولانها لا تجد فيه غير حلقات مملة متكررة ، الام وتوارث ، ميلاد ونمو وموت ، صراع من أجل الوجود ، غرور وانتقام واندثار .

هذه الافكار كلها تتردد فى العصر الحديث . فكتابات **شوبنهور** عن التاريخ لا تختلف كثيرا عن هذه المعانى ، وفهمه له لا يكاد يفترق عن فهم **افلاطون** . انه يشبهه فى ضعف احساسه بالتاريخ، وقلة اهتمامه به، وعدم ايمانه بقيمته أو جدواه . ما من جديد عنده ، فنفس الشيء يتكرر على الدوام .. والاختراعات التى اكتشفت فى حياته كالسكة الحديدية والبرق لم تغير من الامر شيئا . نفس الشيء دائما . شر كثير وخير قليل . نفس الشيء الى الابد ومنذ الازل . سواء اختلف فلاحان على قطعة ارض أو تنازع ملكان على دولة . سواء تعلق الامر بأثينا واسبرطة ، او بروسيا وفرنسا ، أو أمريكا وروسيا . من العبث أن نبحث فى التاريخ عن حقيقة او رجاء . نفس الرأى الذى قال به شوبنهور منذ مائة وعشرة سنة ، وتوكوديدس منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين سنة . وهو أيضا نفس الرأى عند الاغريق والرومان الاقدمين ، مع فروق قليلة ، صحيح أن الرومان أضافوا للوعى التاريخى أبعادا جديدة فى المكان والزمان. فقد امتدت حدود دولتهم من اسكتلندا الى شواطىء الفرات ، وأحسوا احساسا واعيا بتاريخ دولتهم الطويل ((منذ تاسيسها)) – مشروع جرىء ، لم يكن ليقدم عليه مؤرخ اغريقى ، بل لم يكن ليتصوره أو يفكر فيه ! – وصحيح أيضا أن اشبنجلر زعم أن الرومان لم يكن لديهم احساس بالديمومة أو البقاء ، ولم يكن يعنيهم الماضى ولا المستقبل ، وذلك على عكس المصريين القدماء . وقد يتفق هذا الزعم مع تصور اشبنجلر للتاريخ الحضارة بوجه عام ، ولكنه لا يتفق مع الواقع فى شىء . فالاهرامات قد بقيت حقا الى يومنا الراهن ، ولكن ألم تبق كذلك قبور الرومان ومعابدهم على طريق آبيا (الفيا أبيا) ؟ ألم تبق الاعمدة واقواس النصر التى شيدها القياصرة ؟ ألم تبق الكتابات والنقوش التى حفروها عليها ؟ – الرومان لا ينقصهم الاحساس بالبقاء ، ولكن ينقصهم شىء آخر .. شىء هو عكس البقاء تماما . ينقصهم الاحساس بالتغير ، بالتحول ، بالصيرورة ، بالجدة ، أى الاحساس بالتاريخ كما نفهمه اليوم . عجز الرومان عن فهم التاريخ ، عن ادراك التغير كقوة حقيقية. وعاش مؤرخوهم وسياسيوهم الكبار – مثل **بوليبيوس وشيشرون وسالوست وليكيوس وتاسيتوس وبلوتارك** – فى عصور شهدت تغيرات حقيقية ولكن كان التغير فى رأيهم

معناه التدهور والخطر والفساد، والعصر الذهبي لا وجود له الا في الماضي . واحياء العادات والنظم القديمة التى اسسها الآباء هو واجب المؤرخ ورجل السياسة . كانوا محافظين في تفكيرهم . وحتى لو لم يكونوا كذلك في قرارة نفوسهم ، فقد كانوا يؤكدونه في خطبهم وكتاباتهم — **هكذا حاول اغسطس ان يصور أعماله بانها بعث للماضي واحياء للقديم** — وان خالهم الشعور مرة بانهم يعيشون في الحاضر أو في عصر يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ، فهو الشعور بأن الزمان فاسد ، والعالم متدهور . يستوى في ذلك أن نسمع الشكوى المريرة في كتابات تاسيتوس ، أو نجد الشك والارتياب في أعمال **سالوست** . هكذا صارت الاحوال ، صار الحاضر (السيكولوم) فما أعظم الفرق بينه وبين الماضي السعيد ! لم يخطر على بال الرومان أن التغير ليس دائما دليلا على التدهور والفساد ، أو انه ليس شيئا يدعو للاسف والبكاء في كل الاحوال لم يدركوا ان التغير هو جوهر التاريخ ، وانه قد يحمل في أحشائه التطور والتقدم والامل .. تلك فكرة ظلت غريبة عن الرومان . نحن نختلف الآن عنهم في احساسنا بالتاريخ ، واستعدادنا للتغير ، وقدرتنا على التكيف .. وما أكثر ما تمكن السياسيون في العصر الحاضر من مواجهة التغيرات الحاسمة الحكمة ، والتخلى عن النظم القديمة أمام الواقع الجديد **(تحول الامبراطورية الى ما يسمى الآن بالكومونولث من أوضح الامثلة على هذا)** . أما الرومان فقد عجزوا عن هذا التكيف . لذلك انهارت الجمهورية الرومانية القديمة ، وسقطت الدولة الدستورية ، اعتقد الجمهوريون انهم يستطيعون أن يحكموا الدولة الواسعة المترامية الأطراف على أساس دستور دولة المدينة الصغير. بل ان الدكتاتورية العسكرية التى اقامها القياصرة ظلت تتدثر بالرداء الجمهورى القديم . أما الجديد (الريس نوفا) فقد ظل بالنسبة اليهم شيئا محرما ، شيئا غير جائز ولا مشروع .



شوبنهاور

مع هذا كله فقد اخرجت روما عددا من أعظم كتاب التاريخ . وليست عظمة هؤلاء الكتاب في أنهم عرفوا ماهية التاريخ والتطور ، بل في قدرتهم الرائعة على التصوير المعبر الحي ، والاسلوب المؤثر الدقيق ، في الرواية الموجزة الكاملة عند سالوست ، وفي العرض النفسي المتشائم العميق عند تاسيتوس . انظر الى هذه العبارات التى لا يقدر عليها الا كاتب عظيم : **((ما من احد توصل الى السلطة بالوسائل الشريرة ثم استطاع ان يستخدمها في الأهداف الخيرة)) ، ((من طبيعة القلب البشرى أن يكره من الحق به الظلم))** — ما من مؤرخ حديث استطاع أن يكتب عن الطغيان بأصدق ولا أروع من تاسيتوس ، ومع ذلك فكم من مؤرخ حديث تفوق عليه وهو أقل منه شأنا . والسر بسيط : **ان المحدثين يحسون بالتحول في الزمن ، بالتغير ، بالاستمرار ، بالتفرد ، وكلها اشياء غريبة على الرومان .**

المسيح والتاريخ

هذا الاحساس ، هذه الفكرة ، جاءت الى العالم الغربي عن طريق المسيحية . وصلت اليها عن طريق العهد القديم ثم تأكدت في العهد الجديد وظلت زمنا طويلا تحتفظ بطابعها الديني . واصبح العالم يؤرخ للزمن بظهور المسيح . وما زلنا نورخ له اليوم ونحن في بداية سنة ١٩٧٠ . **فظهور المسيح أعطى للتاريخ معنى ، خلع عليه نظاما لم يكن يعرفه في العصور القديمة .** صارت السنون تحسب بين ظهور المخلص للمرة الاولى وظهوره للمرة الثانية . أصبح الزمن الذى امتد قبل ظهوره هو زمن الأمل والوعد والانتظار . أما الرومان فكانت طريقتهم في حساب التاريخ أن يسموا السنين بأسماء الماجستيرات والقناصلة ، وكم كانت طريقة معقدة !

فرق كبير اذن بين التاريخ عند الرومان وبينه بعد ظهور المسيحية . **صحيح ان الوعى التاريخي في ظل المسيحية كان له وجهان مختلفان . كان هناك من آمن بان أفعال الانسان واحداث العالم لا أمل فيها ولا نجاة — فالقديس أوغسطين مثلا ومن بعده البابا جريجور السابع بستة قرون يحتقران الدولة والسلطة أشد الاحتقار — ولكننا لاندرى على وجه اليقين ان كانت المملكة الأخرى ، مملكة الله او مدينته ، ستتحقق في رايهما على الارض ثم في عالم آخر .** وكان هناك الوجه الآخر . فالمسيحية هي التى جعلت لفكرة الزمن قيمة وشأنا ، هي التى جعلت التاريخ وكتابة التاريخ أمرا ممكنا . لا تاريخ مدينة أو دولة فحسب ، بل تاريخ العالم ، تاريخ البشرية . **((على الارض السلام وبالناس المسرة))** . هكذا كانت بشارة الملائكة .

السلام على الأرض ، والمسرة والمحبة للناس أجمعين.

لا لشعب من الشعوب أو دولة من الدول فحسب . هكذا كان أيضا رأى فلاسفة القرن الثامن عشر ، هؤلاء الذين انفصلوا عن التراث المسيحى ، وراح بعضهم – مثل **فولتير وكوندورسيه** – يهزأون بالكنيسة ويناصبونها العداء . المهم أن التأمل فى التاريخ ككل ، في منشأة وحركته وهدفه ، صار أمرا ممكنا بعد المسيحية ومن بعدها الاسلام ولم يزل كذلك الى اليوم (والكتابة عن تصور المؤرخين المسلمين لفكرة الزمن يستحق دراسة مستقلة من القادرين عليها) .

تطور الوعى التاريخى

بلغ الوعى التاريخى ذروته الأولى فى أوروبا فى القرن الثامن عشر . أراد الانسان أن يعرف مكانه فى التاريخ أراد أن يفهم الى أين تسير البشرية . حاول أن يعرف سر الأحداث التى تجرى حوله : كيف أصبحت فرنسا قوة ضخمة ، كيف ظهرت روسيا على مسرح السياسة الأوروبية ، كيف توغل الأوروبيون فى العالم الأمريكى ، كيف نشأ النظام البرلمانى فى انجلترا . من هنا الاقبال على دراسة التاريخ الرومانى – مونتسكيو وجيبون – من هنا الاهتمام بدارسة الحضارات الغربية البعيدة كالحضارة الصينية . ومن هنا الخلاف الذى بدأ في القرن السابع عشر : **لمن التفوق ؟ للاغريق والرومان أم للمحدثين؟** – وأخيرا هذا النشاط الهائل فى جمع الوثائق وتفسير الوقائع التاريخية بشكل لم يسبق له نظير . وكم يدهشنا اليوم أن ننظر فى التاريخ الذى كتبه فولتير عن عصر لويس الرابع عشر .. **لم يقتصر هذا الكاتب الكبير على تدوين تاريخ سياسى ، بل راح يضيف اليه التاريخ الحضارى والسياسي ويربط بينها جميعا .**

صحيح أن فولتير – ومعه عدد كبير من معاصريه – قد وقفوا من الماضي موقف الرفض والاحتقار . كان من رأيهم أن ساعة الانسانية الحقة قد بدأت أو ستبدأ فى مستقبل أفضل . ولكنهم وجدوا أنفسهم مضطرين الى معرفة الماضى معرفة تامة لكى يستطيعوا التحرر من خرافاته وأنظمته الباليه . لذلك فقد يدهشنا أن هؤلاء الكتاب الثائرين قد أسهموا فى تجميع قدر كبير من المعلومات والحقائق التاريخية الحية ، على الرغم من ازدرائهم للعصور الوسطى المسيحية وتجنيهم عليها بصورة تبدو لنا اليوم ظالمة بعيدة عن الانصاف .

على أن غرورهم واحتقارهم للماضى لم يبق بغير أثر . فاذا كان فولتير قد أسرف فى السخرية بالعصور المظلمة وخرافات رجال الدين ، واذا كان العصر الوسيط لم ينج من هجوم رجل حكيم مثل **كانت** الذى وصفه بأنه « **ضلال غير مفهوم العقل البشرى** » – فقد كان هناك من انصف الماضى وأحس بقيمته وجماله . كذلك فعل **جوته** فى شبابه وكذلك فعل الرومانتيكيون الانجليز . من هذه الاتجاهات المتعارضة المتباينة من حركة « **عصر التنوير** » التى أسرفت فى ثقتها بالعقل وفي عدائها للماضى، من الحركة الرومانتيكية التى أحبت ذلك الماضى وعكفت على احياء أدبه وجمع تاريخه ،، ومن الاحداث الهائلة التى اضطرب بها العصر : انتصارات بروسيا على عهد فردريك الاكبر ، حصول أمريكا على الاستقلال ، الاصلاحات التى تمت فى النمسا ، وأخيرا تلك الكارثة الرائعة – الثورة الفرنسية – من هذا كله انبثق عدد كبير من المؤلفات فى فلسفة التاريخ حددت الوعى التاريخى الاوروبى فى العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، نذكر منها كتاب «**هردر**» أفكار فى فلسفة تاريخ الانسانية ، ومقال **كانت** « أفكار عن تاريخ عام من وجهة نظر عالمية ، ورسالة « **شيلر** » معنى التاريخ العام والغاية من دراسته ،، وأخيرا أعمال ذلك الرجل الذى عرف هذه المؤلفات كلها وأفاد منها وحقق فى فلسفة التاريخ شيئا لم يسبق اليه وقد لا يلحق فيه – ونعنى به هيجل .

كل هؤلاء المفكرين يتفقون فى ايمانهم بمعنى التاريخ وبرسالة الانسانية . ومع أنهم يختلفون في موقفهم من المسيحية ، فلولا التراث المسيحى **لما كان من الممكن أن يصلوا الى** هذا الايمان **ولا الى هذا الوعى التاريخى انهم جميعا** – وهردر يقل عنهم بعض الشئ – **يعتقدون أن** الحضارة الاوروبية هى **الحضارة التى ألقى عليها القدر** العبء التاريخى الاكبر ، **وهى التى ينبغى أن تنهض به فى المستقبل .**

مشروع للسلام الدائم

فى سنة ١٧٨٤ ألف « كانت » مقاله الرائع السابق الذكر «أفكار عن تاريخ عام من وجهة نظر عالمية **(وقد ترجمه أستاذنا عبد الرحمن بدوى)** ثم عالج الموضوع بصورة أوسع فى كتابه عن السلام الدائم **(وقد ترجمه أستاذنا عثمان أمين)** . والمقال والكتاب يتناولان مشكلة التاريخ البشرى العام ، ويبدو أن شيئا غريبا لا يكاد الانسان يصدقه أنه صدر عن مفكر وحيد وبعيد عن صراع المصالح ومشكلات السياسة والسياسيين فى عصره ! ولكنهما مع ذلك يبدوان لنا اليوم معاصرين الى أقصى حد ، حتى ليوشك الحكيم الطيب العجوز الذى لم يغادر مدينته كونجسبرج أن يكون قد تنبأ مشكلتنا الكبرى التى نعانى منها صباح مساء ... ويقوم المقال والكتاب على افتراض – لا مجرد حسن نية ! – **ان الانسان قادر على أن يصل بنفسه الى الكمال الذى تحدث عنه شيلر والمثاليون الانسانيون من قبل ، كما يقوم على الثقة فى الانتصار النهائى للانسان باعتباره الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يحكم عقله .** اقترح كانت فى مقاله أن يكون الهدف من تاريخ الانسانية هو تحقيق الانسان نفسه بكل ملكاته ومواهبه النبيلة ، فى ظل اتحاد أو عصبة أمم ، والغاية كبرى هى ضمان سلام دائم منظم وطيد الاركان . ولا تتحقق

هذه الغاية الا اذا توفرت للانسان فكرة عن ماضيه بالمعنى الشامل الذى لا يقف عند حدود الامم والجماعات . وكانت يمهد لهذا التاريخ حين يبين الخط الصاعد الذى سار فيه العقل الانسانى الى مزيد من الوضوح ومزيد من الانجازات العلمية .

غير أنه يلاحظ – في حزن لا يستغرب من الحكماء ! – أن هذا التطور فى الحضارة والمدنية لم يصاحبه تطور فى الضمير والاخلاق – نفس العلة التى نشكو منها اليوم وتكاد تدفع بالبشرية الى حافة الهاوية ! ولذلك فان واجب الانسان فى المستقبل هو الوصول بالاخلاق الى مستوى العلم ،، والا جاء اليوم الذى تضطره فيه الطبيعة أو على الاصح يضطره التاريخ الى شىء كان من الممكن أن تعلمه اياه الاخلاق أو العقل العملى كما يسميه . اى يأتى اليوم الذى تتطور فيه أساليب الحرب المهلكة الى الحد الذى تجد فيه الدول نفسها أمام اختيار واحد لا مناص منه ، **فاما فناء الحضارة وانتحار البشرية جمعاء ، أو تنظيم الدول ذات السيادة على أساس العقل فى عصبة أمم ترعى السلام العالمى .**

ولكن ما هو موقف كانت من عذاب البشرية المتصل على مر التاريخ ؟ ما رأيه فى الكوارث والازمات التى ألمت بها ، وألوان الخراب والدمار التى لم تكف عن تدبيرها لنفسها ؟ – الجواب انه ينظر الى الانسانية « **ككل** » ، بحيث تبدو كل الكوارث والازمات أشياء مؤقتة أو محلية . أما التقدم والتطور – تقدم العقل وتطوره – فهو ثابت ومستمر ، بل ان العناية الالهية قد شاءت أن تكون ألوان الدمار والعذاب التى عانتها الانسانية وسائل الطبيعة الذى يصل بها الى التبصر والتعقل ، لا بل تفرضها عليها فرضا . **ولكن هل تقطع هذه الثقة فى العقل كل أسباب الشك واليأس ؟ هل صحيح ان الانسان يتطور وينضج جيلا بعد جيل ؟ وما العمل اذا احتكم لغريزته الاصلية كما فعل فى كل العصور ؟ ما العمل اذا كانت الهوة لا تزال سحيقة بين العلم والسلوك ، بين العقل والضمير ، بين التكنيك والاخلاق ؟** الغريب أن هذه الشكوك ليست جديدة . لقد ثارت في نفوس الناس فى حياة كانت . ففى سنة ١٨٠٠ رد احد الصحفيين من أهالى برلين ، ويدعى **فريدريسن جنس** ، على كانت بكتاب من تأليفه سماه « **عن السلام الدائم** » ، وحاول أن يرد فيه على تفاؤله فقال بالحرف الواحد : « **.. وحتى لو استطاع الجنس البشرى بأسره أن يصل الى كمل دستور شرعى بين أعضائه ، فان المادة العدوانية الكامنة فى الدوافع الغريزية الغلابة سوف تزعج هذا النظام فى كل لحظة ، وسوف تبقى على التناقض الابدى بين قانون العقل الذى يوحى دائما بالسلام ، وبين قانون الطبيعة والفطرة الفجة الذى يريد الحرب على الدوام** » .

هذا التناقض القائم بين العقل والطبع ، أو بين العلم والخلق مسألة قديمة ، وان كان وعينا بها اليوم قد ازداد حدة . وتاريخ الحضارات المعروفة ليس فى الحقيقة الا سجلا عامرا بالضعف والتهور والكذب والشر والاضطراب . وليس هذا كله كامنا في الطبيعة أو الغريزة الفطرية وحدها كما يقول الصحفى البرلينى ،، بل المشكلة أن «**الدودة**» كامنة فى العقل نفسه منذ البداية ! ... مهما يكن من شىء فلايسع المتأمل للظروف التى نمر بها اليوم الا الاعجاب بهذه الفكرة التى تعد من أعمق وأصدق ماعبر عنه حكيم كونجسبرج الطيب العظيم ..

الاحساس الدرامى بالتاريخ

فاذا انتقلنا الى «شيلر» وجدناه يسير فى أفكاره التاريخية فى نفس الخط الذى سار فيه «كانت» . لقد كان فى شبابه اشد حماسة من هذا «الحكيم العالى» كما كان يسميه فى نظرته الى الحاضر السعيد . بل كان من رأيه أن الماضى كله لم يكن له هدف الا الوصول الى هذا الحاضر المنعم بالحرية والكرامة والامل ! فلما بدأ يكتب التاريخ بنفسه بدلا من الاكتفاء بتأمله من بعيد – شغله الواقع الحى عن فكرته الكانتية الاولى ، وأخذ يصور الناس والاحداث كما كانوا فى الواقع ، دون أن يعنى نفسه بالاهداف والنتائج البعيدة . لم يكن كانت مؤرخا . **أما شيلر فكان يملك الحاسة الدرامية القوية بالتاريخ** ، بالصراع الرهيب بين الدول ، بالعواطف الرفيعة أو الوضيعة التى تتحكم فى الافراد . وربما استغرقه هذا الاحساس الدرامى بالماضى فأنساه تأملاته المثالية ، في التاريخ العام . ويكفى أن تقرا مسرحياته التاريخية – وفى مقدمتها ثلاثيته الكبرى عن **فالنشتين** – لنعرف أنه شاعر التاريخ الاكبر بغير نزاع .

تاريخ العنف والقسوة

كذلك كان هيجل مؤرخا أصيلا ، يملك النظرة الناقدة التى تلم بحقيقة الدولة الحديثة وتميز بين روح عصر وعصر واذا كانت المثالية والواقعية لاتجتمعان دائما عند شيلر – فكثيرا ماانسى تأملاته الفلسفية كما قدمت فى غمرة انشغاله بالوثائق والوقائع – فقد تلاقى الجانبان تلاقيا تاما عند هيجل ، **وكان المثال والواقع عنده شيئا واحدا** . ولعل هذا هو سر شروعه التاريخى والفلسفى الهائل الذى يأخذ النفس بطموحه وروعته ،، كما يحيرها بطموحه وتعقيده .

تاريخ العالم فى رأى هيجل هو تاريخ العنف والقسوة .

واذا كانت قد مرت به عصور عرف فيها السعادة والأمن والسلام ، فان هذه العصور لا تهم فيلسوف التاريخ فى شىء . ان عصور السعادة هى أوراق التاريخ الجافة الذابلة اما أوقات الرعب والهول ، الحروب والثورات ، آلام الوضع ومتاعب النمو ، عذابات الاحتضار فى تاريخ شعب أو حضارة – أما هذه فكانت هى المعقول ، كانت هى الفكرة فى تحققها .

سار تاريخ العالـم دائما بمقتضي العقـل . وكانت النتيجة دائما هى الصواب ـ انتصر من يستحق الانتصار ، واندثر من وجب عليـه الاندثار . القوة والحق هنـا شيء واحد . العقل والواقع نفس الشيء .

كل أشكال السلطة والحكم والحضارة عاشت فترة من الزمن ثم اختفت من المسرح عندما آن أوان اختفائها . كان المؤرخون وفلاسفة التاريخ الأوربيون قبل هيجل يعتقدون فى وجود أزمة واحـدة كبيرة، مرت بهـا الانسانية الحديثة وتحررت واعتقد هيجل أيضا بوجود هده الأزمة ، وتأثر اعمق التأثر بأحداث الثورة فى أمريكا وفرنسا غير انه عمم هـذه الفـكر الجديدة عن أزمة التاريخ على الماضى كله . **فالتاريخ عنـــده هو تاريخ الأزمات ، سواء أكانت ازمات سياسية أو عقلية او اخلاقية .** من خلال كل ازمة ، وكل ثورة ، وكل اندحار أو اندثار احدى الحضارات لترتفع مكانها حضارة جديدة بلغ العقل البشرى او العقل الكلى درجة أعلى »، والنتيجة أن العقـل قد بلـغ الآن ـ اى في عصر هيجل ! ـ أعلى درجة فى تنظيم الدول الأوربية ـ فى الدولة الدستورية أو الدولة الليبرالية التى لم تصل بعد الى الديموقراطية ـ كما بلغ أعلى درجاته فى التفكير الفلسفى **(اى فى فلسفة هيجل نفسه !)** . انتهى الفيلسوف الى هذه النتيجة دون أن يكشف لقرائه عن تصوره لما سيكون عليه المستقبل. ولم تكن فلسفته فلسفة مستقبل، بل كانت تحتقر كل تفكير مثـالى **(او يوتوبى)** . **فاليوتوبيـا (بمعناها المشتق من الكلمة اليونانية)** تدل على مالا وجود له فى أى مكان ، أى مالا وجود له الا فى رأس المفكر وحده ! أما هيجل فيريد ان يفهم ما هو موجود ، **« فالموجود هو العقل »** . ولا وجود فى الواقع الا للحاضر وحده ، وللماضى الذى أدى هذا الحاضر ويمكن معرفته والالمام به **وليس يليق بالفيلسوف أن يفكر فيما يمكن أن يصير اليه هذا الحاضر حين يصبح ماضيا ، أى لا يليق به أن يفكر في شيء ليس له وجود .**

بهذا المعنى كان هيجل مفكرا محافظا الى أقصى حد ، مفكرا تأمليا لا يريد ان يصل الى شيء عملى. فالشيء العملى قد تحقق بالفعل ، والمهم الآن أن يفهم ويوضع فى الصيغة الفلسفية المناسبة . وبهذا المعنى ايضا أحس هيجل أنه يمثل حضارة متأخرة « ناضجة »، وجدت الراحة بعد أن اصابتها هزات عنيفة فى الماضى القريب **(وأعماله المتأخرة تعبر كثيرا عن هذا الأحساس)** . ولعل هذا هو السر فى أن هذا العمل الضخم لم يجد ولا كان من الممكن أن يجد من يواصـــله ويستمر فيـــه أراد له صاحبه أن يكون خاتمة ونهاية . **وقد كان بالفعل كذلك .** ولهـذا السبب اضطر تلاميذه ـ الذين لم يقف بهم طموحهم عند **الشرح والتفسير** ـ الى البحث عن أدوات أخرى وغايات أخرى ».

فلسفة تغيير العالم

هكذا اصبحت فلسفة التاريخ بعد هيجل أكثر قلقا



فولتير

وحدة مما كانت عليه قبله . ان **كارل ماركس** ـ هو تلميذه الذى لا يمكن فهمه بدونه ـ لم يعد يكفيه أن يفهم العالم ـ أى الماضى ـ بل يريد أن يغيره بالفلسفة ، أى يحدد صورة المستقبل ، بحيث يصبح هذا التحديد المسبق قوة فعالة . وهو لا يصبح كذلك حتى يتطابق مع الواقع ويعرف قانونه العلمى . كل ما كان قبله ـ وبالأخص عند هيجل ـ فلسفة ولا شيء غير الفلسفة ، اى تأملات بغير أثر فعلى ـ **أصبح عنده فعلا سياسيا يستمد قوته من الفلسفة أو من العلم (فـكلاهما شيء واحـــد فى رأى ماركس)** . ومن ثم نشأت وحدة جديدة من الفكر والوجود غير التى ذهب اليها هيجل . **وصارت فلسفة التاريـخ ـ التى ظلت حتى الآن شيئا لا ضرر منه ! ـ نظرية للثورة ، وصـــار فيلسوف التاريخ ثائرا ومعلما وداعيا الى الثورة .**

هكذا كان ماركس وانجلز »، وان خلت حياتهما ممـا يلفت أنظار رجال الشرطة ! وهكذا كانت بعدهما حياة **لينين وتروتسكى وستالين** ، الذين أضـافوا الى نظـرية الثورة نظرية **«الاستراتيجية الثورية»** ، والرعب ، والارهاب ، ثم

طبقوها بالفعل عندما جاء الوقت المناسب . هؤلاء رجال ثلاثه ظلوا ينظرون للواقع او يكتبون تاريخه بأنفسهم كما فعل تروتسكى . أهم ما يميزهم هو اعتقادهم القاطع بأنهم يعرفون دورهم التاريخى تمام المعرفة ، وان اعمالهم معصومة من الخطأ ، لانها مستمدة من العلم بقوانين التاريخ نفسه. كل من يحيد عن وجهة نظرهم فالويل له . كل من يخالفهم فهو مرتد وخائن وعميل ..

الصراع العالمى الذى نعيش اليوم فى ظله بين شرق وغرب يرجع الى طموح ماركس الضخم ، الى دعواه الهائلة رغم انه عرف قوانين التاريخ العلمية وحدد مسيرته وهدفه الى الابد . كل من يقسم عهد الولاء لماركس ولينين فهو على حق . كل من يخالفهما فهو عدو وملعون ومطرود . تلك هى النهاية . لا نهاية فلسفة التاريخ بالطبع ، فهذه لاتنتهى. بل نهاية جانب من تراثها الذى وصل به هيجل الى الذروة. نهاية مؤلمة، أقل مايقال فيها : انها مسئولة عن المأزق الذى نجد أنفسنا اليوم فيه ، وليس أمامنا الا الاختيار بين فناء مطلق أو سلام مضطرب . أيكون الانسان قد حمل نفسه أكثر مما تستطيع أو ماينبغى أن تحتمل ، عندما زعم أنه عرف معنى التاريخ وحدد هدفه واكتشف قوانين حركته ؟ هذا الزعم ليس جديدا . والمحاولة كذلك ليست جديدة . لقد جرب الانسان مايشبهها فى القرن التاسع عشر . أحس أنه يحيا في عصر تاريخى فريد ، يحمل فى أحشائه الامل او الخطر أو كليهما ، ولكنه على كل حال عصر لم يسبق له نظير .. فالعواصف السياسية والاجتماعية تجتاح أوروبا ، وانتصارات التقنية (أو التكنيك) والعلوم الطبيعية والبيولوجية تتوالى مؤذنة بانتصارات أكبر وأعجب ، والدين يهتز فى القلوب ، والكنيسة تضعف بصورة واضحة، والتوسع والغرور الاستعمارى يصلان الى اقصاهما — كل هذه ظواهر قوت شعور الناس بأنهم يعيشون فى عصر فريد، فأرادوا ان يعرفوه ويحددوه . ارادوا أن يسموا أباالهول باسمه ، ليأمنوا بعد ذلك شره ! واقدموا على المحاولة بجهاز مثير يعين للابد قوانين التاريخ .. هكذا فعل **«أوجست كونت»** مؤسس النزعة الوضعية الحديثة . اعتقد انه اكتشف القانون الذى تسير كل الحضارات بمقتضاه فى ثلاث مراحل : **مرحلة يسودها الدين ، وثانية تسيطر عليها الميتافيزيقا أو التأمل ، وثالثة وأخيرة يحكمها العلم الوضعى** . العالم الغربى — فى رأى كونت — قد دخل هذه المرحلة الاخيرة بالفعل . معنى هذا أن العلميين والخبراء الفنيين قد احتلوا مكان الملوك والكهنة والعسكريين ..

نفس الشعور بتفرد العصر ، نفس الاحساس بأزمة تاريخية لم يسبق لها مثيل — نجده أيضا عند هذا الفيلسوف الشاعر العجيب — عند نيتشه . انه يثور على المعرفة التاريخية التى يزدحم بها عصره ، حتى حجبت أكوام الوثائق والمعلومات عنه الرؤية ، وشلت ارادته ، وقتلت روح المخاطرة فيه ، وجعلت من المؤرخين أشباحا ضعيفة متهاوية تفترس الكتب القديمة وتضع النظارات على عيونها ! فلنطرح هذه المعرفة التاريخية ، ولنقبل على الحياة — على اللحظة الراهنة لنحقق أنفسنا فيها بقوة وحرية ، وبلا وساوس أو أحزان !

بيد أن هذه اللغة الغاضبة الجارفة لم تستطع أن تخفى الاحساس بأزمة تاريخية متوقعة .. **تنبأ نيتشه بأن القرن العشرين سيشهد حربا طاحنة لن يعرف لها العالم مثيلا من قبل . وزعم أنه سيفرح فرحة كبرى بهذه الحرب!** وهو فى هذا يخطىء تقدير نفسه النقية الطاهرة ، كما ينسى انه أعلن عن نفسه (فى كتابه الاكبر الذى لم يستطع أن يتمه هو **«ارادة القوة»**) انه آخر العدميين . فكيف كان يرضى لنفسه أن يشهد ذلك العدم والدمار الرهيب الذى شهده العالم فى حربين عالميتين ؟ وكيف كان يتردد لحظة واحدة في التبرأ مما اقترفه النازيون باسمه وتحت شعار فلسفته التى اخطأوا فهمها وتجنوا عليها ؟

هاهو ذا رجل آخر يأتى بعده — مؤرخ أصيل بحق — (**يعقوب بوخارت**) فيشك فى معنى التاريخ وييأس من غايته وهدفه الذى بحث عنه **كانت وشيلر وهيجل** ، ويعود مرة أخرى الى رأى العصور القديمة عند اليونان والرومان : تعب **الانسان لايتغير** : موجة تعلو وموجة تهبط . كما فى الماضى كذلك فى الحاضر والمستقبل . لا جديد هناك . لاأمل ولا نجاة . ومع هذا فلم يستطع بورخارت أن يخفى احساسه بالازمة . صحيح أن روح التشاؤم تظل تأملاته فى تاريخ العالم كالسحابة الهادئة القاتمة . ولكن رؤاه القلقة على مصير الانسان تلمع كالبروق فى ثنايا رسائله وخطاباته الشخصية .

لم يختف الاحساس بالازمة منذ ذلك الحين من فلسفة التاريخ لم يختلف من أى تفكير فى مستقبل العالم والحضارة والانسان . سواء بالامل أو باليأس ، سواء تنبأ بنهاية التاريخ كله أو تنبأ بنهاية التاريخ الماضي وراح يعلن عن بداية التاريخ الحق ، التاريخ الحر العادل المجيد .

تدهور الغرب

لانستطيع أن نختم هذا العرض السريع بغير أن نذكر اسم **ازفالد شبنجلر** . قد تكون فلسفته اليوم خاطئة فى بنائها العام ، وهناك بالفعل أكثر من دليل على خطئها . ولكن لاشك أن شبنجلر — الذى وضع كتابه عن تدهور الغرب تحت تأثير الحرب العالمية الاولى — قد خاطب جيله وعبر عن عصره ، ورسم صورا تاريخية غنية رائعة تدل على نفاذ بصيرته ، وقدم مجموعة من الملاحظات عن الحاضر

والمستقبل أثبتت الايام صدقها ، وان كان قد حشرها في ذلك البناء العام الذى لايتسع المجال لبيان خطئه . المهم أنه يثبت لنا كما أثبت كل من حاول ذلك قبله ان تصوير التاريخ فى صورة شاملة تامة مغلقة لم يعد أمرا ممكنا ولا مفيدا ، وأن محاولة الانسان ان يحدد معنى التاريخ وهدفه ويتنبأ بمستقبله محاولة مقضى عليها بالفشل . ذلك لانها تفوق طموحه وقدرته وطبيعته المحدودة الفانية ، ولانه – أى الانسان – يحيا فى الزمن ويرتبط به ، ولذلك فلايمكنه أن يحدد معناه وهدفه من داخله . أى أن فلاسفة التاريخ قد وضعوا لغز الوجود والانسان فى قلب الزمن ، وارادوا أن يلتمسوا التحقق التام – أى الوحدة الكاملة بين الوجود والفكرة أو بين الواقع والواجب – فى هذا الزمن المتحول نفسه ، مع أن هذه الوحدة لايمكن أن توجد على الارض ولا فى الزمن . قد يستطيع الزمن أو التاريخ – بأزماته وكوارثه ، بانتصاراته وهزائمه ، بأفراحه وآلامه – أن يكشف لنا عن معنى المطلق أو المتعالى أو الروح الكلى أو الفردوس الاخير أو ماشئنا من أسماء لانسميه – ولكنه لن يستطيع ابدا ان يوجده فى الزمن ، لن يستطيع أن يحققه على الارض ..

فلسفة التاريخ ومعنى الزمن

أدركت فلسفة التاريخ – منذ عهد القديس أوغسطين الى اليوم – معنى الزمن ، وعرفت أنه يكمن في التحول والتغير والتجدد . هذا كسب ضخم لن نفقده بعد اليوم.. لايمكن أن نرجع للوراء.. لايمكن أن نعود لعصور توكيديدس أو غيره من مؤرخى الاغريق والرومان . هؤلاء الذين اعتقدوا أن الخير كله فى العصور الذهبية الماضية ، وأن الزمن لايأتى بجديد . ولكن لايمكن أيضا – بعد مسيرة خمسة عشر قرنا من أيام أوغسطين – أن يظل الانسان يبحث عن المطلق فى الزمن والتاريخ ، مع أن المطلق نفسه – أيا كان الاسم الذى نعطيه له ، وسواء وضعناه فى عالم آخر أو قلبناه ووضعناه على الارض ! – لابد – بحسب اسمه نفسه ! – أن يظل خارج الزمن والتاريخ . كل ما يستطيع الزمن أن يفعله هو كما قلت أن يكشف عنه ، يرينا لمحة منه ، يشدنا اليه – أما تحقيقه فى التاريخ فهو المستحيل بعينه . وتحقيق هذا المستحيل – فى ثوبه المقدس أو فى أثوابه الارضية ! – هو الذى جر الغرب ومعه بقية العالم الى الازمات المتوالية التى لاحظها فلاسفته ومؤرخوه ، وجر البشرية اليوم – ازاء التقدم المذهل فى العلم والتقنية وأسلحة الدمار ، والتأخر المذهل أيضا في الضمير والاخلاق – الى الاختيار المحتوم الذى تنبأ به كانت : فاما الفناء المطلق الذى يتساوى فيه الغالب والمغلوب فى راحة القبر، واما التعلم من دروس غاندى ومارتن لوثر كنج فى العصر الحديث ، ومن تعاليم الحكماء والشعراء فى كل العصور – بل ومن مجرد النظر الى براءة الطفل والحيوان ، واحترام الحياة فى كل مظاهرها الطبيعية المحيطة بنا وان كنا لانراها كالعمياء – أى بالتخلى عن القوة والعنف ، وترويض الغرائز المظلمة العمياء ، ومحاولة العيش فى سلام .

أكثر من سؤال

هل نستخلص من هذا أن جميع المؤرخين الذين ذكرناهم مخطئون ؟! بالطبع لا . ولايمكن أن يصل بنا الغرور أو الغباء الى هذا الحد ! لقد أحسوا بأزمات عصرهم وحاولوا أن يعبروا عنها أو يفسرها أو يقترحوا لها الدواء أو يحملوا الى أجيالهم بعض الراحة والامل والعزاء ، ولقد أصبح الاحساس بالأزمة بفضل هؤلاء الفلاسفة والمؤرخين جزءا لا يتجزأ من فهمنا للتاريخ ، بل ان هذا الاحساس قد زاد اليوم عنه في أى وقت مضى . فاذا قلنا ان البشرية تمر بمرحلة لا نظير لها فى تاريخها الطويل لم يكن قولنا مجرد تزويد أو تأثر ساذج بما سبق ، وامكن أن يصدقنا الجميع ، لا فرق فى ذلك بين الفيلسوف ورجل الشارع . ألم يسر الانسان على أرض القمر مرتين ؟ ألا يدل هذا على أن العقل البشرى قد بلغ أقصى درجات تقدمه ، وانه – وهذا الأهم ! – لا يزال يواصل تقدمه ، ولا نهاية للآفاق التى يتطلع اليها ولا للمفاجآت التى ننتظرها منه ؟ – ومع ذلك فلا يزال الالوف يموتون من الجوع أو التعذيب أو المذابح الجماعية فى فيتنام أو العدوان البشع على شعب فلسطين والشعوب العربية .. ألا يدل هذا من ناحية أخرى على أن نفس العقل البشرى قد بلغ اقصى درجات تأخره ؟ ألا يثبت أن التوازن الذى حلم به كانت أو غيره بين العقل والضمير و بين العلم والخلق قد اختل أفظع اختلال ، وأن هذا العقل ينطلق الآن بسرعة الصاروخ ، بينما الضمير يلهث على عكازه وراءه ؟ ! ألم يأت اليوم الذى تنبأ به حكيم كونجسبرج – يوم تجد البشرية نفسها أمام اختيار وحيد بين فناء مطلق وبفعل الأسلحة المهلكة أو تعايش في سلام منظم دائم فى ظل « جمعية من الامم المستقلة » ؟ ألا نعيش الآن فى هذا اليوم ؟ !

ولكن « جمعية الأمم » التى كان يحلم بها قد وجدت واتحدت ، والبشرية تتحرك كل لحظة – حقيقة لا مجازا ، واقعا لا تشاؤما ! – على حافة الهاوية . فما بال الضمير العالمى لا يستقيظ ؟ واذا كان قد استقيظ لدفع ظلم بشع – كحرب الابادة فى فيتنام – فلما لا يتحرك بنفس القوة لدفع ظلم لا يقل عنه بشاعة ، كتشريد شعب من وطنه ؟ أين ضمير الشباب النقى وأين ضمائر علماء العالم ومفكريه ومثقفيه وكيف لا تتفق على استنكار كل هذه الجرائم التى تتستر وراء الأكاذيب والخرافات المتعصبة ؟ واذا كانت أكاذيب الصهيونيين وخرافاتهم قد خدعت عددا كبيرا من الناس العاديين فكيف استطاعت أن تخدع هذه الصفوة التى ينبغى أن تفكر لنفسها وبنفسها ؟

المفكر وتيار عصره

لا يستطيع المؤرخ أو الفيلسوف أن ينفصل عن عصره ، ولا يملك ـ كما قال هيجل ـ الا أن يكون تعبيرا عن زمنه ومرآة له . وأقصى ما يطمع فيه المؤرخ أو الفيلسوف هو أن ينطق بلسان جيله ، أن يصور أزمته ، أن يخاطب ضميره ، أن ينبه ، ويوقظ ، ويثير .

وليس كاتب السطور مؤرخا ولا فيلسوفا . ان أقصى طموحه أن يكون مجرد شاهد أمين ـ وهو يشترك فى هذا مع كل من يكتب . وهو لا يستطيع مهما طالت به الرحلة بين العصور أن ينفصل عن عصره وجيله وأهله . ففى الوقت الذى يكتب فيه هذا الكلام ، وفى الوقت الذى تقرءونه ، يضحى اخوة لكم وله بحياتهم وينزفون دماءهم .

لا لكى نكتب عن معنى التاريخ أو نتفلسف فى أزمته ، فالشىء الوحيد الذى يجدى فى هذا الموقف الذى نعيشه اليوم هو نقطة الدم وطلقة الرصاص . وأن يقيننا وعزاءنا الوحيد هو اننا جميعا نشترك فى معركة واحدة كبيرة ، **واننا ـ كما قال شكرى عياد فى تعبير صادق جميل ـ** نقف جميعا فى صف واحد كبير وننتظر دورنا . هؤلاء الاخوة يعطون للتاريخ بهذه الدماء التى يبذلونها معناه الحقيقى الدافىء ويجسمون أزمته لكل من يرى وكل من يحس . انهم أيضا يسألون بطريقتهم التى لا يوجد الآن سواها : **الى أين يسير التاريخ ؟** وهم لا يسألون فحسب ، بل يجيبون بالفعل : **بالدم والشجاعة ، بالمدفع والطائرة ، بالعبور كل ليلة ، بتثبيت العلم على الأرض التى يدنسها العدو** وهم أيضا يخاطبون الضمير العالمى بطريقتهم : لماذا لاتستيقظ ؟ أهناك دليل على أزمة الجنس البشرى أوضح من هذه الازمة التى نعيشها في هذه المنطقة من العالم ؟ أهناك دليل على تقدم العلم والتقنية الى أبعد حد وتأخر الخلق والضمير الى أبعد حد أيضا من هذه الدولة الصغيرة التى تفكر تفكير العصابات وتسرق وتنهب وتقتل كما تفعل العصابات !

لقد استعارت التقدم العقلى والعلمى فجاءها جاهزا من تلك الدولة الكبيرة التى تمثل النموذج الصارخ لتفوق العقل الى أقصى حد وتخلف الضمير الى أقصى الحدود . **واذا لم تستيقظ الآن يا ضمير العالم ويا مناط الامل الوحيد الباقى للجنس البشرى فمتى تستيقظ ؟ الا تريد أن تفتح عينيك الا والبشرية فى قرارة الهاوية ؟ !**

الى أين يسير العالم ؟

حقا ! ما اخطره من سؤال !

وما أعظم وأنبل **الجواب الذى يقدمه الابطال والشهداء** على أرضنا **وفى كل مكان يشهد اليوم** مأساة **التطور** العقلى **المذهل والتخلف الخلقى البشع** فى آن واحد .. ؟

عبد الغفار مكاوى

تعتمد مادة المقال على ثلاث دراسات للمؤرخ المعاصر «جولدمان» ـ ابن الكاتب المشهور توماس مان ـ عن المشكلات الرئيسية فى فلسفة التاريخ ، والمؤرخ ارنولد توينبى عن البشرية في سنة الهبوط على القمر والتكنولوجيا وتطور السياسة العالمية ، والاستاذ فريتس فاجنر ، أستاذ التاريخ بجامعة ميونخ ، عن مشكلة التاريخ العام للبشرية، والموقف الحاضر . وقد نشرت جميعا فى مجلة « الجامعة » عددى يونيو وسبتمبر سنة ١٩٦٩ .



مشكلات منهجية في دراسة السلوك الأجرامى

صلاح عبد المتعال

تحتل دراسة السلوك الاجرامى فى عصرنا الراهن موقعا له أهميته البالغة فى مجال الدراسات الانسانية بصفة عامة وبحوث العلوم الجنائية والعقابية بصفة خاصة . ويبزغ هذا الاهتمام المتزايدنتيجة لقلق المجتمع المطرد وتهديد أمنه وسلامته ، ومن ثم تبادر الحكومات والهيئات المختصة باتخاذ الاجراءات لمنع الجريمة والحد من معدل نموها بقدر الامكان لا بقصد تحقيق الغاية من ضبط سلوك الافراد فحسب بل لاعتبار ذلك مؤشرا له دلالته الهامة على استقرار الاوضاع والهيمنة على كافة الامور مما يدعم كيانها الشرعى ويضفى عليها أحقية الاستمرار فى أداء مهمتها ، هذا فضلا عن أن بعض الدول تجد فى انتشار السلوك الاجرامى ، بأى صورة من صوره ، مايعرقل بشكل أو بآخر خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وبذلك نلاحظ أن الانتحاء نحو الاهتمام العلمى بالمشاكل الانحرافية أمر يمكن تفسيره على هدى مفاهيم التقدم الاجتماعى والاقتصادى ، وعلى هذا الاساس ترصد كثير من الميزانيات والجهود الفنية والبشرية لدراسة السلوك الاجرامى وما يرتبط به من ظواهر متعددة ، باعتبار انهذا فى حد ذاته نقطة الانطلاق لحصر النشاط الانحرافى فى أضيق حيز اجتماعى ممكن .

قيود منهجية

ويثار تساؤلات لها أهميتها حول مدى التزام الباحثين فى دراسة السلوك الاجرامى بالشروط المنهجية للعلم ؟ وما هى القيود والمشاكل التى تعترضهم فى عملية البحث وتؤثر فى انحيازهم الى فلسفات ونظريات مسبقة تؤثر بشكل أو بآخر فى انحرافهم عن الحد الموضوعى الذى يجب الالتزام به ؟ وما مدى صلاحية مناهج البحث وطرائقها المعروفة والشائعة فى دراسة السلوك الاجرامى فى مجتمعنا ؟ فواقع الأمر ان استخدام هذه الاساليب حديث نسبيا بالقياس الى المرحلة العمرية التى بلغتها العلوم الاجتماعية والجنائية فى مصر هذا بالاضافة الى عدة محددات تؤثر بشكل أو بآخر فى توجيه البحوث والدراسات نحو الالتزام بمنهج وأدوات معينة دون غيرها (صلاح عبد المتعال ، الأسس المنهجية لدراسة ظاهرة الجريمة فى المجتمع العربى ، الحلقة العربية الثانية للدفاع الاجتماعى ، فبراير ١٩٦٩) . وهذا قد يرجع الى عدة عوامل منها أن الباحثين فى هذا المجال يختلفون فى معالجتهم **للمفاهيم والمصطلحات الاساسية** وذلك لتباين ثقافاتهم واتجاهاتهم المدرسية وتخصصاتهم وهذا أمر لا غبار عليه ، ويمكن تقريب وجهات النظر فيما بينهم بالشروع فى توحيد هذه المفاهيم والمصطلحات الرئيسية بكافة السبل العلمية .. أما الأمر المحفوف بالمخاطر فهو تبنى بعض الباحثين لمفهومات تم تعريفها من واقع ثقافات مغايرة لثقافة المجتمع المصرى المتمايز بخصائص حضارية لايمكن الاختلاف عليها ، أو أن يجد الباحث نفسه أسير اتجاهات مدرسية معينة فى تفسير السلوك الاجرامى تجعله ملتزما دائما بمفاهيمها الخاصة التى تنطلق منها للمعالجة المنهجية لكل مشكلة انحرافية دون التمرس على القيام بدور نقدى يحرره من اسار هذه المفاهيم وما يتبعها من توجيه الباحث نحو اختيار منهج أو أسلوب معين لاكتشاف أبعاد السلوك الاجرامى .

ومما يؤثر بالضرورة فى هذا الشأن ما لدى الباحث من تصور خاص عن ظواهر السلوك الانحرافى أو **الاطار التصورى أو المرجعى** وهو الصورة الذهنية المنظمة من الظاهرة الاجرامية التى يسترشد بها فى بداية عملية البحث ، ويفسر تفرع الاتجاهات العلمية فى تفسير السلوك الاجرامى الى اتجاهات بيولوجية ونفسية واجتماعية عن طريق الاطار التصويرى لكل منها والسابق على عملية البحث ، وهو الاطار الذى يؤدى الى تحديد مناهج كل اتجاه وطرائقه المتبعة فى عملية جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها ومعالجتها ، وما يثيره كل اطار تصورى من أسئلة يحاول الاجابة عليها. والمفروض أن كل هذه الاتجاهات العلمية تحاول بالدراسات المتتابعة العودة الى الاطار النظرى أو التصورى بعد معالجة النتائج وتفسيرها مؤيدة اياه أو كاشفة أخطاءه منتهية الى تعديل الصيغة الاتباعية له (رايل ، البحث السسيولوجى ١٩٦٣) فان لم يحدث ذلك فان البحث يدور فى دائرة مفرغة تحول دون التوصل الى أى مفهوم جديد فى العالم .

وقد يتأثر الاساس النظرى لدراسة السلوك الاجرامى فى أغلب الاحوال بالمناخ الفكرى السائد والنظريات الشائعة فى تفسير السلوك الانسانى، كما يلعب تباين **المعتقدات والايديولوجيات** دورا فعالا بالنسبة لمستقبل البحوث والدراسات الانسانية بصفة عامة ، ودراسات السلوك الاجرامى بصفة خاصة . فالباحثون ينتسبون الى نظام اجتماعى قائم يتبنى أفكارا ومعتقدات

وايديولوجية معينة . ويحدد النظام الاجتماعى العلاقة بينه وبين الباحثين - خاصة فى المجتمعات الحديثة - الذين يشق عليهم تمويل البحوث والانفاق عليها . ومن ثم فان المنفعة متبادلة بينهم وبين أجهزة هذا النظام ، ومنهم من يحرص على تدعيم الافكار المؤيدة للنظام السائد بنتائج البحوث أو الدراسات ، ومنهم غير المقتنع الذى يقف موقف الحياد منه أو المناهض ، الا أن واقع هؤلاء جميعا يواجه سيطرة النظم الاجتماعية باختلاف نماذجها على موارد معيشتهم وتوفير سبل الحياة لهم وتدعيم بحوثهم ودراساتهم بالموارد المادية التى لا يمكن الاستغناء عنها فى عصرنا الراهن لانجاز التحقيقات العلمية . ويمكن عند عقد مقارنة بين نماذج مختلفة فى النظم الاجتماعية : فنجد أن دراسات السلوك الاجرامى فى المجتمعات الرأسمالية تتغاضى عن الابعاد الاقتصادية فى تفسير السلوك الاجرامى ، وتهتم بأبعاد السمات الفردية والتركيز على خصائص الشخصية .. دون الاقتراب من تأثير الصراع الطبقى على ازدياد معدل الجرائم ، أو المساس بمشاعر الطبقة المستغلة أو اغتصاب أصحاب السلطة الذين يعبرون عن مصالح النظام القائم.

(سذرلاند ، كريسى ، مبادىء علم الاجرام ، ١٩٦٠) يقابل ذلك عدم جراة الباحثين فى بعض المجتمعات الاشتراكية فى تفسير السلوك الاجرامى على أساس قصور فى تطبيق النظام الاجتماعى ، والافتراض السهل بأن الجريمة من رواسب الفكر البرجوازى ، واعتبار بعض المذهبيين ذلك مشجبا معلقا عليه بعض العوارض الاجرامية المعبرة عن التناقضات الناشئة من سوء التطبيق أو نتيجة تغيرات جديدة .

فالقهر الايدولوجى - ان جاز هذا التعبير - يمارس دوره فى توجيه البحوث والدراسات فى نطاق السلوك الاجرامى لمصلحة الدفاع عن النظم والمعتقدات السائدة بطرائق مختلفة ظاهرة أو مستترة ، دون المساس بجوهر العقائد والمذاهب القابعة وراء القوانين التى يسنها أصحاب المصالح فى المجتمع ، وهذا فى حد ذاته يشكل ضبابا فكريا يحول بين الباحث ورؤية تصورات وأفكار وطرائق مستحدثة لاكتشاف نتائج جديدة قد تعدل من النظريات السائدة فى عصره .

والواقع انهذا القيد لو استسلم له الباحثون لتجمدت مناهج وطرائق البحث فى العلوم الانسانية ، ومن ثم يلاحظ فى كل حقبة فكرية انطلاق صيحات فكرية جديدة تعبر عن ضرورة كسر هذه القيود الايديولوجية رغم ما يلاقيه المفكرون من صعوبات ومحن تعترض نضالهم فى حرية البحث، وقد كان لمثل هؤلاء الرواد المفكرين قصب السبق فى تقدم العلم والأخذ بيد البشرية نحو التقدم والرفاهية .. ومن ثم فان مبدأ حرية البحث العلمى وحصانة الباحث العلمى من جميع أنواع القهر هو مبدأ يجب أن تقره الدول التى تريد اختزال الزمن لتحقيق شعار التقدم .

كما يتحكم فى عملية إختيار الادوات الملائمة للبحث **المستوى الثقافى للمجتمع** فقد يؤدى استعارة أداة بحث أو مقياس نفسى أو اجتماعى - لم يتم تمصيره - الى الحصول على استجابات مضللة . وينطبق ذلك أيضا بالنسبة لمحاولة جمع البيانات التى تمس الحالة الاقتصادية والحريات الشخصية والتقاليد والمعتقدات دون أن يوضع فى الاعتبار مدى وعى المفحوصين أو ذويهم بأهمية هذه البحوث والاقتناع بجدوى نتائجها فى المدى القريب أو البعيد .

وثمة اعتبار آخر وليس عن نفس الدرجة من الأهمية ، الا أنه يشكل خطرا فى تحيز بعض الباحثين فى نطاق السلوك الاجرامى لاساليب وأدوات علمية يحددها تخصصهم دون أن يأخذوا فى اعتبارهم جدوى أساليب التخصصات العلمية الاخرى . وقد تعرضت دراسة السلوك الاجرامى لعواقب القفز الى تصميم النتائج للاقتصار على أدوات البحث التى يفرضها تخصص فرع معين من العلوم الانسانية أو اتجاه مدرسى خاص فى تفسير السلوك الاجرامى سواء كان الاتجاه بيولوجيا أو نفسيا دون أن يوضع على مرمى البحث أهمية الأبعاد الاجتماعية ، ولما تم اكتشاف هذه الابعاد أخذت مشكلة السلوك الاجرامى تتضح ملامحها - الى حد ما - وتسلح الباحثون عندئذ بالقدرة على اختيار مناهج وأدوات متعددة ومتنوعة أخذا بمبدأ

العمل الجماعي في البحث العلمي الذي يعتبر حلا موفقا لتفادي خطر الانزلاق في متاهات تقديس الاساليب الفنية لكل تخصص على حدة ، وعدم التمتع بالنظرة الشمولية المتكاملة في فهم أبعاد ظاهرة السلوك الاجرامي وثيقة الصلة بمختلف أبعاد البناء الاجتماعي ككل موحد ·

في مناهج بحث السلوك الاجرامي ·

ثمة منهجان أساسيان يمكن اتباع أحدهما أو كليهما معا على التوالي أو التوازي طبقا لدرجة توفر المعلومات والنظريات المفسرة لظواهر السلوك الاجرامي وانماطه ·

أولهما ·· المنهج الاستطلاعي والوصفي الذي يتبع في حالة عدم توفر البيانات المنظمة عن الظاهرة الاجرامية موضوع البحث ، وبذلك يصبح الهدف الأساسي الذي لا غنى عنه في أي عملية بحث محاولة الاستقصاء الدقيق عن الظاهرة والتعرف عليها مجسدة في صورة وقائع يمكن معالجتها موضوعيا وتنمية فروض علمية كمحاولة لتفسير هذه الوقائع تفسيرا مبدئيا ·

والمنهج الثاني ·· منهج اختبار الفروض العلمية والتحقق من مدى صحتها على أساس تجريبي (سلتز وجاهودا ، مناهج البحث في العلاقات الاجتماعية ١٩٦١) منتهيا الى تعميم يستخدم كقاعدة للتفسير أي في صورة نظرية علمية أو تعديل أو اثراء نظرية سابقة، أو البرهنة على قانون علمي يوضح العلاقة السببية بين المقدمات والنتائج أو بين المتغيرات المعتمدة والمستقلة ، هذا فضلا عما يقدمه هذا القانون العلمي من قدرة بشرية يمكنها من التحكم في هذه المتغيرات ··

وجدير بنا ان ننوه بأن المنهج الثاني ـ منهج اختبار الفروض تجريبيا ـ أكثر المناهج اغراء للباحث لاشباع طموحه واثبات كيانه العلمي دون اهتمام بمدى حاجة ظاهرة السلوك الاجرامي التي لم يستكمل ادراك معالمها الرئيسية الى المنهج الاستطلاعي والوصفي · اذ ان الباحث في حالته هذه يقتبس بعض النظريات المفسرة المستندة الى شواهد تجريبية مغايرة للشواهد الكائنة في مجتمع البحث الذي يتباين السلوك الاجتماعي والانحرافي فيه عن نماذج السلوك في المجتمعات الاخرى ·

وينطبق ذلك في حالة مجتمعنا حديث العهد ببحوث السلوك الاجرامي ودراساته ، والمفتقر الى المعلومات والبيانات المنظمة التي تحدد حجم الظواهر الاجرامية وأنواعها المختلفة النابعة من ثقافة مغايرة عن الثقافات الغربية التي نبعت منها نظريات مفسرة للسلوك الاجرامي ·

أساليب بحث السلوك الاجرامي :

ينبغي علينا أن نشير الى أساليب البحث الاساسية في دراسة العلوم الاجتماعية والجنائية قبل التعرض للأساليب النوعية لدراسة السلوك الاجرامي ·

فلا شك أن أسلوب الملاحظة لا يكن الاختلاف عليه باعتباره الاساس الاول للاستقصاء والبحث، الا ان اصطناع أساليب أخرى وسيطة يلجأ اليها الباحث عندما تعترضه صعوبات تعوقه عن الملاحظة المباشرة أمر يفرضه تعقد العلاقات الاجتماعية كلما تطور المجتمع من البساطة الى التركيب في بنيانه الاجتماعي · وقد لجأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية الى استخدام أسلوب الملاحظة المباشرة في نموذج المجتمعات المتخلفة · ومن أمثلة ذلك دراسة (مالينوفسكي ١٩٢٤) عن الجريمة والعرف في المجتمع البدائي· ولا غبار اطلاقا عن استخدام هذا الاسلوب في بعض قطاعات المجتمع المصري كالمجتمعات الريفية والصحراوية وشبه الصحراوية (د · أحمد أبو زيد ، الثأر ، ١٩٦٥) · (قام باجراء هذه الدراسة المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في قرية بني سميع لمركز أبو تيج) ·

كما اصطنعت التجربة العلمية المباشرة ـ كنوع من الملاحظة المشروطة ـ نظرا لقصور العقل البشري عن ملاحظة الظواهر العديدة المتشابكة في المجتمع · ومن ثم تتم التجريب في نطاق دراسة السلوك الاجرامي على مستوى عينه من المجرمين (تجريبية) وأخرى من غير المجربين (ضابطه) بهدف تحقيق فرض علمي محدد · وثمة أمثلة في

هذا المجال ، كدراسة جلويك (١٩٥٧ Glueck) عن الجانحين وغير الجانحين **تفسير جناح الاحداث** ودراسة ركلس ودينتز (ركلس ١٩٦١) عن مجموعتين : التجريبية من غير الجانحين والضابطة من الجانحين ، حاولا التوصل الى مدى تأثير (تصور الذات) self-concept عن الانحراف أو عدم الانحراف وثمة بحوث مصرية أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية عن بعض أنماط الجريمة مثل ظاهرة الفشل عند الاحداث (غير منشور) وبحث تعاطى الحشيش (١٩٦٤) •

كما يستخدم المنهج المقارن أو التجربة غير المباشرة (دوركيم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع) كنوع آخر من الملاحظة اذ أنه لا يمكن التحكم فى المجتمعات الكبيرة التى لا يمكن اخضاعها للتجريب المباشر بل يكفى المقارنة بين الوقائع الاجرامية المسجلة أو التى يمكن تسجيلها لتحديد أثر العوامل المشتركة فى أنماط اجرامية متشابهة •



اساليب نوعية فى دراسة السلوك الاجرامى

الاحصاءات الجنائية ، واحصاءات السمات والعوامل الاجرامية :

يمكن أن نلقى نظرة عاجلة على الاساليب والادوات النوعية لدراسة السلوك الاجرامى لا بقصد شرحها ولكن بهدف تحديد مدى موضوعية كل أسلوب أو أداة •

وتحاول الاحصاءات الجنائية تحديد حجم الجرائم وانماطها ودرجة الارتباط بين عدد الجرائم وبين بعض العوامل الطبيعية ، والاجتماعية فالعوامل الاقتصادية كمحاولة بونجر Bonger المشهورة••• وهذا الاسلوب الاحصائى لهحدوده التى لا يمكن أن يتعداها فهو لا يحقق التعمق فى دراسة الشخصية ودينامياتها كما لا تمثل الاحصاءات الجنائية مجتمع المجرمين ككل الا من وقع فى قبضة رجال الشرطة ، منحية الارقام المجهولة فى الجرائم التى لا تتمكن من رصدها بالضرورة •• الا انه قد استحدث أخيرا أسلوب التقرير الذاتى للكشف عن الجرائم الخفية كمحاولة لرصد حجم الجرائم المسجلة وغير المسجلة (صلاح قنصوه ، تقويم كفاءة منهج التقرير الذاتى فى كشف الاجرام الخفى ، المجلة الجنائية القومية ، مجلة ١٢ ، يوليو ١٩٦٩)

ويتأثر حجم الجرائم المسجلة بمدى اهتمام الرأى العام ونشاط أجهزة الضبط ، كما يلازم الاحصاءات الجنائية النقص فى معدل ثباتها فى

البلاد حديثة العهد بأجهزة الاحصاء الجنائى ، ولكن تتضح قيمة هذا الاسلوب فى عملية جمع الوقائع الجنائية وتحديد أنماط الجرائم واتجاهاتها بالزيادة أو النقص وتوزيعها الايكولوجى ، الا أن الاحصاءات الجنائية يعوزها القدرة على تنظير الوقائع الاجرامية .

وقد لجأ الباحثون لادراك هذا التصور الى أسلوب المقارنة الاحصائية للسمات والعوامل الاجرامية بين المجرمين وغير المجرمين لتحديد قيمة ودلالة عامل معين أو أكثر يؤدى الى انتشار نمط أو أكثر من أنماط السلوك الاجرامى .

وقد حاول المستحدثون لهذا الأسلوب صياغة نظريات مفسره للسلوك الاجرامى ، الا أن هذا المنهج رغم قيمته يعانى من بعض نواحى القصور على أساس أن عينة البحث تختار غالبا من المؤسسات العقابية التى لا يمثل نزلاؤها الى حد ما ، المجتمع الأصلى للمجرمين ، كما يعترى الباحثون الشك من استجابات المسجونين فيما يتعلق بالنسبيات الخاصة بالحالة الاقتصادية والظروف الاجتماعية التى أحاطت بهم قبل الحكم عليهم . وبالرغم من أهمية هذا الأسلوب الاحصائى الذى يلجأ اليه لتحديد أسباب الجريمة باستخدام بعض المقاييس المبتكرة لتحديد خصائص المجرمين وظروفهم ، فانه ليس كافيا فى حد ذاته لفهم وتفسير الظواهر الاجرامية ، وبذلك لجأ بعض علماء الاجرام الى استخدام أساليب أخرى منها أسلوب دراسة الحالة .

دراسة الحالة

ولا يقتصر أسلوب دراسة الحالة على دراسة وحدات من الأشخاص المستخدمين بل أيضا وحدات من الجماعات أو المجتمعات المحلية .

ويستخدم فى نطاق دراسة الحالة أدوات ومقاييس تتناول موضوعية الدراسة من الناحية الكمية وذلك كبعض المقاييس السيكولوجية المقننة واجراء استبار interview مقنن أو شبه مقنن أو تطبيق أنواع من الاستبارات questionnaires والاستبيانات schedules .
وقد زخر تراث علم الاجرام بأمثلة كثيرة من أسلوب دراسة الحالة كدراسات جلويك وهيلى وبروز وشو وماكاى وبولين يونج التى أوضحت امكانية تحقيق كشف شامل عن طريق دراسة الحالات ، وكذلك الدراسات التى آجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن ظاهرة التشل عند الأحداث (غير منشور) والدراسة الاكلينيكية عن البغاء فى القاهرة ١٩٦١ .

ولا يخلو أسلوب دراسة الحالة من النقد : فالحالات التى يتم دراستها لا يمكن أن تصور المجتمع الأصلى تصويرا كاملا مهما تعددت ، ومن ثم فهى قيد منهجى لا يمكن من تعميم النتائج مالم يكن نطاق المجتمع الذى أختيرت منه الحالات محددا بدقة بالغة ، وقد حاول الفرد لند سميث اجتياز هذه العقبة باستخدام أسلوب « دراسة الحالة المحدودة » فى دراسة عن ادمان المخدرات وأخرى عن جريمة الاختلاس ، وذلك من أجل التوصل الى تعميمات شاملة بعد تحقيق فروض غاية فى الوضوح لأنماط من السلوك محددة غاية التحديد .

(سيزرلاند كريسى ١٩٦٠)
Sutherland and D. Cressy, 1960

ويحاول أسلوب دراسة الحالة بشقية سد النقص فى الدراسات القائمة على الاحصاءات الجنائية التى يعوزها الثبات والصدق ، ويؤدى التساند بين كلا الأسلوبين الى تحقيق نوع من التكامل المنهجى فى البحث للقيام بدراسات استطلاعية تفيد فى عملية اكتشاف الفروض الدالة التى يمكن اختبارها تجريبيا باستخدام مناهج وأساليب أخرى .

مخالطة المجرمين فى البيئة الاجتماعية

يحاول هذا النهج العودة الى الأساس الأول فى الدراسة العلمية ، وهو الملاحظة المباشرة ، وتعتمد هذه الطريقة على اتصال الباحث بالمجرمين فى البيئة الاجتماعية خارج المؤسسات العقابية والاطلاع على المواقف اليومية وظروفهم المعيشية كما يراها المجرمون أنفسهم ، وهذه الطريقة من أشق الأمور التى يصعب على الباحث القيام بها ، فهى تحتاج الى مهارة معينة لمخالطة المجرمين ووعى كامل من السلطات عن امكانية تحقيق هذا الأسلوب ، وحسم مشكلة صراع الأدوار عند الباحث باعتباره ملاحظا موضوعيا لجماعة من المجرمين ومشروعاتهم الخاصة للاضرار بمصالح المجتمع .

ويفتقر هذا الأسلوب الى القدرة على عملية التثبت من البيانات أو مراجعة المعلومات التى حصل عليها أحد لباحثين ، اذ انه نادرا ما يستخدم

أساليب الملاحقة المقننة ، فضلا عن صعوبة تكرار فرصة الاختلاط بنفس الجماعة الاجرامية بالنسبة لنفس الباحث أو باحث آخر • كما يلاقى الباحث مقاومة فى استجابات المفحوصين عن ظروفهم الاجتماعية المبكرة ، وايضا بالنسبة للعمليات والمواقف التى أدت بهم للتورط فى الجرائم •

والواقع أنه بالرغم من هذه الصعوبات العملية والمنهجية فان زيادة المعلومات التى يمكن التثبت منها بهذا الأسلوب تعمل على التقليل من المعلومات المضللة التى نتوصل اليها بأساليب أخرى •

وحدة الدراسة والتحليل

تباينت وجهات النظر فى نطاق دراسة السلوك الاجرامى عن الوحدة لتى ينبغى فحصها علميا كمدخل لدراسة هذا السلوك ، فثمة من آثروا البدء بالفرد ، وآخرون لم يجدوا مناصا من اتخاذ الجماعة أو المجتمع وحده للدراسة والتحليل • ولكل خلفيته الفلسفية فى تصور العلاقة بين الفرد والمجتمع •

الفرد

لقد تمخض عن الاتجاه الفردى مدارس فى علم الاجرام تحلل الظاهرة الاجرامية بناء على حتمية ارتكاب ـ من يتصفون بسمات معينة ـ بيولوجية أو عقلية ـ أفعالا اجرامية لا مناص من القيام بها الا فى حالة توفر ظروف غير عادية تحول بين الفاعل والسلوك الاجرامى • والواقع أن هذه الاتجاهات المتشيعة للفرد كوحدة للدراسة اقتصرت على تحديد الخصائص الفردية التى يتصف بها المجرمون عن غيرهم • وقد أخذ نجم هذه المدارس ـ البيولوجية أو النفسية والتطبيقية ـ فى الأفول بعد القيام بدراسات تجريبية تدحض زعم المسلمة التى أسسوا عليها نظرياتهم ، وهى أن المجرمين يختلفون عن غيرهم المجرمين فى سمات معينة فى الشخصية تنشىء سدورها ميولا غير عادية لارتكاب الجرائم فى مواقف لا يرتكب فيها غيرهم هذه الجرائم (سيزورلاند ، كريسى ١٩٦٠) كما لا يمكن اقامة علاقة علية بين صفات الفرد والفعل الاجرامى الذى يقوم به ، وقد أسهمت الدراسات العلمية بعد ذلك فى اكتشاف أبعاد جديدة فى الشخصية والمجتمع تلعب أدوارا فعالة فى السلوك الاجرامى •

الشخصية

وقد تطور الأمر من دراسة الفرد كوحدة جزئية مستقلة الى دراسة للشخصية أو نمطها باعتبارها وحدة تعتمد فى تكوينها على عوامل تكوينية للفرد ، وأخرى خارجة عنه ليس للفرد كفرد دخل فى صنعها • وتتكامل مناهج البحث فى نطاق العلوم البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية لتحديد أوصاف المجرمين تبعا لأنماط شخصياتهم • ويحاول هذا الاتجاه التوفيق بين الاتجاه الفردى والاتجاه الاجتماعى من حيث أن دراسة الشخصية لا تقتصر على أبعاد فردية فقط بل تحتوى على أبعاد سيكولوجية واجتماعية • وتؤثر نوعية العلاقات والعمليات الاجتماعية التى تربط بين الشخصية والمجتمع وأنساقه السائدة فى تكوين اتجاهات الشخصية التى تحدد العلاقة بين شخصية المجرم والقانون والأعراف السائدة والجماعات التى تتباين فى درجة الانتماء لها •

كما ينبغى أن ننوه بأن الموقف الاجرامى بما يتضمنه من عناصر ايجابية وسلبية يمثل بعداهاما يؤثر فى نوع استجابة الشخصية نحو العقل الاجرامى ، ويراعى عند دراسة الموقف الاجرامى ما يتضمنه من عنصر المجنى عليه والدور الذىيقوم به لاكتمال عملية التفاعل بينه وبين المجرم • والواقع أن هذا البعد له أهميته البالغة عند دراسة نمط الشخصية كوحدة للدراسة ، اذ أن استجابة شخصية المجرم المحترف للموقف الاجرامى تختلف عن استجابة شخصية المجرم العادى وكذلك الحال بالنسبة لشخصية المجرم بالصدفة •

الجماعة وتحليلها البنائى والثقافى

يسود الاتجاه الآن نحو اعتبار الجماعة هى الوحدة الدراسية والتحليلية التى يمكن عن طريقها التعرف على الجريمة كظاهرة كائنة تتأثر شخصية مرتكبيها ببناء الجماعة ووظائفها والمضمون الثقافى السائدفيها ، ويتم تحليل الجماعات ، كالأسرة وثلة الرفاق والعصابة والحى أو القرية ، علىهدى المنظور البنائى الوظيفى لكل جماعة دون عزلها عن المجتمع الذى يحتويها • كما لا يمكن استكمال تحليل الجماعة الا بتحديد الوظائف التى تقوم بها ، سواء بالنسبة لأعضائها أو للجماعات الأخرى • واذا طبقنا ذلك على الجماعات الانحرافية ، سواء كانت أسرة جانحة أو عصابة

أو حيا جانحا .. فيمكن أن تعقد المقارنه بين وظائف هذه الجماعات وما تحققه لاعضائها من اشباعات وبين وظائف التنظيم الاجتماعى العام ومدى نجاحه فى تحقيق الحاجات الاساسيه لاعضائه ، سواء كانت حاجات بيولوجيه و سيكولوجية او اجتماعية . فقد يفشل التنظيم الاقتصادى فى اشباع حاجات فئات معينة من المجتمع أو تحقيق قدر متفق عليه من الرفاهية ، فتنشأ أثر ذلك جماعات وتنظيمات لعلاج هذا الفشل بأساليب مشروعة فى نفس الوقت الذى تتشكل فيه جماعات انحرافية أو عصابات تقوم بأفعال غير مشروعة كرد فعل لفشل هذا التنظيم فى اشباع حاجاتهم الاساسية .

كما تقودنا دراسة الجماعة الى ضرورة التعرف على الثقافة السائدة فيها ، سواء كانت ثقافة خاصة بها أو ثقافة عامة تنتمى اليها وتعيش فى اطارها . فلا يكفى تناول المظاهر الخارجية للسلوك الاجرامى ، بل يجب أن يمتد البحث الى ما وراء هذا السلوك من أفكار وتصورات وقيم ، سواء من ناحية مرتكب الفعل الاجرامى أو المشرع الذى يجرم هذا الفعل . فاذا تم تحريم أفعال لايجرمها العرف والسنن الاجتماعية ــ كجريمة الثأر فى أغلب بقاع مصر ــ نجد أن عدم تطابق التصور الفكرى الكامن وراء الفعل الاجرامى مع تصور المشرع له يؤدى الى اتساع هوة التخلف بين القانون أو الضبط الرسمى من جهة والضبط الاجتماعى غير الرسمى المتمثل فى العرف والسنن الاجتماعية من جهة أخرى .

ويجوز على هدى ذلك أن نفترض قيام علاقة فردية بين معدل الجرائم ودرجة التخلف بين نوعى الضبط الاجتماعى الرسمى وغير الرسمى ، فالمضمون الثقافى للجريمة والتجريم يمكن وصفه وتحليله باستخدام بعض الوسائل والأدوات كالملاحظة واستبار المجرمين وغير المجرمين وبعض الاستخبارات والاستبيانات ومختلف المقاييس التى يمكن أن تبتكر لمثل هذا الغرض . وقد يؤدى بنا هذا المنهج الى تحديد وزن وخطورة أنماط من الفعل الاجرامى من وجهة النظر السسيولوجية والثقافية ، وقد يؤدى الارتقاء فى تحليل هذه النتائج وتفسيرها الى مواكبة المشرع للواقع الاجتماعى المتغير .

فى مناهج تفسير النتائج

ان عملية البحث وما تتضمنه من مناهج وأساليب عرضنا لها لا يمكن أن تبلغ غايتها الا اذا توجت بتفسير النتائج التى حصلنا عليها . فاذا كان الباحث قد بدأ بنظرية معينة أو فرض علمى يفسر نمطا من السلوك الاجرامى تفسيرا مبدئيا ، فانه فى ضوء ذلك يحدد الهدف من الدراسة منتقيا الاساليب والأدوات الملائمة لجمع البيانات التى يصنفها ويحللها ، وأخيرا يحكم حلقة البحث بالجانب التفسيرى لهذه النتائج عائدا بها الى الاطار التصورى ، أى الى النظرية أو الفرض الذى بدأ به البحث (رايلى ، ١٩٦٣) مقررا الاستنتاجات التى تثبت صحة الفرض أو تدحضه أو تعدل من النظرية التى بدأ بها .

ويستند التفسير الى مناهج الاستدلال المنطقى بنوعية ، اذ لا يكتفى بالمنهج الاستقرائى فى استخلاص النتائج بل يعتمد ــ فى نسق تكاملى لضبط السياق المنطقى ــ على المنهج الاستنباطى ، مستقيا المسلمات والفروض من النزعة التجريبية المعتمدة على المنهج الاستقرائى ، مستخدما فضلا عن ذلك القضايا الرياضية والمعادلات والمعطيات الاحصائية كمنهج أو أسلوب لتحليل النتائج المستمدة من الواقع الاجتماعى ، وايجاد ما بين الوقائع الاجتماعية والاجرامية من علاقات وارتباطات فى صورة رياضية ، مما قد يشير الى وجود علاقة سببية بين الظواهر الاجرامية والتغيرات المختلفة المصاحبة لأنماط السلوك الاجرامى .

واذا كانت بعض النظريات تستخدم كقواعد لتفسير السلوك الاجرامى ، فيجب أن نوضح أن مبدأ التعميم لابد أن ينطبق على جميع الحالات وفى جميع المجتمعات ، الا أننا نصطدم بشكل أو بآخر بمبدأ نسبية التجريم طبقا لتباين المجتمعات ثقافيا وحضاريا ، ومن ثم لا نسعى فى المرحلة العلمية الراهنة الى التسرع فى عمليات التفسير لأنماط السلوك الاجرامى ، بل ينبغى بذل المحاولات الجادة للقيام بالدراسات الاستطلاعية والوصفية لظواهر الجريمة بكافة أنواعها التقليدية والمستحدثة ، اذ أن ذلك يشكل بناء معرفيا تتم فيه محاولات أولية للتفسير تمهيدا لعمليات تفسير حاسمة لأنماط السلوك الاجرامى فى مختلف القطاعات والنماذج الاجتماعية .

صلاح عبد المتعال

● المشكلة الأساسية التى يصادفها النقد الأدبى - نظرا ومنهجا - فى العصر الحديث، هى أن أى تفسير لنشاط مّا من نشاطات الإنسان أصبح محكوما فى صحة نتائجه أو خطئها بمدى قربه أو بعده عن العلم أداة هذا العصر .

بين النظرية والمنهج فى النقد الأدبى

د. عبد المنعم تليمة

تتوجه النظرية النقدية الى تفسير النشاط الأدبى : من حيث ماهيته الفارقة المميزة له عما سواه من نشاءات الانسان ، ومن حيث مهمته بالنسبة لصاحبه الفنان وبالنسبة لآثاره فى المتلقى فردا وجماعة ، ومن حيث طبيعة أداته التى يصطنعها لتوصيل آثاره وتحقيق مهمته . والمناهج هى وسائل علماء الجمال والنقاد النظريين للوصول الى نتائج منظمة فى هذا التفسير وهى طرائق النقاد العمليين فى تعاملهم مع النصوص . والمشكلة الأساسيةالتى يصادفها النقد الأدبى - نظرا ومنهجا - فى العصر الحديث هى أن أى تفسير لنشاط ما من نشاطات الانسان أصبح محكوما فى صحة نتائجه أو خطئها بمدى قربه أو بعده عن (العلم) أداة هذا العصر . ولكى تحقق النظرية النقدية لتفسيرها للنشاط الأدبى قدرا من العلمية ، فانها اقتربت بقوة من تقدم كافة العلوم فى مناهجها ونتائجها ، وأصبحت مثقلة بكم هائل من حصيلة المعرفة ، وتعددت اتجاهاتها بصورة تكاد تعجز مؤرخها المتتبع لحركتها . لقد استلهم النقد فى القرن الماضى فكرة (التطور) من نتائج العلوم البيولوجية والطبيعة ، وحاول تطبيقها على التقاليد والأجناس الأدبية وعلى التاريخ الأدبى . **أما علوم الانسان والمجتمع فقد امدت النقد بمعظم فروضه الفكرية والمنهجية الحديثة ، ابتداء من حقائق عن الحلم واللاشعور الفردى والجمعى وطبيعة السلوك السوى والمرضى ، ومرورا بالشعيرة والمعتقد والأسطورة وطبيعة المجتمع البدائى ، وانتهاءا بمفاهيم الصراع والتغير فى الثقافة والمجتمع . كما استهد النقد - منهجيا - من التقدم العلمى انضباطا فى التحقيق والاستقصاء واحيانا فى الاستقراء والتجريب .**

الوحدة والانفصال :

ولكن ذلك كله يعد (اقترابا) من العام ، وليس علما بذاته. بمعنى ان النقد يرسب حصيلة المعرفة التى تنتهى اليها العلوم فيستخلص لنفسه من نتائجها مايعين فى تفسير مادته وهى النشاط الأدبى ، وقد يستلهم الخطوات المنهجية لبعض تلك العلوم ، ولكنه هو نفسه لم يصبح (علما للأدب ،

له منهجه الخاص واستقلاله . وانفصال ضرب معرفي معين بمنهج خاص قائم على طبيعة المادة التي يتناولها بالتفسير والدرس، ولا يتناقض مع وحدة المعرفة البشرية ، ولا مع المنهج العلمي في حقائقه العامة ، بل ان ذلك الانفصال ضروري لتحقيق هذه الوحدة ، اذا نهض على وعي بأن (نوعية) نشاط ما لا تتناقض مع (كليـة . النشاط الانساني عامة . وفي الحقيقة ان قضية (**الانفصال والوحدة**) في العلم الحـديث عامة تثير ملاحظتين أراهما ضروريتين فيما نحن بصدده من الوقوف على الجهد المعاصر في النظرية النقدية:

بدأ انطلاقه -**حوالي منتصف القرن الماضي**- في ظل ظروف اجتماعية وفكرية وحضارية محددة. كانت البرجوازية الأوربية قد بدأت تفقد دورها الثوري بينما برزت القوة الاجتماعية الثورية الجديدة في أفق العمل الاجتماعي . وكان **هيجل** قد صاغ أعظم الأنساق المثالية تعبيرا عن تقدم البرجوازية ودورها. بينما صاغ **ماركس** تفسيره المادي تعبيرا عن أفول تلك البرجوازية وصعود القوة الثورية الجديدة ، فوضع بذلك منهج هدم وبناء في آن . نفي المنهج الجديد - في الطبيعة - التصور الميكانيكي ونفي - في المجتمع - الجبر والعشوائية . أرسى



ا.ا. ريتشاردز



ت.س. اليوت

الملاحظـة الأولى عن الانفصــال : ففي حوالي منتصف القرن المـاضي ، كانت العلوم الطبيعيـة قد حققت تقدما ملموسا،وأصبح انضباطها المنهجي مثلا أعلى حاولت العلوم الاجتماعية أن تحتـذيه . وكانت هذه العلوم الأخيرة لازالت في اطار التأملات الفلسفية التي كانت تضعها الأنساق الفلسفيـة التقليـدية ، ثم بدأت علمـا بعـد آخر ، حـركة (**انفصالها الكبير**) عن النظر التأملي ، بعد أن أخذ كل علم يحدد موضوعه الخاص، ويحاول اكتشاف المنهج الملائم لطبيعة هذا الموضوع ولقوانينه النوعية وقد أحرزت بعض هذه العلوم تقدما كبيرا ، بينما لا يزال بعضها الآخر يتعثر ، ولكنها جميعا تتطور تكنيكيا بصورة لا شك في جدواها العميق لقضية العلم عموما : فمن استخدام للتجريب الى القياس الى الاحصاء . ومن التصميم الدقيق للتجربة ، الى الضبط للمقياس ، الى المعمل والآلة الالـكترونية والجهاز ، الى الدراسة والتجربة الميدانية.. الخ. ولكن هذا الاستقلال والتميز في العلوم الاجتماعية

المنهج الجديد دعائم تصور شامل للعالم ، كما أرسى مفهوما خلاقا للمبادرة التاريخية . وليس هذا المنهج نمطا صلدا ولا نظرية نهائية ، بل هو منهج دائم التغير ، بدوام تغير الواقع الذي ينطلق منه ، انه قابل للتطوير والاغتناء على ضوء التقدم العلمي والخبرة البشرية . ولقـد كان الرواد الأوائل على وعي بصير بحقيقة منهجهـم : فبذل **انجلز** جهدا - في (جدل الطبيعة) - لتطوير المادية الجـدلية على ضوء تقـدم العـلوم الطبيعية في عصره ، وواصل **لينين** نفس الجهد . ولكن مثل هذه الجهود الخلاقة لم تتواصل ، وساد جمود عقيدي - حوالي ثلث قرن ، المرحلة الستالينية - جمد المادية الجـدلية فلم تستوعب العلوم الاجتماعية في تقدمها ونتائجها . ويعنينا فيما نحن بصدده ان المادية التاريخية ، وهي منهج التحليل التاريخي ومعرفة القوانين الاجتماعية هي السند النظـري الطبيعي لكل العـلوم الاجتماعية ولكن الجمود العقيدي الذي أشرت

اليه لم يطور المادية التاريخية لتكون منهجا شاملا لتقدم العلوم الاجتماعية • وغيابها عن أداء هذا الدور جعل هذه العلوم تتطور فى مداراتها الخاصة ، حول موضوعاتها النوعية الجزئية ، وتصل الى تقدم كبير ، ولكن دون اطار نظرى شامل يعى (كلية) الخبرة الانسانية ووحدة المعرفة •

والملاحظة الثانية عن الوحدة • وفى منتصف هذا القرن الحالى – أى بعد قرن من بداية نضج العلوم الاجتماعية واستقلالها بمناهجها ، وصياغة التفسير المادى فى الطبيعة والمجتمع – بدأت حركة أخذت تقوى فى العشرين سنة الماضية للوعى بوحدة المعرفة الانسانية • فعلى ضوء حركة التحرر من الاستعمار ، وايمان مئات الملايين من البشر بالاشتراكية العلمية سلاح بناء ومنهج نظر ، وعلى ضوء التقدم الذى أحرزته العلوم الطبيعية والاجتماعية ، أقول على ضوء هذا كله عاد المنهج الماركسى – بعد انهيار الجمود العقيدى – الى حيويته والى قدرته على استيعاب كل جديد • وبذلت جهود لاثراء المنهج بالمعرفة الجديدة ، وتطورت بخاصة الدراسات المعمقة المتصلة بطبيعة العلاقة بين الأبنية الفوقية والأساس الاقتصادى الاجتماعى • ويتم هذا التطوير بالانفتاح على نتائج العلوم كافة وبخاصةعلى النتائج النظرية والمنهجية لحركتين علميتين أخذتا فى البروز والنضج فى العشرين سنة الأخيرة ، وسيكون لهما أكبر الآثار فى مستقبل العلم عموما • **والحركة الاولى هى ، السبرنيطيقا** cybernetics **التى أسسها عالمالرياضة نوربرت فينر** wiener **واثمرت نظريا وتطبيقيا فى كافة المجالات نتائج بعيدة الأثر • وتقوم هذه الحركة على الالتقاء والمشابهة فى عمليات التحكم فى الآلة والكائن الحى ، وهى بهذا تفتح أعرض الآفاق ، لتقوم الآلة بعمليات (عقلية) دقيقة ، وبمهام (بشرية) تختزل الزمن ، وتحقق للانسان وهو سيدها – السيطرة على واقعه • واما الحركة الثانية وهى البنيانية** structuralism **، فتقوم على درس (بنية أو بنيان) الشىء ، ابتداء من أبسط الاشياء الى أكثر الظواهر تعقيدا ، باعتبار أن (العلاقة) أساس فى كل بنية** • وخرجتالى الناس دراسات بنيانية دقيقة فى ميادين متعددة : من علم اللغة الى علم الاقتصاد ، الى الجمال ، الى الاعمال الفنية ، الى علم النفس ...الخ• وانتهت الى نتائج هامة ، وصاغت أسسا نظرية على رأسها أساس **(سبق العلاقة على الافراد ، وسبق الكل على اجزائه)** • ولست هنا بحيث أفيض فى الاسس النظرية والنتائج العلمية والعملية لهاتين الحركتين وانما يعنينى أنهما أثبتتا وحدة الخبرة الانسانية ، ووحدة المعرفة والنظرية العلمية ، وأكدتا المبادىء الاساسية للمنهج الجدلى • لقد عادت الوحدة مرة أخرى ، ولكنها كانت قديما تأملية تجريدية ، عندما كانت الفلسفة (أما) لكل العلوم ، أما وحدتها الجديدة فهى علمية لأنها مؤسسة على انضباط نظرى ومنهجى دقيق • وسيبقى لكل علم ميدانه النوعى ومنهجه ، ولكن فى اطار من الوعى بكلية الخبرة وشمولها • ونخص بالحديث الدراسات والعلوم الاجتماعية ، فنرى أنه يمكن التناول بالتقويم كل تفسير لنشاط انسانى ما فى ضوء من الفكرة السابقة (الانفصال والوحدة : نوعية المادة المدروسة وكلية الخبرة والمعرفة الانسانية) • وفى النظرية التقدمية الحديثة شواهد دالة :

النظرية النقدية الحديثة

اذا كان أول القرن التاسع عشر قد شهد نضج البرجوازية الاوربية وغايةصعودها وتقدمها، فقد شهدت نهايته (أزمتها) التى تمتد حتى الآن• وانتهى فى مجال الفن عصر الاعمال الخالدة لرواد الرومانسية الثورية وبدا عصر الاتجاهات الحديثة والمعاصرة المعبرة عن (أزمة) الانسان الغربى • والوعى بالأساس الاجتماعى البعيد لهذه الانتفالة، يفضى الى تفهم النتاج العلمى والفكرى والفنى لطور الازمة فى حياة المجتمعات الغربية ، أما الجمود العقيدى ، فقد أفضى – حتى سنوات قريبة – الى رفض لكثير من هذا النتاج ، وضاع فى منطقة الظل كثير منه – مثله الفنان العظيم فرانز كافكا– حتى عادت للفكر الجدلى حيويته فكشف عن هذا النتاج ، ووضعه موضعه من الملابسات والعلاقات الاجتماعية بانفتاح واع •

وسنجد لفظة (الازمة) شائعة بصورة واضحة فى النظرية النقدية ، فى صورة جزع من الحاضر وترديه ، والهرب منه بالدعوة الملحة الى الماضى ، الى (التوازن) الكلاسيكى ، والوازع الخلقى التقليدى ، والتعاليم الكنسية : من **جون كيبل** Keble فى منتصف القرن الماضى وهو داعية العودة الى الكنيسة ، مرورا **ببول المردور** More الذى سماه شيعته (بوذا) الى معاصرنا **اليوت** Eliot وفكره الكلاسيكى معروف • لقد خاب أمل المفكرين فى (الفردية) وشكوا فى امكانات الانسان • وسدد **ارفنج بابت فى كتابه** (روسو والرومانسية سنة ١٩١٩ أقوى الهجمات الى التفاؤل الرومانسى، ودعا النقاد الى فن (موضوعى) يتجاوز أوهام الرومانسيين وعاطفيتهم والى نقد (علمى) مؤسس

على تقدم العلوم وبخاصة الدراسات الانتروبولوجية والنفسية • ولكن هرب هؤلاء من انفرديه لم ينجهم من اللف فى مدارها المقفل ، فلم تصل أنظارهم الى أنه لا يمكن دراسة الانسان خارج علاقاته الاجتماعية ، ولهذا جاءت نظرياتهم واحدية الجانب وجاءت مناهجهم جزئية • ولعل أكثر هؤلاء النقاد تمثيلا للفكر النقدى وتأثيرا فى حركته هو الناقد الكبير **رتشاردز** Richards •

كان المبحث الأساسى فى نظرية الأدب عند الرومانسيين يدور حول الشاعر وعمله ، أما المبحث الاساسى عند رتشاردز فيدور حول المتلقى وتذوقه • وهو ان درس عمليه الخلق عند الشاعر وطبيعة القصيدة وتعريفها ، وان استعان بعلوم النفس والأعصاب واللغة ، فلكى يخدم غرضه من بيان كيفية عملية (التوصيل والنقل) وآثار قراءة القصيدة نفسيا وسلوكيا عند القارىء • ويبدو هذا الغرض بصورة واضحة متواصلة فى كل كتبه • فأول كتاب صدر له ـ بالاشتراك مع عالم النفس **أوجدن** Ogden ـ كان **(أسس علم الجمال سنة ١٩٢٢)** ، يرسى فيه مبدأه النظرى الذى ظل يؤكده فى جهده النقدى كله وهو أن الجمال ليس كامنا متحققا فى القصيدة ذاتها ، انما هو (حالة) عند القارىء ، ثم ينتهى الى المبدأ الآخر المترتب على ذلك الأساس ، وهو أن التوصيل الجيد هو ما أدى الى توازن انفعالى لدى القارىء • ومعلوم فى تاريخ النظرية النقدية أن درس (الجمهور) قديم ، منذ اشارات **أفلاطون** الى دور الشعر ـ والفن عموما ـ فى تمويه الحقيقة وتزييف العواطف ، ومنذ اشارات **أرسطو** الى دوره فى تطهير العواطف • ولكن الجديد عند رتشاردز أنه يرفض التأمل ، ويعتد بالتجريب وبنتائج العلوم ليهىء مناخا منضبطا للقراءة الشعرية ورصد الظروف المؤدية الى قراءة سليمة جيدة ، والملابسات المؤدية الى قراءة خاطئة رديئة • ثم من دراسة نجاح التوصيل أو عدم نجاحه على قصائد محددة وجمهور محدد ، يمكن الانتهاء الى الآثار الوظيفية للشعر لدى القارىء • ولكى يعمق رتشاردز طبيعة التوصيل أفرد لها كتابه العظيم ـ بالاشتراك مع أوجدن أيضا ـ **(معنى المعنى سنة ١٩٢٣)** ، وفيه يضع أصول نظرية أثرت تأثيرا كبيرا فى تطور علم الدلالة Semantics ، فدرس طبيعة (المعنى) ، والرمز ، وكيفية التوصيل اللغوى ، والفرق فى الاستخدام اللغوى ، بين استخدام الشعر للألفاظ وستخدام العلم لها • وكانت الأصول النظرية فى هذين الكتابين مقدمات صالحة ، انطلق منها رتشاردز الى التعامل مع الفن الشعرى نفسه ؛ فأخرج سنه ١٩٢٤م كتابه الأصيل فى النظرية النقديه **(مبادىء النقد الأدبى)** ، ليعيد توكيد ما أرساه من طبيعة التجربه الجمالية والتوصيل وآثاره ... الخ ، وسنة ١٩٢٦ كتابه **(العلم والشعر)** ليطبق نظريته فى وظيفة اللغة وتباين استخدامها بين العلم والشعر ، وليحدد للشعر مكانه ومكانته فى مستقبل ، يبدو للنظرة القريبه أن سيهيمن عليه العلم التجريبى ، وسنة ١٩٢٩ كتابه **(النقد التطبيقى)** الذى يسدى فوائد جليلة فى كيفية القراءة الجادة للشعر ، وفى الاقتراب المخلص من الاجادة ، وفى درس الجمهور المتلقى فردا وجماعة •

وسيقف مؤرخ النظرية النقدية طويلا عند جهد رتشاردز ، فهو محاولة جادة لاستخدام العلم ، ولازالة كثير من الغموض والابهام عن ماهية الشعر ووظيفته • لقد بدأ (المبادىء) بتقويم لوجهات النظر النقدية المطروحة فى عصره ، ولاحظ عليها التشويش والاضطراب ، وسدد هجماته الى تدخل الفردية والذاتية فى الحكم الجمالى والقيمى عموما • وقال ان قيمة الاعمال الفنيه والادبية تضيع اذا ما ضاقت المعايير النقدية فوقفت عند الانفعال والهوى الذاتى • انما ينبغى التوجه ـ التجريبى بقدر الامكان وبكل ما تتيحه الوسائل العلميه ـ الى عمليتى الخلق والتذوق ، الى الوصف العينى لكيفية عمل الشاعر ، والتأكيد على ضرورة عقد الصلة بين القارىء والعمل الفنى ، والكشف عن حقيقة هذه الصلة وآثارها • ونفى رتشاردز بقوة الأوهام المحيطة بالتجربة الجمالية ورأى أن طبيعة هذه التجربة لا تختلف عن طبيعة غيرها من التجارب الانسانية ، ولا وسيلة درسها تختلف عن وسائل الدراسة الأخرى ، فان الشاعر ـ بحسب قوله ـ يحسن ما يحسنه كل انسان • ان التجربة الشعرية ، تجربة انسانية ، يتلقاها أناس تؤثر فيهم ، ولذلك فان بالامكان تحليلها ودراستها لمن يمكنه تحليل السلوك الانسانى ودراسته ، ومن هنا فان المنهج النقدى الملائم لتحليل هذه التجربة ودراستها هو المنهج النفسى ، الذى نستطيع بواسطته الكشف عن طبيعة تلك التجربة وآثارها ، بالكشف عن العمليات النفسية للحظتى الخلق والتذوق ، عند الشاعر والقارىء • ان التجربة الجمالية ليست شيئا مختلفا عن تجاربنا العادية ، ولكنها تنمية لهذه التجارب وتنظيم لها ، ولذلك تبدو التجربة الجمالية أكثر دقة ونظاما من التجربة العادية ، ولكنها ليست شيئا مغايرا لها • الاختلاف ليس



ف . كافكا



اراجون

فى طبيعة التجربة ، وانما فى (**بساطة**) التجربة العادية ، و (وتعقد) التجربة الجمـــالية ، ثم فى (**طريقة**) نقل التجربة ، فاذا نجح هذا النقـــل اكتسبت التجربة الجمالية وحدتها وكليتها • فاذا كان رتشاردز يعتد بعلم النفس ، أداة للوصول الى مفهوم القصيدة ، وفهم لطبيعـــة التوصـــيل ـ مستعينا بتصوره للغة ووظائفها ـ فان تناوله (**للأثر**) يفضى به ضرورة الى الأخـــلاق ، ولذلك فانه يضع (**ســـيكولوجية أخلاقية**) تساعده فى صياغة نظرية فى القيم • وقيمة الشىء تتحدد فى منظوره السيكولوجى بأثره • قيمة الفعل فى مقدار ما يحققه من رغبة ، وتعلو قيمته كلما تعـــددت الرغبات التى يحققها وكثرت ، وكلمـــا قلت فى نفس الوقت الاحباطات التى يســـببها • وأعظم الآثار قيمة ـ فى هذه السيكولوجية الأخلاقية ـ ما حقق التوازن بين الانفعالات والنزعات • ووجهة نظر تشاردز هذه فى القيمة تعينه فى التفرقة بين الشعر والعلم ، فالشعر يهدف الى تحقيق التوازن النفسى لقارئه ، وهنا قيمته التى ينهض بها بطريقة استخدامه للغة التى تختلف عند رتشاردز اختلافا أصيلا عن استخدام العلم لها • فالشعر لا (ينبىء) بالحقيقة حرفيا ، انما يبعث حالات نفسية تقضى الى توازن فى الجهاز العصبى للقارىء ، يقـــول رتشاردز : « **الشعر اذن يخالف العلم من جهـــة**

استخدامه للألفاظ • حقيقة اننا نجد فى القصيدة أفكارا محددة ولكن التحديد هنا لا يرجع الى أن الشاعر يختار ألفاظه اختيارا منطقيا كما يفعـــل العالم قاصدا معنى واحدا حاجبا أى شـــبهة فى امكان قصد أى معنى آخر ، وانما هو العـــكس • فسبب تحديد الأفكار فى الشعر هو أن الوسيلة التى يطرقها الشاعر ، نغمات صـــوته والايقاع الشعرى ، كل هذه تؤثر فى نزعاتنا وتجعلهـــا تصطفى الأفكار المعينة التى تحتاج اليهـا من بين ذلك العدد المائج المبهم من المعانى الممكنة والأفكار التى يجوز أن يذهب اليها المعنى ، وهذا هو ما يمكن أن يفسر لنا السبب فى أن الأوصاف الشـــعرية تبدو أدق من الأوصاف النثرية غالبا • فاللغـــة اذا استعلمت استعمالا منطقيا علميـــا تعجز عن أن تصف منظرا طبيعيا أو وجها انسانيا • انها لكى تؤدى هذا تحتاج الى جهاز هائل من الأسماء والألفاظ التى تدل على الظلال والفروق الدقيقة التى تصف الصفات الفردية الخاصة • ولا تحوى اللغة مثل هذه الأسماء ولا تلك الألفاظ ، لذلك وجب استخدام وسائل أخرى •أما الشاعر حتى عندما يكتب نثرا ـ كما يفعـــل (راســـكن) و لا دكونسى) ـ فهو يتيح للقارىء أن يصطفى المعنى الدقيق الخاص المطلوب من بين عـــدد غير محدود من المعانى الممـــكنة التى تحويها لفظـــة



جارودى

او عبارة او جملة ما. والوسائل التي يسلكها الشاعر لتحقيق هذه الغاية عديدة متنوعة ولقد سبق ذكر بعضها ولكن الطريقة التي يستعمل الشاعر بها الألفاظ هي سر الشاعر نفسه ولا يستطاع تعلمها . فالشاعر يستطيع أن كيف تتم هذه العملية .. » .

يستعمل الألفاظ استعمالا ناجحا ولكنه لا يدرى (العلم والشعر ، الترجمة العربية ص ٣١) .

ولم يبدأ عمل رتشاردز من فراغ ، انما تأسس على تراث **كولردج**، امام نقاد الرومانسية، وان كان كولردج قد وجه معظم جهده الى كيفية عمل الشاعر ، بينما وجه رتشاردز معظم جهده الى كيفية تذوق القارىء ، أى أن الأول دار مبحثه حول **(ماهية)** الشعر ، بينما دار مبحث الثانى حول **(مهمة)** الشعر . ومن الطبيعى أن من يذهب مذهبا فى أى من المبحثين انما يعرض للمبحث الثانى ضرورة ، ولكن كان هذا هو الغالب على نشاط الناقدين . لقد استلهم رتشاردز من عمل رائده تمييزه للتعبير الشعرى عما سواه من ضروب التعبير اللغوى الأخرى وتفريقه بين **(القصيدة)** و **(الشعر)** ، وبيانه لكيفية عمل الخيال ، واثارة الشعر للنشاط فى النفس ...الخ. وما ذهب اليه رتشاردز من مذهب فى **(القيمة)** ، انما يستمد أصله النظرى من **(مذهب المنفعة)** عند التجريبيين الانجليز ، ومن **بنتام** على وجه الخصوص . ورتشاردز نفسه هو الذى دلنا على هذين الأصلين لتفكيره . غير أن عمل كولردج فى نظرية الادب، وعمل بنتام فى نظرية الأخلاق كانا صياغة متقدمة للمثل العليا التى كانت البرجوازية الاوربية تسعى الى تأصيلها فى مدها التقدمى ، حيث كان الاعلاء من شأن الفرد والفردية فى الفن ، والذاتية بمفهومها القريب فى الاخلاق ، قيمة تاريخية . وكان هيجل الذى عاصر **كولردج وبنتام** (توفى قبل بنتام بسنة ، وقبل كولردج بثلاث) ، تعبيرا فلسفيا رفيعا عن نهاية المثاليات البرجوازية فى طورها المتقدم . وجاءت التطورات الاجتماعية منذ الثلث الثانى من القرن الماضى لتنقل البرجوازية موضوعيا الى المحافظة ، وجانبت فى هذه المرحلة من تطورها منهج الجدل المادى ، فوقعت فى اللاأدرية ، والحدسية ، والوضعية ...الخ. وغابت عن رؤاها وحدة الخبرة ووحدة المعرفة . ويمثل جهد رتشاردز — بعد مئة سنة — جانبا من هذه الازمة ، فهو يعتد فى الفن الشعرى بلحظة التلقى ، وهذا جانب خصب جدير بالدراسة ولا يزال حتى الآن طالبا لها ، ولكنه يعامل المتلقى بعيدا عن علاقاته الاجتماعية المفسرة لتلك اللحظة، بل لسلوكه عامة . انه يفتت الخبرة الجمالية ، ويعزلها ، ثم يفسر الكل بالجزء . وينسحب هذا الأمر نفسه — (تفسير الكل بالجزء) — على نظريته النفعية فى القيمة ، فهو حتى لو ربط — أخلاقيا — بين الفرد والجماعة ، وحتى لو أشار الى مهمة ما للفن بالنسبة للجماعة ، فانما ينطلق من نقطة البدء بالفرد لبناء المجتمع . هذا من الوجهة النظرية ، أما من الوجهة المنهجية ، فان منهجه النفسى ، اذا قيس بالتقدم الكبير الذى أحرزه علم النفس المعاصر يصبح بدائيا أوليا ، فقد نشط رتشاردز فى العشرينات من هذا القرن ، فى وقت كان علم النفس لا يزال بين البحث الافتراضى والمنهج التجريبى والتأمل الفلسفى ، الى جانب أن رتشاردز نفسه لم يكن بحال عالم نفس ، ولذلك فان معظم استنتاجاته قائم على تجريب **(بسيط)** أو على افتراضات تأملية لم يؤيدها تجريب ما ، ولهذا فان نتائجه فى (الوصف) النفسى للحظتى الابداع والتذوق ، تجاوزها البحث المعاصر بمراحل بعيدة .

ماذا يبقى من جهد رتشاردز اذا ؟

تبقى منه أمور جليلة ، أهمها أنه وجه النظر بعمق الى (النص) بصورة تشبه التقديس، وعامله

معـــاملة جادة بعيدة عن الثـــرثرة والتعميمات ، وقراءاته الممتعة الرصينة لكتابات وأشعار **دريدن ووورستر** وغيرهما ذخيرة حقيقية للكتاب والشعراء والدارسين • وأبقى من ذلك ايمـــانه بنـــوعية النشاط الادبى وجدارة دراسته بأن تكون علما ، فان تكن اســـتعانته بعلوم النفس والأعصاب قد نجـــووزت ، فان جهده اللغوى ومشاركته العميقة فى نشأة علم الدلالة ـ رغم أنه لم يراع فى الدلالة سياقها التاريخى ومضمونها الاجتـــماعى ـ عنصر ضرورى فى الجهـــود المتوجهة لتأسيس (علم) مفسر للنشاط الادبى • **سيبقى جهد رتشاردز فى تاريخ النظرية النقدية أقـــوى تمثيـــل لاقتراب الدراسة النقدية بقوة نحو العلم، فى عصر انفصال العلوم والدوران حول النشاطات النوعية للانسان دون نظر الى هـــذا الانسان ونتاجه فى ضوء من علاقاته الاجتماعية المفسرة •**

الفن فى السياق الاجتماعى

فماذا عن وحدة الخبرة البشرية ، ومكان الفن فى سياق العمل الاجتماعى ؟

الفن ثمرة للواقع ، والواقع من صنع الانسان، ثمرة لعمله الاجتـــماعى • فالفن اذا متـــولد عن العمل ، ولأن العمل الانسانى (اجتماعى) بطبيعته، فالفن ذو طبيعة اجتـــماعية كذلك • ولكن الأمر ليس على هـــذا النحو من التبسيط ، فكم أضر التقريب و (التسطيح) بقضـــايا التفكير الجمالى والابداع الفنى ، بصورة ليست بعيدة عن أذهان المعنيين بهـــذا الميدان • ولقد وضعت المـــادية التاريخية الأصول الفلسفية لهذه القضايا ، ولأن هذه المـــادية منهج متفتح على كل جديد مؤثر فى التطور البشرى ، ولأنها منهج متقبل للاثراء ، فان جهـــودا معـــاصرة ـ مستهدية بتلك الأصـــول الفلسفية ـ تسعى الى تطوير المنهج فى ضـــوء من التقدم العلمى والاجتماعى والفنى للانسان المعاصر، ووصلت بعض هذه الجهود الى صياغات طيبة فى طبيعة الأبنية الفوقيه • وفى نوعية بعض صور الوعى وخصوصيتها •

ما الواقع ؟ وما المجتمع ؟

يحرر النظر الجدلى المفـــاهيم من الصـــورية والميكانيكية ، فيتحرر مفهوم الواقع من الجزئية ، ويتحرر مفهوم الانســـان من الفردية ، ويتحرر مفهوم الخبرة من التفتيت ، ويتحرر مفهـــوم الفن من **(المرآوية)** والمباشرة ، وتعود للمعرفة كليتها•

يمكن **(معرفة)** الواقع، ولكن لايمكن **(تعريفه)** بصورة نهـــائية قاطعة • اذ أن معرفة الـــواقع تاريخية موقوتة ، ترتبط بمدى علمنا وفهمنا له• اننا نتصـــور الواقع تصورا **(تقريبيا)** مبنيا على علوم عصرنا ومعارفه وتقدمه التـــكنيكى ، ويقوم هذا التصـــور التقريبى على فرض الفيصـــل فى سلامته التثبت التجريبى ، والممارسة التطبيقية• وهذا التصـــور يقـــوم به البشر ، مما يشير الى ما يسميه رواد المادية التاريخية **(اللحظة الفاعلة)** فى المعرفة ، والى ما أرسوه من مفهـــوم للمبادرة التاريخية • فليست المعرفة **(انعكاسا)** تسجيليا حرفيـــا ، أو اعادة مكرورة للشىء المعكوس ، بل هناك الى جانب الانعكاس ، حركة الانسان العارف، وهى حركة تتـــوجه الى الاشـــياء المدركة بوضع فروض متخيلة لادراكها ، وتستمد هذه الفروض قيمتها فى ضوء من التجربة والتطبيق • المعرفة المادية اذا تنطوى على طبيعة انعكاسية ، فى ذات الوقت الذى ترتبط فيه بالفعل الانسانى، باللحظة الفاعلة •

وقيمة هذه النظرة أنها تعامل الواقع بأبعاده الثرية ، وتنفى عنه السكونية والثبات ، وتحرره من الجمود والسرمدية ، وتتصـــوره فى صيرورة وتغير دائبين ، وتجعـــل للذات (فعالية) ازاء الموضوع ، فلا تضحى بها فى سبيل الوصول الى قوانين نهائية • والواقع اذا بغير حدود ، شبكة معقدة من علاقات الانســـان بالعالم ، متشابكة ، متداخلة ، متفاعلة • ونحن قادرون على معرفته، ولكن هذه المعرفة محدودة بما وصلنا اليه من خبرة اجتماعية وتقدم علمى وتكنيكى • وتغيره دائم ، ولذلك فصورته لدينا متغيرة أيضا • وهو ليس محدودا بما انجز بل انه لينطوى على تشوف الى ما ينبغى انجازه •

أيترتب على هذا التصور للواقع ، نتائج فى مفهوم الفن ؟

يترتب على توكيد فعالية الذات ازاء الموضوع، أن الواقع يتبدى فى الفن بصورة خاصة : للواقع حقيقته الموضوعية ، ولهـــذه الحقيقة وقـــع فى نفوسنا ، وصدى فى ذواتنا الانسانية ، ومفهوم فى أذهاننا • تنعكس صورة الواقع الموضوعى على الذات ، ولكن لهذه الذات رؤاها وأحلامها وموقفها فتتغير الصـــورة لديها وتكتسب شكلا خاصا • فالفن انعكاس ، ولكنه ليس انعكاسا سلبيا ، بل هو اســـهام فى التعرف على الواقع ، وأداة للم شعثه ، وسلاح لتغييره • فاذا غامت رؤية الفنان للحقيقة الموضوعية فقـــد عمله موضوعيته ، واذا غابت الذات فقد عمله فنيته وان الواقـــع الذى

يتبدى فى الفن ، ليس ساكنا جامدا ، بل هو حركة دائبة النمو والتطور ، متعددة الجوانب ، موارة بعلاقات ، قانونها الاساسى صراع وتضاد. فاذا بدت حركة هذا الواقع للنظرة القريبة واقفة ساكنة ، مبددة ، فانها تبدو فى الفن ملمومة مكثفة . ان الواقع يبدو فى الفن أكثر غنى من حقيقته الواقعة ، لأن الفن لا يقف عند الواقع فى معطياته الخارجية المباشرة ، انما يتخطى هذه المعطيات الى ادراك جديد لها ، فيبدو الواقع فى صورة جديدة له : صورته الفنية. وهذه الصورة الفنية أكثر كمالا من **(أصلها)** لأنها تلم ما بدا مبعثرا من عناصره ، وتوضح ما بدا غامضا من مغزاه . ان الفن وان كان مصدره الواقع الماثل، الا انه يتجاوزه الى اكمال ما يشوبه من نقص ، والى ما يرهص به من جديد . وبذا يتحرر مفهوم الواقع من **(المثول)** ومن المباشرة الواقفة عند حد المرئى والملموس ، فينتظم الشوق الى الاكتمال ، والحلم بما لم يقع ، واستشراف مستقبل آت . ويتحرر مفهوم الفن من الانعكاس السلبى فينتظم الذاتية الغنائية فى وعيها بالحقيقة العيانية ويكشف عن مغزى الماثل فى الواقع ، ويتجاوزه الى أن يمنح الانسان صورة لغد يسعى الى صنعه. فاذا أكد هذا المفهوم الطبيعة الواقعية الاجتماعية للفن ، فان الواقع الاجتماعى نفسه من صنع الانسان ، وهو مهدف بغاياته ، ولهذا فان عنصر الذات الانسانية وغنائيتها شرط ضرورى لكل فن . من هنا كانت ضرورة التشدد الذى يبديه المجتهدون من الجماليين المعاصرين ، ازاء كل فهم ميكانيكى لنظرية الانعكاس ، فان هذا الفهم يفضى بالنظرية الى غياب الذات الانسانية ، والى جعل الفن جثة هامدة وصورة فوتوغرافية شائهة ، تحاكى الواقع فى شتاته وجزئياته حكاية ممسوخة بعيدة عن جوهر حركته وثرائها . بينما يعيد الجهد المعاصر هذه النظرية الى حيويتها بفهم الانعكاس مرتبطا بذات انسانية: وعيها، حرارتها الوجدانية ، خيالها الذى يكتشف بين الجزئيات جوامع لا تتبدى لكل عين ، وبين المعطيات شوائب نقص ، ومن الماثل صورة المثال .

الواقع فى الفن – اذا – أكثر دقة وانتظاما، وأقل تشوشا واضطرابا من الواقع الموضوعى ، والأول أكثر **(جوهرية)** من الثانى . اذ تنفذ عين الفنان الى الأساس فى حركة الواقع ، ويفصح فهمه لما هو أساسى عن اختيار يشير الى موقف اجتماعى . وهنا تبدو علاقة الفنان بجماعته والانسان – فنانا كان أو غير فنان – متوجه أبدا الى تحقيق وجوده بصهر ذاته بذوات الآخرين ، ذاته الفردة الضيقة بذات جماعته الرحبة ، والخلق الفنى أداة صاحبه فى تحقيق هذا الوجود . **ولكن المجتمع – أى مجتمع – فى كل مرحلة من تطوره يمور الصراع والتناقض اللذين تنعكس حركتهما فى سلوك الفنانين ، والناس بعامة ، وفى مواقفهم . والعمل الفنى يحمل موقف صاحبه ويعبر عن وجهة نظره ، ويحدد مكانه من قضايا عصره ، ومن صراعات مجتمعه وتناقضاته . ويصبح السؤال الدارج : هل يلتزم الفنان او لا يلتزم ؟ ساذجا ، لأنه بالضرورة ملتزم ، ألا يفصح عمله عن موقف سواء بوعى منه أو بغير وعى ؟ . وتصبح الصيغة السليمة للسؤال هى : بماذا يلتزم ؟ : أيلتزم بموقف القوى الصاعدة والعلاقات الاجتماعية الجديدة ، أم تعجز رؤيته فتقف عند القوى المنهارة والعلاقات القديمة ؟ . والذى يحدد قدر العلاقات وجدتها مرحلة التطور التى يمر بها المجتمع . وفى مرحلة التحول الى الاشتراكية يصبح الالتزام بموقف القوى الثورية الجديدة والعلاقات الاشتراكية ، تحقيقا للوجود الاجتماعى للفنان ، وتحريرا له من ضيق الفردية.**

يتناول هذا التصور الخبرة فى شمولها ، والمعرفة فى وحدتها ، والانسان فى علاقاته الاجتماعية المفسرة لسلوكه ونشاطه . ولكن تظل هناك مشكلات جمالية دقيقة يدور حولها حوار واسع فى الفكر المعاصر ؛ خصوصية الفن – كجزء من البناء الفوقى وصورة من صور الوعى – وقوانين تطوره الذاتى واستقلاله النسبى، البحث فى أداة كل فن وتقاليده الخاصة، مفهوم الواقعية الاشتراكية نظريا ومنهجيا وضرورة الموقف النقدى ، والانفتاح على كافة الاساليب والاشكال من التجارب الموروثة والمعاصرة ...الخ. ويتناول هذه المباحث وأمثالها مفكرون كبار يسعون الى تخليص النظرية الفنية والمناهج النقدية من الجمود والضيق ، وهذا **أراجون** يدعو الى **(الواقعية المنفتحة)** ، بينما يدين **لوكاش** كل **(واقعية صادرة عن الحكومة)** ، وينادى **جارودى** ب **(واقعية بلا حدود)** . انما حسبنا من التصور السابق انه أفاد فيما أردنا تناوله هنا من أن النظريات واحدية الجانب لا يصدر عنها الا مناهج جزئية ، وأن النظرية العلمية تفتح المجال واسعا أمام منهج أكثر دقة وانضباطا . واذا كان البحث الجمالى لم يصل الى غايته من الحسم والتقنين الموضوعى، فان المؤمنين بالعلم ، المتفائلين بمستقبله سيظلون على يقين بأن تقدم البشرية علميا وتكنيكيا لن يدع مجالا فى خبرة الانسان دون تفسير .

عبد المنعم تليمة

اللغة فى ضوء البحث الحديث

د. محمود فهمى حجازى

البحث فى بنية اللغة

عرف القرن الماضى اذن المحاولات الأولى فى التحليل اللغوى ، ولكنها لم تكن محاولات لفهم بنية اللغة بصفة عامة ، أو بنية لغة ما كنظام متكامل ، بل كانت جهودهم منصرفة الى بحث ظواهر مفردة ، وثمة فرق بين بحث بنية اللغة بتحليل عناصرها وبايضاح علاقاتها وتكاملها وبين بحث ظاهرة ما مثل الضمير « أنا » أو وزن من الأفعال أو نمط من أنماط الجملة فى كل اللغات التى تضمها الأسرة اللغوية المفردة ببحث المراحل



ارتبطت أولى محاولات التحليل اللغوى فى العصر الحديث بتيارات الفكر العلمي التى سادت القرن التاسع عشر ، ومن ثم فقد ظهرت تلك المحاولات فى اطار علم اللغة المقارن • أعجب الباحثون فى اللغة بالنظرة التطورية التى مثلها دارون وغيره من المتخصصين فى علم الحياة ، وراقهم منهجه فى ترتيب الكائنات فأخذوا يحاولون ترتيب الظواهر اللغوية ترتيبا تاريخيا • فالظواهر التى وصلت اليهم فى اللغات المختلفة التى حاولوا بحثها لا بد وأن تنتظم فى البحث اللغوى ذى النظرة التطورية فى اطار تاريخي ، وبهذا كان التركيز على الأصوات وبناء الجملة والدلالة لا فى اللغة الواحدة بل فى الأسرة اللغوية بما تضمه من لغات ولهجات متنوعة • وحاول الباحثون فى القرن التاسع عشر كذلك تصنيف اللغات قيد الدراسة فى أسرات وفصائل ، فكما نجح علماء النبات والحيوان فى تصنيف النباتات المختلفة وأنواع الحيوانات المتغايرة المتباينة حاول اللغويون تصنيف اللغات، ونجحوا فى هذا الأمر على أساس تحديد خصائص مشتركة افترضوا أنها كانت موجودة فى كل لغة من اللغات الأم التى خرجت عنها اللغات المختلفة المنضوية فى اطار أسرة لغوية واحدة • ولم يكن من الممكن فى عصر حققت فيه العلوم الطبيعية بمناهجها الدقيقة نجاحا كبيرا ودقة أكبر ـ اذ تم لعلمائها اكتشاف كثير من القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية ـ أن يهدأ اللغويون دون البحث عن قوانين تفسر التطور اللغوى ، فكما اهتدى علماء الطبيعة الى قوانين تفسر كثيرا من جوانب الكون حاول علماء اللغة اكتشاف القوانين التى تفسر التطور اللغوى ، وما التطور اللغوى فى ذلك الاطار الا تطور الظاهرة المفردة فى كل اللهجات واللغات التى تضمها الأسرة اللغوية الواحدة •

التى مرت بها قبل أن نصل الى الأشكال التى وصلت اليها ، وشتان بين هذا وبين ما يقول به ـ اليوم ـ الباحثون فى بنية اللغة كنظام رمزى متكامل • ما أشبه البحث اللغوى المقارن بمنهجه الذى ازدهر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن القرن العشرين بباحث يريد بحث بنية المجتمع فيبحث فى أنساب عدد كبير من أفراده ويركز اهتمامه على مهد أجداد بغض أفراده ، وكأنه بهذا يستطيع التعرف على بنية المجتمع •

وعلى الرغم من أن المدرسة البنائية فى علم اللغة تنكر أساسا جدوى هذا الضرب من ضروب البحث لسبرغور بنية اللغة ، فلا بد أن نقرر هنا أن المنهج المقارن أسدى خدمة جليلة فى محاولة بيان طبيعة اللغة ، فقد خرج بعلم اللغة الى مرحلة البحث الدقيق ، وكشف لأول مرة عن وجود ما أطلقوا عليه اسم « القوانين الصوتية » • وفوق هذا فقد أتاح علم اللغة المقارن نظرة موضوعية دقيقة للهجات ، فقد دفعت عوامل مختلفة الى عدم وضوح الرؤية تجاه اللهجات ، وهنا أتى علم اللغة المقارن ليدرس الظاهرة اللغوية المفردة فى

كل صورها الموجودة فى اللهجات واللغات المختلفة فى الاسرة اللغوية الواحدة ، وبهذا أخذت ظواهر اللغة الممثلة فى اللهجات مكانهـــا الطبيعى دون امتهان لها ودون استخفاف بها أو اقلال من شأنها الى أن أتاح دى سوسير ابراز فكرة البنية اللغوية فاكتشفت فى اللهجات بنية لغوية جديرة بالبحث والدراسة .

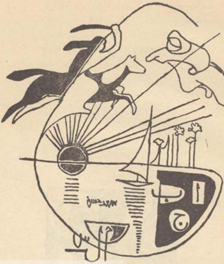
اللغة نظام من الرموز

كان الباحث السويسرى فردينان دى سوسير F. de Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣) نقطـــة تحول حاسمة فى تاريخ البحث اللغوى الحديث ، فقد كانت رؤيته الواضحة لجوانب كثيرة من بنية اللغة منارا أمام تلاميذه واجيال الباحثين بعـده . ادرك دى سوسير فى وضوح وجلاء أن اللغة نظام من الرموز ، ومعنى هذا أن اللغـــة مكونة من الوحدات المترابطة المتكاملة فى نظام رمزى ،فادراك طبيعة اللغة لا يتاح - فى رأى دى ســــوسير - بالتاريخ لكل ظاهرة مفردة على حدة، فليست النظرة التاريخية ســبرا لغور الشىء ، وليس البحث عن تفسير الاشياء بالنظر فى تاريخ جزئياتها ادراكا لطبيعتها ، ولا بد من بيان العناصر فى تكاملها اذا توخينا فهما لجوهر اللغة كنظام من الرموز الصوتية وفرق دى سوسير كذلك بين النظرة العرضـية أو الوصـــفية من جانب والنظرة الطوليـــة أو التاريخية من الجانب الآخر : الأولى تبحث النظام اللغوى فى تكامله فى مستوى لغـوى بعينه . والثانية تدرس النظام اللغوى فى تحوله وتطوره . وكان فى ابراز دى سوسير لجوانب البحث الوصفى ما أخذ بلب تلاميذه فاخذوا يركزون عليه ويعملون فى اتجاهه فرق دى ســوســـير كذلك بين الكلام parol واللغة langue ، فكل مستخدم للغة لا يستخدم مهما أوتى من الفصاحة واللسن الا قطاعا من هذه اللغة ، ومجموع الصيغ اللغـوية التى قيلت واستخدمت فعلا ليست الا قـــدرا من اللغة ، فاللغة هى مجموع الصيغ والانماط المختزنة فى اللاوعى عند الأفراد فى البيئة اللغوية ،واللغة هى الرباط الاجتماعى بالوسيلة الصوتية الرمزية فالنظام النحوى للغة من اللغات مستقر بصـــورة تجريدية غير واعية فى ذهن مجموع أفراد المجتمع يتوسل كل منهم بقدر منه ، وليس كل فرد منهم مدركا لكل عناصر النظام بنفس القـدر وبنفس الدرجة ، واللغة هى ذلك النظام المستقر عنـــد مجموعهم ، وعلى الباحث أن يحاول بلورة هـــذا النظام بوحداته وبعلاقاته المتكاملة . وللباحث دى سوسير جهد فى ايضاح الطبيعة الرمزية للغـــة ، فالرمز اللغوى دال signifiant يشير الى مضمون يدل عليه signifié ، وهدف الباحث فى اللغـــة أن يتبين بين عناصر الدلالة المختلفة مكتشفا قدرتها الرمزية . فاللغة عند دى سوسير هى ذلك النظام المستقر عند الجماعة ككل والذى يمكن تبين عناصره من الظواهر اللغوية المتاحة .

ظهور علم الفونولوجى

وتقدم علم اللغة بظهور علم الفونولوجى تقدما أعاد الباحثين الى دراسة اللغة كنظام رمزى ،وكان للباحث الروسى تروبتسكوى (Trubetzkoy) فضل بلورة المنهج الفونولوجى وتطبيقـــه تطبيقـــات ناجحة ، فقد اتجه البحث الصوتى قبل تروبتسكوى الى دراسة اللغة كظاهرة تشريحية - فيزيائية ، أى أن الباحثين حاولوا دراسة الصوت اللغـــوى وهو يصدر عن الجهاز الصوتى للمتحدث ، أو بحث الخصائص الفيزيائية للصوت الناتج وهو ينتقل من المتحدث فى الهواء الى المتلقى ، وأدى هذا الى دراسات عامة فى طبيعة النطق وتشريح الجهـــاز الصوتى وفسيولوجية الكلام وكذلك فى شـــدة الصوت والذبذبات الناتجة عنه ، وهنا انصرف جهدهم الى الصوت فى نفسه دون النظر فى طبيعته كجزء من نظـــام رمزى متكامل . وعندما بلور تروبتسكوى نظريته فى الفونيم أو الوحـــدة الصوتية فرق بين الفونيم من جانب وصـــوره الصوتية المختلفة من الجـــانب الآخر . ولنوضـــح هذا بأمثلة من اللغة العربية ، فصوت الســـين يختلف فى العربية عن الصاد فى أن السين صوت غير مطبق والصاد صوت مطبق ، ونفس هـــذا الفرق الصوتى نجده بين اللام المرققة فى : بالله، واللام المفخمة (أو المطبقة) فى : والله . الى هنا والبحث صوتى ، ولكن علم الفونولوجى ينظر الى هذه الظواهر لا فى خصائصهـــا التشريحيـــة الفيزيائية فحسب ، ولكنه يبحث الأصوات فى ضوء حقيقة أساسية وهى أن اللغة نظام من الرموز الصوتية ، وهنا نلاحظ أن احلال رمز السين محل الصاد فى كلمات مثل : سائر / صائر ، سبر / صبر ، يغير المعنى ، فالسين هنا رمز لغوى والصاد رمز لغوى آخر . فاذا ما أحللنا هذا محل ذاك

تغيرت الدلالة وتغير المعنى ، وهنا نقول بأن السين فونيم أو وحدة صوتية ، والصاد فونيم آخر ، أو وحدة صوتية أخرى ، وبعيد هذا عن أمر اللام المرققة واللام المفخمة ، فلو نطقنا باللام مطبقة محل غير المطبقة لما تغير المعنى ، وهنا نقول بأن هذين الصوتين الخاصين باللام فى العربية صورتان صوتيتان لوحدة صوتية واحدة • يبحث علم الفونولوجى محددا بادىء ذى بدء الوحدات الصوتية المكونة للنظام اللغوى قيد الدراسة ، وهنا يكون المعنى وتغيره أو عدم تغييره فيصلا فى التمييز بين الوحدة الصوتية والصورة الصوتية • وهذا مرتبط بالنظام اللغوى قيد الدراسة ، فلكل لغة نظامها الفونولوجى وفونيماتها الحكومة •



ما بعد المنهج الوضعى

أدى نجاح تطبيقات التحليل الفونولوجى فى اللغات المختلفة الى تقدم منهجى فى الجوانب الاخرى من علم اللغة ، فقد أوضح لنا علم الفونولوجى أولا وقبل كل شيء أن مصطلحات أى علم من العلوم هى رموز لا قيمة لها الا فى اطار نظام نظرى متكامل وأن المصطلحات والمفهومات لا تتحدد قيمتها الرمزية داخل النظام الا بعلاقات التضاد والتكامل • واتضح كذلك من منهج علم الفونولوجى أن المصطلحات والمفهومات النظرية لا تمثل بالضرورة ملاحظات ملموسة ، ولا تنطبق انطباقا مباشرا على الأشياء الملموسة المدركة ، بل تطابق علاقات مجردة أو وحدات نظرية ، فالفونيم ليس له وجود ملموس فى النظام اللغوى، وانما هو القيمة الوسطى بين مجموع الصور الصوتية التى تنضوى فى وحدة صوتية واحدة • واذا كانت الوحدة الصوتية أمرا مجردا ليس له ما يمثله — بالمعنى الدقيق للكلمة فى الواقع الملموس ، فان فى هذا هدما للمنهج الوضعى فى العلوم الانسانية ، فلم يعد البحث قاصرا على ما يدرك بالحواس بل تجاوز المنهج الفونولوجى الوضعية ليستخرج هذه العلاقات المجردة الحاسمة • هذا ولا يمكن التوصل الى ادراك وتحديد الوحدات الصوتية أو الفونيمات بمجرد تعميم المعطيات ، بل لا بد هنا من اتباع المنهج الذى عرفته العلوم الطبيعية فى البحث ، فلا بد من فصل بعض الظواهر التى تبدو بسيطة فى علاقاتها تمهيدا لبحثها ، ثم تجاوزها الى الظواهر الأكثر تعقيدا • ولا تقوم عملية اكتشاف مكونات النظام الفونولوجى بوحداته

الصوتية وعلاقاتها على مجموعة الملاحظات الخاصة بذلك ، بل يتبلور ذلك بملاحظات مبدئية تؤدى الى فروض لا بد من اختبار صحتها فى ضوء الواقع وهذا يجعلنا نفرق فى وضوح بين المتغيرات والثوابت ، فلتحديد أو لاختبار الفرض القائل بأن صوتين يمثلان وحدتين صوتيتين مختلفتين تأتى بكلمتين بهما تكرار لكل الأصوات - عدا الصوت موضع البحث فى كل كلمة منهما ، مثل: تين : طين • فالمتغير الوحيد هنا فى الصوت يقابله تغير الدلالة ، ونمضى فى التحقق من صحة الفرض بأمثلة أكثر وصفوة القول ان هذا المنهج الذى ينطلق من الملاحظة الى الفرض الى اختباره فى ضوء الواقع ، يتيح ادراك كثير من المفهومات النظرية والعلاقات بين الوحدات المكونة ، وهذه وتلك ليست مما يدرك بالحواس ومما لا يمكن سبر غوره بالمنهج الوضعى ، وشبيه بهذا أمر التعرف على الذرة ومكوناتها ، فلم يستطع البحث سبر أغوارها بالمنهج الوضعى ، بل بالفروض التى أدى اثباتها الى المضى نحو فهم طبيعتها • ومن ثم يقارن كثير من الباحثين مثل كلود ليفى شيروس بين التحول الذى أحدثته الطبيعة النووية وما بدأ من تحول فى العلوم الانسانية بعد تبلور المنهج الفونولوجى ، وهكذا أتاح علم الفونولوجى بنظرته فى الوحدات الصوتية غير المدركة حسيا وبعلاقاتها وبكيفية ادراكه لها منطلقا طيبا للبحث فى العلوم الانسانية بمنهج ظهرت بعض بواكيره فى السنوات العشر الماضية •

نظرية الأنماط الصرفية

والنظام اللغوى لا يقتصر فى مكوناته على الوحدات الصوتية ، فلا بد لهذه الوحدات أن تنتظم فى أنماط صرفية محددة ، ولكل لغة نظامها الصرفى الخاص بها ، وأصغر الوحدات الصرفية هو ما يطلق عليه اسم « المورفيم » ، ويدرك كذلك بالتقابل بين الصيغ وبوسائل أخرى ، فكلمة « شخص » هى أصغر « وحدة صرفية » نخرج بها من مقابلة الكلمات ، شخص : شخصى : شخصية فالكلمة الثانية مكونة من وحدتين صرفيتين هما : شخص + الكسرة الطويلة ، والكلمة الثالثة مكونة كذلك من وحدتين صرفيتين هما : شخص + الكسرة والياء المشددة والتاء (أو الهاء) ، وهناك فرق بين الوحدة الصرفية الاولى ، فهى وحدة حرة يمكن أن تستقل برأسها مكونة كلمة



كاملة ، أما الوحدة الصرفية الثانية فى كل من الكلمتين الأخريين ، فهى وحدة صرفية مقيدة • ويهدف البحث الصرفى هنا الى تحديد الوحدات الصرفية المختلفة ودراسة أنواعها من حرة ومقيدة وأنماطها المختلفة ، وعلاقاتها فى النظام اللغوى وهناك معايير مختلفة لتحديد الانماط الصرفية ، وحسبنا أن نذكر هنا أن لكل لغة تصنيفها الخاص، فالعربية تصنف كلماتها مثلا الى مؤنث ومذكر ، والألمانية تعرف المذكر والمؤنث والمحايد ، والسواحلية تصنف الأسماء الى ستة أجناس - على الأقل - وذلك وفق السوابق التى تسبق المفرد وما يقابلها فى الجمع ، والتركية لا تعرف تمييزا بين ما يعبر عنه فى العربية بالمذكر والمؤنث فلكل لغة نظامها الذى يحكم العلاقات بين عناصرها وهذا لا يتحدد الا بالتقابل بين الصيغ فى اللغة الواحدة وفى المستوى الواحد ، وغنى عن البيان أن لا علاقة بين المنضدة خشببا كانت أم حديدا وبين التأنيث فى العربية ولا بينها وبين التذكير فى الالمانية ، فاللغة رمز وتصنيفنا لاسم مافى لغة ما بانه مذكر ، يعنى تصنيفنا للرمز لا لما يدل عليه •

ولا تتألف اللغة من كلماتها الا منتظمة فى أنماط

تتخذها الجملة ، وهنا تظهر دراسات اللغوى الامريكى شومسكى (ينطق الأمريكيون اسمه شومسكى ، والألمان ينطقون خومسكى ،وهو لغوى معاصر عرف بجهوده فى بناء الجملة ومناهج البحث فيها) فى بناء الجملة ، والفكرة الاساسية عنده تقول بأن النظام اللغوى ليس المجموع الحسابى لما سجل من عبارات ، بل هو شىء مجرد له وجوده الفعال وغير الواعى لدى أفراد المجتمع اللغوى،فهناك امكانيات متنوعة متجددة للاستخدام اللغوى • وهدف اللغوى هنا ليس مجرد الاستقراء الوضعى ، بل عليه أن ينطلق من المادة المتاحة ، لوضع فروض حول أنماط الجمل الممكنة، ثم تختبر هذه الفروض فى ضوء الواقع اللغوى •

وبعد تحديد النظام الفونولوجى ونظام الأنماط الصرفية وامكانيات تكوين الجملة ، فلا بد من النظر فى المفردات ودلالتها ، والقيمة الدلالية للمفردات لا تتحدد الا بعلاقاتها فى النظام اللغوى قيد الدراسة ، وهناك مثال بسيط فى هذا ، فاذا افترضنا كلية تمنح طلبتها التقديرات التالية : ممتاز (= ١٠٠٪ ـ ٩٠٪) ، ثم جيد جدا (= ٩٠٪ ـ ٧٥٪) ، ثم متوسط (= ٧٥ ـ ٥٠٪) ، وقارنا هذا بنظام تقديرات آخر فى كلية أخرى تعرف تقديرات أكثر تنوعا : ممتاز مع الشرف (= ١٠٠٪ ـ ٩٠٪) ، وممتاز (٩٠٪ ـ ٨٠٪) ، وجيدا جدا (٨٠٪ ـ ٧٠٪) ، وجيد (٧٠٪ ـ ٦٠٪) ومقبول (= ٦٠٪ ـ ٥٠ ٪) لاحظنا أن كلمة (ممتاز) لها فى النظامين مدلولان مختلفان كل الاختلاف ، ووجدنا كلمة (جيد جدا) تختلف بين النظامين اختلافا نسبيا ، ولاحظنا أن كلمة (متوسط) غير موجودة فى النظام الثانى ، وليس لها ما يقابلها على نحو مباشر فيه • ومن هذا المثال البسيط نخرج بنسبية الدلالة وبأنها لا تتحدد الا داخل النظام اللغوى أو بمعنى آخر : داخل النظام الرمزى الواحد ، وليس الحديث عن أصولها التاريخية أو عن مقابلاتها فى اللغات التى تندرج فى اطار نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى اليها تلك الكلمة أداة لفهم طبيعتها وقيمتها الرمزية •



●●●

وبعد ، فقد حقق علم اللغة بمنهجه فى تحليل البنية درجة عالية من الدقة ، فأصبح كثيرون من المشتغلين بعلوم الانثروبولوجيا والاجتماع وعلم النفس والنقد الادبى فى عدد من جامعات أوربا وأمريكا يطبقون الاسس المنهجية للتحليل اللغوى أو لتحليل البنية اللغوية فى بحث العلوم الانسانية المختلفة ، فبدأ التمييز بين الدراسة الوصفية للبنية وبين الدراسة التطورية لها ، وتوسلوا بالتمييز بين العناصر الرمزية الدالة وما تدل عليه فى اطار المجتمع • وأخذ باحثون مثل كلود ليفى شتروس يبحثون فى الانثروبولوجيا البنائية عن نمط الحقيقة الكامنة وراء الجزئيات المدركة حسيا أو عقليا كما يبحث اللغوى عن الفونيمات ، والبنائية بهذا المعنى ـ كما يقول كلود ليفى شروس » ليست رأيا فلسفيا بل هى منهج يحاول تصور الحقائق الاجتماعية المعاشة على شكل نموذج نظرى ، وفى هذا لا ينظر الى العناصر المكونة فى نفسها ، بل الى العلاقات القائمة بينها » • وهو يحاول التعرف على «البنية غير المدركة التى ينبثق عنها كل نمط وكل عادة اجتماعية » • وبهذا تجاوزت البنائية حدود الوضعية لتمضى بمنهج الملاحظة والفروض وتحقيقها الى ادراك العلاقات السائدة فى الظواهر الاجتماعية الانسانية ادراكا يكشف على نحو دقيق مالا يمكن اكتشافه بالمنهج الوضعى •

محمود فهمى حجازى